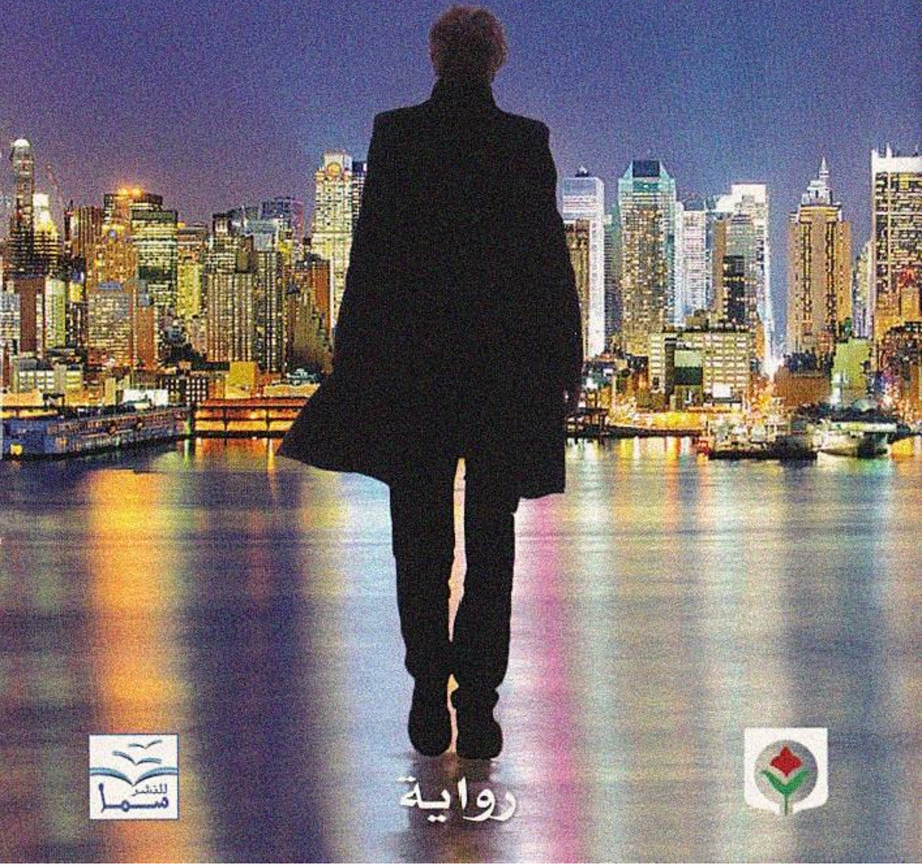
غيوم ميسو

عائد لأبحث عنك



رواية

غيوم ميسو

عَائِدٌ لأبحث عنك

رواية

ترجمة: نور الدين ضِرّار

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

«ترعرعتُ بين الكتب، مُتخذاً لي منها
أصدقاء غيرَ مرئيين بين ثنايا الصفحات
التي كانت تتساقط كذرّاتِ الغبار، ولا
تزالُ رائحتها إلى اليوم عالقة بيدي».

كارلوس رويز زافون

ظلّ الريح

استـهـلال

الآن أو قطعاً إلى الأبد

عليك أن تنتزع حقك بَدَلَ أن تطلبه.
فما من أحد يمنحك شيئاً.
مقتطف من فيلم الرّاحل
لمخرجه مارتان سكورسيزي

غالباً ما نُصادِف قَدَرَنا يتربّص
بنا في الطرُق التي نتخذها مَهرَباً.
لا فونتين

تصوّروا.

نيويورك.
هيجان ميدان تايمز سكوير.
الصياح، الضحك، الموسيقى.
روائح الفشار، الهوت-دوغ، الدخان.
غازات النيون، الشاشات العملاقة، اللوحات الضوئيّة المشعة على واجهات ناطحات السحاب.

اختناقات المرور، سيارات الأجرة، صفارات دوريّات الشرطة، زعيق الناقلات.

ثمّ زحمة العابرين في احتكاك وتدافع، على شكل مَدٍّ متواصل من السيّاح، والباعة المتجوّلين والنشالين.

أنت مجرّد حبّة رمل وسط كل هذه الحشود.

تبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة.

أمامَك على الرصيف، على بُعدِ مترين، تتسكع خطيبتك وصديقك المفضّل. اسمها ماريزا. دأبتما على الخروج معاً منذ أن كنتما في سنتكما الأولى بالثانوية، ومن المرتقب أن تعقدا قرانكما آخرَ الشهر. مع جيمي، تبقى علاقتكما أبْعَدَ عهداً. لقد ترعرعتما معاً في الحيِّ العمّاليّ نفسه جنوب بوسطن.

يُصادفُ عيدُ ميلادك هذا المساء. وإرضاءً لك، نظّما هذه الرحلة الصغيرة إلى مانهاتن، وقطعتَ أنت المسافة من بوسطن على متن تلك الموستنغ المتقادمة المتآكلة.

أنت في ربيعك الثالث والعشرين فحسب، ومع ذلك لديك انطباعٌ بأنّ وجودَك مبرمجٌ قبلاً بلا أمل.

يجب التذكير بأن اليوم الذي رأيت فيه النور لم تحتشد فيه الساحراتُ حول مهدك. ولأجلك كانت حياة والديك كلها كدّاً لم يُسْعِفهما في تغطية نفقات دراستك، ومنذ توقف مسارك الدراسي وأنت تشتغل في الأوراش مع جيمي. وكل حياتكما اليوميّة أكياس الإسمنت، والسقالات، والتعرّق وشتائم رئيس العُمّال.

هواياتك؟ شرب قنيناتٍ من الجعة بعد العمل، ومصاحبة ماريزا للتسوق، ولعب مباراة في البولينغ مع الأصدقاء مرتين في الأسبوع.

في حالة أقرب إلى الذهول، تستسلم للانسياق وسط الحشود، شارداً منبهراً بالأضواء. على الشاشات الوامضة تشِعّ إشهاراتُ سياراتٍ لن تُكتَبَ لك قيادتها أبداً، ساعات نفيسة يساوي ثمنها عشرة أضعاف راتبك، وألبسة فاخرة تتزيّا بها نساء مهيبات لن يُعِرْنَك أيَّ انتباه.

مستقبلك؟ زواج بلا هِمّة، وطفلان أو ثلاثة، لتأخذ على عاتقك مشقة تسديد قرض عقاري لاقتناء بيت صغير لن تشعر فيه أبداً بالاستقرار.

وستواصل لعب البولينغ، واحتساء الجعة، وإعادة تشكيل عالم لن يكون لك حقيقة أيّ إسهام في مجرياته.

أنت متورط في حياة ليست على مقاسك، مع أنك لا تزال في الثالثة والعشرين من عمرك فقط. يملؤك الشعور بأنك مختلف عن العالم الذي يحيط بك. ليس هذا بسبب احتقارك لأسرتك وأصدقائك. هناك أمر آخر: مهانة الفقر التي تبعث فيك الإحساس بالحاجة كعارٍ دائم. هذا لا يثير لا ماريزا ولا جيمي اللذين يطيب لهما باطمئنان ترديد: «نحن فقراء، لكننا على الأقل سعداء».

لكن هل هذا مؤكد حقاً؟

كيف السبيل للاعتقاد بأن للحياة طعماً مغايراً على الطرف الآخر من الحاجز؟

ها أنت تذرع الشارع دائماً، وجهاً مجهولاً في غمرة زحام فائق الوصف. بين الحين والآخر، يلتفت جيمي وماريزا ليوجّها إليك

إشارة برأسيهما للحاق بهما، غير أنك تبقى دونهما طوعاً على بُعدِ مسافة.

منذ بضعة أشهر، بدأتَ خفية تقتني كتباً. تنعشك الرغبة أكثر في معاودة التهذيب والتكوين على أسس أخرى غير تلك التي عهدتها في وسطك الأصلي. وعلى مؤشر مذياعك، حَلَّ موزارت وباخ مَحَلَّ الراب والسول. وفي مقر عملك صِرتَ تحرص، رغم سخرية العُمّال الآخرين، على تخصيص فترة الاستراحة في الزوال لتصفُّح مقالات **نيويورك تايمز**.

أخذ النهار يميل للأفول، وأنت تواصل مراقبة المشهد في الزقاق. زوجان شابّان يخرجان ضاحكين من فندق فاخر ويستقلان سيارة مكشوفة زاهية. تماماً كما في صور عرض الأزياء، بأسنان ناصعة البياض، وإحساس بالثقة وأناقة فائقة على غرار نمط إنجلترا- الجديدة.

كلّ هذا لن يكون من نصيبك أبداً.

في هذا البلد الذي يطيب فيه القول أن النجاح يتوقّف على الذات، يتملّكك الإحساس بأنك في غير مكانك المناسب. وفي سكون الليل، غالباً ما تخامرك هذه الفكرة: معاودة الانطلاق من الصفر، والتخلي عن كلّ شيء، ثم مواصلة دراستك من أجل انتزاع نصيبك من الحلم الأميركي.

لكن من أجل هذا، سيكون لِزاماً عليك أن تعلنَ القطيعة مع وسطك، وعائلتك، وخطيبتك وأصدقائك، وأنت تعلم جيداً أنّ ذلك يدخل في باب المستحيل.

حقاً؟

في زاوية الزقاق 50، بائع متجول عجوز يتخذ موقعه لبيع الهوت دوغ على صوت مذياعه، بمؤشره المضبوط على موجة الروك. منه تنبعث أغنية **الآن أو قطعاً إلى الأبد**، رائعة إلفيس بريسلي، مشيعة على الرصيف جوّاً من الحيوية والضوضاء.

- **الآن أو قطعاً إلى الأبد.**

تقف بمحاذاة كشك جرائد، تلقي نظرة على الصفحة الأولى من **نيويورك تايمز**. في هذه اللحظة الدقيقة، تُرى ما الذي يدور بخلدك؟ لماذا هذا الرهان الأقرب إلى الجنون؟

- **ذات يوم ستكون صورتي على الصفحة الأولى من هذه الجريدة.**

- **في غضون خمسة عشر عاماً، أنا مَن سيكون هنا، أقسِمُ على ذلك.**

هل تقدّرُ عاقبة ما أنت مُقدمٌ على فعله؟ هل تعي بأنك ستظلّ كلَّ الليالي، حتى مَماتِك، تفكّر في هذا اليوم بالذات؟

اليوم الذي أقدمت فيه بجرَّة قلم على تغيير مجرى حياتك.

اليوم الذي تركتَ فيه كلَّ الذين كانوا يحبّونك.

اليوم الذي، على أمل أن تربح كلَّ شيء، كان عليك أن تخسر كلَّ شيء.

- **الآن أو قطعاً إلى الأبد.**

غارقاً وسط جموع السيّاح، تستغلّ توقف المرور لتعبُر الشارع الفسيح.

لا ماريزا ولا جيمي أبصراك.

- **الآن أو قطعاً إلى الأبد.**

في غضون ثلاثين ثانية بالضبط، ستلتفت خطيبتك، غير أنك ستكون حينها قد اختفيت.

دائماً وإلى الأبد.

في غضون ثلاثين ثانية بالضبط، ستكون على أهبةِ أكبَرِ وأغرَبِ تَحَدٍّ في حياتك.

أن تَصيرَ إنساناً آخر.

استهلال 2

نهاية حُبّ

أنا كنتُ مُغرَمة بك، وأنت كنت
مغرماً بأخرى. سِيّانَ ما بيننا.
مقتطف من فيلم امرأة الجوار
لمخرجه فرانسوا تروفو

بعد عشر سنين

مقهى صغير في ويست سايد، عند ملتقى شارعي برودواي وأمستردام.

جوّ دافئ على الرغم من الصمت المطبق. مقاعد مريحة مغلّفة بالجلد الداكن، يُشرف عليها بار طويل بطلاء برّاق. وفي الأرجاء، تشيع روائح خفيفة مشبَعَة بنكهة القِرْفة والفانيليا والعسل.

أنت جالسٌ إلى المائدة قبالة امرأة شابّة بزَيٍّ مضيفة طيران. سيلين بالادينو.

تُمَرِّرُ كمَّها على خديها، تكفكف الدموع المنهمرة من عينيها الخضراوين بأجفان مُرقشة بذرّاتٍ ذهبية متلألئة.

أنت تعرفها لأكثر من عام. يجمعكما حبّ عابر للمحيطات على

إيقاع الرحلات الجويّة التي تحملها كلَّ أسبوعين عبر الخط الرابط بين باريس ونيويورك.

سيلين قصّة حب لم تكن تترقّبها. حب من أوّل نظرة على نحو غير متوقع، تواصَلَ بينكما عن طيب خاطر وألقى بك في عالم مجهولٍ إلى هذا الحين.

وأنت لم تكن تعرف قبلاً أنّك ستفتقدها ذات يوم.

والآن ها قد حان موعدُ ذلك اليوم.

لأنك مع كلِّ لحظة تمُرّ تصير أكثر عشقاً، ومعها تصير على هذه الدرجة من الهشاشة، وهو ما ترفضه بتاتاً فأنت لا تزال في الطور الذي لا يُتيحُ لك أن تُدرك أنك بالإمكان أن تكون على هذا القدر من الحَساسية دون أن تكون بهذه الهشاشة.

وفوق ذلك، أنت مقتنع بأن قصة حبك تتوقف على سوء تفاهم: إذا كانت سيلين تحبك، فلأنها لا تعرفك حقّ المعرفة. ذات يوم، ستفتح عينيها على حقيقة طبعك وتدرك أنك مجرّدُ طموح قذر.

لكن، ليس هذا هو المهم.

المهم هو هذا الصوت المنبعث من داخلك بلا انقطاع: إذا كنت تحبّ سيلين حقاً، فعليك الابتعاد عنها، لأنها بصحبتك تبقى عرضة للخطر.

أين هو مبعثُ هذا الهاجس المسبق؟ أنت لا تعرف مصدره البتة، لكنه يسيطر عليك إلى الحدّ الذي يضطرك لأخذه بكل جدّيّة.

ها أنت ترى سيلين للمرّة الأخيرة، ودموعها تنهمر على كعكتها بالشوكولاتة.

مع ذلك، حين دخلت قبل قليل إلى هذا المقهى، حيث دأبتما

على اللقاء كلّ مرة، كانت تبدو مشرقة متهلّلة وهي تخبرك بانتقالها للعمل بمكاتب الخطوط الجويّة الفرنسية بمانهاتن.

- أخيراً سيكون بإمكاننا الحياة معاً، وننجب طفلاً.

سرعان ما بدوتَ أكثر تحفظاً. الحياة معاً؟ لستَ بعد على استعداد لذلك. طفل؟ سُقتَ لها قائمة من الأسباب المانعة من إنجابه: استنفاد الرغبة، المسؤوليات الضاغطة، انزعاجك من النظر للأمومة كقيمة متسامية.

تحَمَّلت الصّدمة على مضض. ثم ساد صمتٌ موجع وهي متسمِّرة في مكانها. هذا كثير، لم يَعُدْ بوسعك تحمّلُ تضايقها من الأمر. ستنهض لتأخذها بين ذراعيك، غير أنّ الصوت المخاتل عادَ للازمته المكرورة:

- **سيلين ستموت إذا بقيتَ معها.**

هكذا، لتفادي نظرها أزحتَ بصرك بعيداً إلى الخارج متظاهراً بتتبع العابرين وهم يهرولون تحت زخات المطر.

- هل هي النهاية؟ سألت وهي تنتصب واقفة.

حين لم تجرؤ على الرّدّ، اكتفيتَ بحركة برأسك في إشارة للتأكيد.

*

بعد خمسة عشر يوماً، ستعود إلى هذا المقهى. سيمدّكَ أحَدُ النادلين بظرف ستتبيّن عليه خط سيلين بشكله الطليق. حينها ستقاوم الرغبة في فتحه وتكتفي بالعودة إلى بيتك مرتاباً من قدراتك على تجاوز هذه الورطة الفادحة. ثمّ ستجمع في علبة كارتونيّة كل الأشياء النادرة التي تركَتها لديك أو تلك التي لا تزال عليها بعضٌ من آثارها: ملابس، مستلزمات حمّام، قارورة عطر ماركة كاشاريل،

جزء من فيلم **جميلة السيّد**، ديوان أشعار لأراغون، قرص مدمج لنينا سيمون، نسخة من فيلم **موديغلياني**، ملصق الصيغة الأميركيّة لفيلم **قلب في الشتاء**، مشط من محار، إبريق شاي ياباني، ورسالتها الأخيرة التي لم تقُم بعد بفضّها.

ستخرج إلى الزقاق من العمارة الصغيرة التي تقطنها، في حيّ غرينتش فيلادج، في خلفيّة جامعة نيويورك، وترمي بالعلبة الكارتونية في حاوية القمامة، على الرصيف المقابل، ثم تواصل سيرك متنفساً الصّعداء.

مع ذلك، ستخرج مرّة أخرى تحت جنح الليل البارد لاستعادة الرسالة. لن تفتحها أبداً، لكنك ستحتفظ بها معك إلى الأبد على سبيل استيهام حضورها.

لعلها دليل على أنك لست في نهاية المطاف سوى نذلٍ حقير.

*

وتتوالى الأيّام.

عام، عامان، . . ، خمسة أعوام.

ستحقق الارتقاء الاجتماعيّ الذي طالما حلمتَ به: الشهرة، السيارات الرياضية، الرحلات في الدرجة الأولى، عارضات الأزياء في سريرك الوثير، وجهك المتشدق على شاشة التلفزيون.

ومع مرور الزمن، سَتحْمِلُ نفسَكَ على الاعتقاد بأنك نسيت سيلين.

غير أنك من دونها،

ستبقى فريسة الإحساس دائماً بالوحدة.

القسم الأوّل

هروب

1

هذا اليوم بالذات...

أعداؤنا الحقيقيون هم مَن يكمنون بدواخلنا.

بوسويه

مانهاتن

السبت 31 أكتوبر 2007

الساعة 7 و59 دقيقة و57 ثانية

إيتان ويتاكر يتلذذ ثوانيه الثلاث الأخيرة من النوم، على متن يخته الباذخ على ضفاف الهودسن.

إنه يغط في نوم عميق، سابحاً وسط سحابات ضبابية تغشى أرض الأحلام التي يتهيأ لمغادرتها ليعيش يوماً طافحاً بالكوابيس.

الساعة 7 و59 دقيقة و58 ثانية

أكثر من ثانيتين.

في هذه اللحظة، لا شيء قد بدأ بعد من هذا السفر الغريب الذي سينتهي به في قلب المجهول والمعاناة. سفر سريّ انفراديّ سيلقى فيه في الآن نفسه ما يُدَمِّرُه ويُمَكنه من ميلاد جديد، لكنه أيضاً سيُمَكِّنُه من مواجهة تخوفاته الأكثر ثقلاً، وحسراته الأكثر عمقاً وتطلّعاته الأكثر جنوناً.

هل تعرف على وجه اليقين ما يجول بدواخلك؟

وإذا لم تكن على هذه الحال، ماذا سيكون بوسعك أن تعطي مقابل أن تعرف نفسك حقاً؟

الساعة 7 و59 دقيقة و59 ثانية

الثانية الأخيرة قبل اليقظة.

الثانية الأخيرة قبل اليقظة.

وماذا لو كنا جميعاً في إثر شيء نملكه قبلاً؟

*

الساعة 8 تماماً

فزّة.

مَدَّ إيثان يداً جَسوراً تلتمس عدة ثوانٍ قبل أن توقفَ تصاعُدَ قوة رنة المنبه. عادة ما كانت رنة المنبه تثيره، أما اليوم فهي تعنّفه. استغرق وقتاً طويلاً وهو يحاول النهوض، استشعر حُمّى تكتسحه، متقطع الأنفاس كما لو كان قد بذل للتوِّ جُهداً جهيداً. حنجرته متيبسة من الظمأ كحنجرة شخص لم يقرب الماء منذ أيّام. انتابته رغبة في الغثيان مع ألم واخزٍ يسري خَدَرُه في بدنه من رأسه حتى قدميه. حاول أن يفتح عينيه، غير أنه سرعان ما استسلم لعجزه: أجفانه تبدو مَخِيطة، رأسه على وشك الانفجار وإبرة مثقب خفيّ تنخر بشكل منهجيّ قلب دماغه.

أية تجاوزات مفرطة أقدم عليها البارحة جعلت جهازه العضوي يكلِّفه هذا الثمن؟

حاول أن يهدئ من تسارع نبضات قلبه، وبجهد فائق الحدّ

انفرجت أجفانه قليلاً. تبيّنَ شعاعاً خافتاً يخترق كوّاتِ يخته الصغير، يزيد بانعكاساته المشعة من بريق خشب الجدران داخل المقصورة الفسيحة الفاخرة التي تتمدّد على كل عرض المركب. بمزيج من الأناقة والتكنولوجيا، تنم مظاهر تزيينها عن حياة مترفة: سرير من الحجم الكبير، آخر صيحة من الأجهزة ذات التقنية العالية، وأثاث فاخر أصيل.

كان إيثان متكوماً على نفسه بحاشية السرير، محاولاً استجماع أفكاره تدريجياً، حين استشعر بغتة حضوراً ماثلاً بجانبه. التفت للتو اتجاهه مختلساً النظر بأجفان واهنة.

امرأة.

هكذا إذاً.

كانت تلتفّ بأغطية من الساتان الصقيل، لا يَبينُ منها غيرُ كتفٍ عارٍ عليه بقع باهتة من النمش.

مال إيثان نحوها يستطلع وجهاً بيضويّاً بقسمات رقيقة، وقد غطت جزءاً منه خصلاتٌ طويلة مائلة للحمرة تسترسل في انسياب على الوسادة.

- **هل أعرفها؟**

تحت رحمة صداع الرأس الذي يعاني، حاول أن يتذكر مَن تكون هذه المرأة متسائلاً عن الظروف التي جاءت بها لتندسَّ في فراش يومه، لكن.

- **لا شيء.**

لا شيء يتردّد برأسه غير الصداع والخواء. وذاكرته لها فعلُ برنامج معلوماتي يستعصي عليه تحميل المعطيات المطلوبة. حاول بداية الأمر مضاعفة جهده لتجاوز حالة التشوش التي تستبدّ به:

بالكاد تذكَّر أنه غادر مقرّ عمله أوّلَ المساء، ثم راح بعد ذلك لشرب كأس في سوسياليستا، الحانة العصرية الجديدة في ويست ستريت، حانة لا تزال تسُودها أجواء **كوبا الحرة** التي تعيد إلى الأذهان هافانا الأربعينيات. طلب كأس «موخيتو»، فكأسين، ثم ثلاثاً. وبعد ذلك. لا شيء بقي يذكُره بالمرة. حاول عبثاً أن يركِّز، اغتاظ لعجزه عن استحضار أية ذكرى من ليلة البارحة.

- **تبّاً...**

بعد برهة، فكر في إيقاظ الجميلة النائمة بقلب سريره أملاً في إنعاش ذاكرته، غير أنه تردّد، ثم سرعان ما صرف النظر لتفادي محادثة مبعثرة قد لا يظفر بطائلٍ منها.

أفلح بعد لأْيٍ في التسلُّل من الفراش بهدوء حذر، وتوجّه بخطى متردِّدة عبر الممرّ الضيّق المفضي إلى الحمّام. مقصورة ذات أرضية مبلّطة بألواح من الخشب النادر المستورد، وجدران مجهزة بصفائح تجعل منها أشبَهَ بقاعة سونا. فتح صنبور «الحمّام» فانبعث بخار ساخن رطب غمَرَ فجأة إطار الزجاج كله تقريباً بسحابة ضبابية.

شدَّ رأسه بيديه وشرع يمسِّدُ صدغيه.

- **لا ترتعب.**

مسألة فقدان الذاكرة أفقدته توازنه. كان يكره الشعور بفقدان التحكّم في ذاته. كلّ هَمِّه أن يكون مسؤولاً، يحاول التحكّم في مسار حياته: هذا ما كان يردِّده مع ذلك في مجموع كتبه، وندواته وبرامجه التلفزيونيّة.

- **افعل ما أقول، ولا تفعل ما أفعل...**

تدريجياً، تبدّد إحساسه بالذعر. من منظر وجهه المتخشّب، يبدو أنه لا جدوى من محاولة استعادة سيناريو البارحة: أكيد أنه قام

بجولة عبر الحانات، هذا كلّ ما في الأمر. كانت ليلة سكر طافح، «موشاة» على الأرجح ببضعة أسطر من المسحوق الأبيض. وهذه الفتاة؟ قد تكون عارضة أزياء صادفها في علبة ليلية، وراودها وهو لا يزال في حالة صحو.

ألقى نظرة على الساعة، انزعج لتأخره واستعاض عن البخار الساخن بدفقة ماء باردة جداً، أملاً دون مبالغة في الاعتقاد، بأن هذه الصعقة الحرارية قد تساعده في استحضار مجريات البارحة.

*

بعودته إلى الغرفة، لاحظ إيثان أن الغريبة المجهولة لا تزال بالسرير نائمة وقبضتاها مغلقتان. وقف واجماً لبرهة، مأخوذاً بالتباين الجليّ بين بياض بشرتها والانعكاسات ذات اللون النحاسي لضفيرتها كان قد تجفّف ماء الحمّام على جسده، وهو يتفقد أرديتها الملقاة على الأرضيّة: ملابس داخلية من ماركة فيكتوريا سيكرت، وفستان أسود مفتوح من ماركة دولتشي آند غابانا، ثم زوج حذاء من ماركة جيمي تشو مرقّش بالبلور.

لا شيء آخر غير هذه الأنواع الفاخرة.

هناك أمر ما لا يُستساغ: ألّا يذكر بالمرة كيف راود فتاة على كلّ هذا القدر من الجمال والرفاه.

وجد إيثان على الأريكة حقيبة يد على هيئة علبة مُشبّكة. بلا تحفظ فتّش محتواها. لا بطاقة تعريف ولا رخصة سياقة ولا أية وثيقة يمكنها أن تدلّه على هوية هذه الحسناء النائمة. لم يجد بها غير نظارتين شمسيتين، وعلبة مسحوق، وورقتين نقديتين من فئة مائة دولار، ثم ظرف صغير مطوي من المحتمل أن يحتوي على مخدّر الكوكايين. أغلق الحقيبة بتوتر بيّن.

- ثم ماذا لو كانت هذه الفتاة مومساً رهن الخدمة بالهاتف؟

كان إيثان مجبراً على التوقّف عند هذا الاحتمال. ليس لأنه يشكّ في قدرته على الإغراء. فهو يُتقن استدراج النساء وإقناعهن بصحبته، لكن ليس حين يكون في حالة طافحة من السكر، وليس عند الرابعة صباحاً، وليس دون الاحتفاظ في الذاكرة بأقل صورة ممكنة.

- ومع ذلك. . .

منذ أن صار وجهاً معروفاً يظهر على شاشة التلفزيون ويقيم في يخت مليونير، لم يعد يَكِدّ كثيراً للحصول على المال. هذا من المظاهر الإيجابية للشهرة التي لم يكن غافلاً عنه، وإن كان أحياناً هناك شيء ما يبعث على الشعور بالحزن.

على كل حال، إذا كانت هذه الفتاة مومساً محترفة فيجب أداء أجرها مقابل خدمتها. لكن ما ثمن هذه «الخدمة»؟ ألف دولار؟ خمسة آلاف؟ عشرة آلاف؟ لكنه لا يعرف السعر على وجه التحديد.

في نهاية المطاف، ارتأى حلاً وسطاً ودسّ في ظرف أربع أوراق نقدية من فئة خمسمائة دولار.

وضعه على طرف البار لتتيسّرَ لها رؤيته. هو يعرف في قرارة نفسه أنه ليس مبلغاً ذا بال، لكن يبقى في نهاية المطاف القدر الذي ارتآه. هكذا هي الحياة. كان بودّه إضافة شيء ما، تفسير لائق على سبيل التبرير، لكنه اتخذ الساعة المداهمة ذريعة لصرف النظر عنه بدعوى عدم كفاية الوقت المتبقي لديه لذلك. وفوق ذلك، منذ بضع سنين لم يكن لديه أبداً الوقت الكافي مع النساء لتقديم «التفسيرات». حصل ذلك قبلاً، كان الوضع مختلفاً حقاً، في زمن يعود لعهد بعيد. لقد أزاح عن فكره وجه تلك المرأة. لكنه لماذا لا يزال إلى اليوم يفكر فيها مع أنه قلَبَ صفحة علاقته بها منذ سنوات خَلَت؟ من جديد

نظر إلى الساعة وصعد إلى الطابق الأعلى، مقتنعاً أنه أفلح بدقّة في وضع حدّ لهذه القصة الساخطة.

*

الصالون متناغم مع بقية الأجزاء الأخرى من اليخت، بكنبته الجلدية ذات اللون القشدي ونوافذه الزجاجية البانورامية: فضاء أنيق مغمور بالنور، به ركن للأكل مجهّز بخشب البلوط والزجاج المبرنق، بجوار مطبخ بمسحة بسيطة ووظيفية.

تناول إيثان قارورة ماء معطّر كانت على الرف بين صورتين تذكاريتين، تجمعه الأولى بباراك أوباما، والثانية بهيلاري كلينتون. عمّدَ نفسه منها برَشاتٍ تنِدّ عنها نكهة ذكورية خاصة بالرجال كما يوحي بذلك تعاطيهم التبغ والملابس الجلديّة. كان يعتدّ بالجانب «الرجولي» في شخصيته متجاهلاً التوجه الحالي الذي يحمل بعض الرجال على الاهتمام بالجانب الأنثوي في شخصياتهم مهما كان كلفته.

- هذه كلها ترهات.

هذا الصباح، سيشارك في برنامج مهم على قناة «إن بي سي». عليه أن يكون في كامل هيئته، وفيّاً لهذه الصورة التي نسجها بصبر عن نفسه كمعالج إنساني مفعَم بالحنوّ، وحازم في تصرفاته برغم ما يوحي به مظهره من «برود» في شخصيته، ليشكّل بذلك مزيجاً هجيناً من فرويد ، والأم تيريزا وجورج كلوني.

فتح خزانة مشاجب الملابس لاختيار بدلته المفضلة: من ماركة برادا منسوجة من الصوف والحرير، انتقى معها قميصاً من ماركة أوكسفورد وزوج حذاء من ماركة سانتوني.

- لا يجب الخروج أبداً بألبسة تقلّ قيمتها عن أربعة آلاف دولار.

كانت هذه هي القاعدة المتَّبعة لمن يريد أن يكون في كامل أناقته.

أمام المرآة، أغلق زِرَّ سترته -عَمَلاً بنصيحة توم فورد الكفيلة بتخسيس الوزن في الحال بعشرة كيلو كاملة-، وللتمويه ارتأى لنفسه مظهراً يوحي بكونه الرجل اللامبالي، كما فعل العام الماضي، حين اتخذت له صورة لمجلة فوغ الخاصة بمشاهير نيويورك. ومن مجموعة ساعاته الفاخرة التقط واحدة من ماركة هامبتون، ليُكمل زينته بمعطف واقٍ من المطر من ماركة بوربيري.

كان يعرف، في قرارة نفسه، أنّ كلَّ هذا البذخ لا يعني في الحقيقة شيئاً، حتى أنه يراه مثيراً للسخرية. لكن تلك هي الحال اليوم في مانهاتن، إذ تقتضي العادة إيلاء العناية الفائقة للتوضيب ما دام كلّ شيء في النهاية مُجَرّدَ مظهر عارض.

دخل المطبخ، أخذ قطعة كعك، قضم نصفها قبل أن يخرج إلى المعبر الأعلى حيث داعبت شعره ريح قوية كانت تهبّ على خليج نيويورك. ضبطَ على أعلى أنفه نظارتيه الشمسيتين بإطارهما الخفيف المريح، ثم وقف لحظة للإمعان في طلوع النهار.

كان مرفأ نورث كوف الصغير غير معروف بالنسبة إلى الكثيرين. يقع على بُعد خطوتين من منتزه باتري بارك أربعة أبراج مشيّدة بالصوان والزجاج قبالة ساحة أنيقة تشرف عليها معلمة زجاجية كبيرة تغطي الحديقة الشتويّة التي تكللها أشجار النخيل السامقة.

صادف سرباً من العدّائين في حصتهم الصباحية يركضون

متباطئين في آخر طور من مَدارهم، ببدلات رياضيّة من آخر صيحة، وسمّاعات «الآيبود» العالقة بآذانهم، بينما أبصارهم مشدودة إلى جزيرة إيليس وتمثال الحريّة. في تحدّ مستفز، أشعل إيثان سيجارة، وبدأ يفرك يديه واحدة بالأخرى طلباً للدفء، غير أن مشاكسته لم تُثِر انتباه أحد. على الرغم من عصف الريح، استلذّ الانتعاش بطلائع هذه النفحات الخريفية الباردة. تطلّع إلى السماء، لمح طائراً بريّاً أبيضَ يحلق منفرداً على علوٍّ منخفض، فاستبشر به فألاً حسناً جالباً للحظ.

بدأ هذا اليوم على نحوٍ غريب، هذه حقيقة، لكنه الآن يحسّ بالانتعاش والاستعداد الكامل لمواجهة الحياة. فاليوم سيكون يوماً مشهوداً.

- صباح الخير مستر ويتاكر. حياه حارس المرفأ عند دخوله موقف السيارات الصغير.

غير أن إيثان لم يبادر برَدّ التحيّة. وقف مذهولاً مُسَمّراً أمام سيارته -آخر طراز من نوع مازيراتي، على شكل نيزكة بالأسود اللمّاع أشبه بسنّورة رشيقة- وشرع يحملق بغيظ في حجم الأضرار: مقدّمة السيارة مهشمة، الجناح الأمامي على اليسار مضغط، إحدى العجلات مفزورة وعلى الباب خدوش عميقة.

- **شيء لا يُصَدّق.**

هو لا يذكر على الإطلاق أدنى حادث مرور آخِرَ مرّة ركب سيارته، كان هيكلها يومض بألف بارقة ترتسم عليها خطوط انسيابة متماوجة رائعة.

للحظة بدا عليه التوتر من جديد. لا بدّ أن خطباً ما حصل البارحة، خطباً لم تحتفظ منه ذاكرته بشيء.

- لا ، لا داعي للانزعاج؛ كما العادة، كنت ثملاً، ومن المحتمل أنني صَدَمتُ درابزون أحد المراكب على رصيف المرساة. هذا كل ما في الأمر.

على أيّ حال، سيقود سيارته الـ«مازيراتي» يوم الاثنين إلى ورشة التصليح ليستعيدها كما كانت من قبل أنيقة جديدة، بكلفة بضع عشرات الآلاف من الدولارات. ولا يهم ارتفاع الكلفة ما دام لا يجد حتماً أية مشكلة في توفير المال.

بلَمسَة منه لمفتاحه الأوتوماتيكي، انفتحت له الأبواب، جلس إلى المقود وسط علبة تحف من الخشب الرفيع والجلد الإيطالي الأنيق الفاخر. لبرهة استعاد إحساسه بالسكينة والاطمئنان بفعل هذا الجوّ المترف الناعم، ثم لم يلبث أن ارتسمت على وجهه من جديد ملامح الانقباض. لقد انتابه الندم لكونه لم يقُم بإيقاظ الشابة الشقراء التي تركها نائمة بجانبه على السرير. من الأجدر به أن يفكر فيها، فلعلها الوحيدة التي بإمكانها أن تساعده في كشف ما وقع ليلة أمس.

تردَّد إيثان لبعض الوقت في العودة إلى اليخت قبل أن يصرف النظر بالمرة. هل له رغبة أكيدة في معرفة ما وقع؟ إنه لم يعُد في الحقيقة على يقين من ذلك، فما حصل بالأمس صار اليوم جزءاً من الماضي، ومنذ خمسة عشر عاماً تعلم مع الأيّام ألّا يعير للماضي اهتماماً.

بمجرّد أن أدار مفتاح المحرّك وأخذ يتهيّأ لمغادرة موقف السيّارات حتى شوّشت باله صورة مريبة بعثت بخاطره فكرة مطلقة العنان. تلك الفتاة ذات الخصلات المائلة للحمرة.

- ماذا لو كانت ميتة؟

لا، هذا غير معقول، لماذا فكّر في ذلك؟ لا يزال يتذكّر أنه،

هذا الصباح، استشعر بوضوح نَفَسَها الناعم الدافئ. لقد كان من ذلك أقربَ إلى اليقين.

- أقرب إلى اليقين، لكنني لستُ واثقاً...

شدّ قبضته فجأة وضرب بها المقود أمامه.

- أنت تطلق الكلام على عواهنه.

ها قد أخذته نوبته الهذيانية مرة أخرى. وهو يعرف أنها من الأعراض التي بدأت تتفاقم بداخله مع الشهرة والمال، ويغذّيها الخوف لديه من أن يفقد في لحظة خاطفة ما كَدَّ في جَنْيِهِ طيلة خمسة عشر عاماً.

- توقفْ عن تعكير حياتك بهذه الهلوسات.

حاول أن يستعيد تمالك نفسه فيما يشبه صدمة كهربائية جعلته، ولو مؤقتاً، يستفيق من أفكاره السوداء ويهدئ من أعصابه المتشنجة.

هذه المرّة، قرّر فعليّاً مغادرة موقف السيّارات بأسرع ما يمكن؛ ضغط على دوّاسة البنزين بكلّ عنف، مستمتعاً بقوة المحرّك ذي الأربعمائة حصان ومبدّل السرعة من الدرجة الثامنة.

سيكون هذا اليوم يوماً رائقاً.

يبدو واثقاً من ذلك.

إنه يومٌ مشهود.

يومٌ مجنون.

2

الرّجُلُ المتعجّل

أعرف جيداً ما أنا بصدد التهرب منه، لكنني
لا أعرف إطلاقاً ما أنا بصدد البحث عنه.

مونتين

مانهاتن
السبت 31 أكتوبر
الساعة 8 و53 دقيقة



أوتار قيثارة جيمي هندريكس في تمام تناغمها وهي تتردد عبر مكبرات الصوت الأحد عشر الموزعة داخل السيّارة بدقة متناهية، وأنغامها المتصادية تمزق اللحن الأصمَّ الرتيب للمحرك الهادر بنبرته الهادئة.

واضعاً قدمه على لوح الدوّاسة، اخترق بسيارته مسرعاً حيّ الأعمال. اعتاد أن يعبُره وسط موجة عارمة من الجلبة والرّواج طيلة الأسبوع، غير أنه يبدو له صبيحة هذا السبت موحشاً تقريباً على غير المألوف. فكّر في ذلك وهو يواصل طريقه صاعداً باتجاه «ميدتاون».

لم يتأخر طويلاً في أن يجد سبيلاً لاستعادة شعوره بالطمأنينة.

السرعة، السماء الصافية الزرقاء، أشعة الشمس المنعكسة على الواجهات الزجاجيّة لناطحات السحاب: كلها تتكامل في إضفاء مسحة جمالية على نيويورك هذا الصباح. وإيثان يحب نيويورك.

- المدينة التي يشعر فيها الإنسان بالألفة حين يأتيها من اللامكان.

مع ذلك، يبدو أن وجه المدينة على غير عادته هذا الصباح. كما لو كانت أزقة نيويورك، على غير صورتها المعهودة، موقعاً مصطنعاً لتصوير عمل سينمائي. نظر إلى الراجلين والسيّارات، تَطلعَ إلى العمارات دون أن يتوصّل لكشف سرّ هذا الجو الخارج عن المألوف.

بتوتر، أدار إيثان مؤشر المذياع ليعثر على محطة محلية:

- الآلاف من سائقي سيارات الأجرة أضربوا عن العمل في مانهاتن لفترة ثمانٍ وأربعين ساعة احتجاجاً على المشروع البلدي الرامي إلى إلزامهم بتجهيز مركباتهم بنظام تحديد المواقع وآلة الأداء بالبطاقة البنكية.

هذا ما كان ينقص المشهد لتصير معه حركة المرور أكثر انسيابية: سيارات الأجرة. بهذا صارت مانهاتن تعطي الانطباع بافتقادها أحد مقومات هويتها وهو أسطولها من العربات الصفراء.

- هذا الإجراء بنظر السائقين المهنيين ينطوي على انتهاك سافرٍ لحياتهم الخاصة، إذ يتخوفون من كون هذه الأنظمة، فضلاً عن ارتفاع كلفتها، تمكِّن السلطات من اقتفاء آثارهم وتحديد مواقعهم. وبحسب نقابة مهنيي النقل العام، فإن هذا الإضراب ستصل نسبة المشاركة فيه إلى ما يقارب مائة بالمائة، ممّا سينجم

عنه اضطرابٌ ملحوظ في حركة النقل. فطوابير المسافرين آخذة في الامتداد في مطارَيْ كينيدي ونيويورك، وهو الوضع القائم نفسه أمام محطة بينسيلفانيا. . .

ألقى إيثان نظرة على ساعة لوحة القيادة أمامه، وارتسمت على وجهه ملامح تأفّف ظاهر: إنه على موعد مع البث المباشر للبرنامج الصباحي الشهير «السبت في أميركا». وهو يمثّل مصدر استقطاب لستّة ملايين من المشاهدين الذين يحرصون على متابعته بداية كلّ نهاية أسبوع. وقد جرت العادة أن يقترن كلّ ظهور له في حلقة من حلقاته بارتفاع كبير في مبيعات كتبه وأقراصه المدمجة وتعاظم لائحة الجهات الراغبة في الإفادة من تدريباته وندواته التي تمتد عادة في مثل هذه المناسبات لعدة أسابيع متواصلة.

منذ ثلاث سنوات أصبح، بين عشية وضحاها وجهاً إعلامياً مشهوراً. وحتى لو كان يطلق عليه أحياناً لقب «الدكتور»، فهو لم يكن طبيباً. لقد كان بنيَّته أن يتابع دراسته بشعبة الطب في «تيفل» غير أنه أدرك بعد مرور أربع سنين أنه ضلَّ الطريق. فكلفة الدراسة في معاهد الطب كانت مرتفعة للغاية والمسار الدراسي فيها طويل جداً. وفوق ذلك، فعالم المستشفيات لم يكُن يثير اهتمامه. إذ لم يكن يرى أيّ امتياز في العمل كطبيب عام بسيط يكرّسُ كل وقته لعلاج أعراض الزكام وآلام الرأس.

ما كان يثيره، في المقابل، كل ما كانت له علاقة، من قريب أو بعيد، بعلم النفس؛ إذ سرعان ما فطن بمهارته العالية في الإقناع والقدرة على التأثير في الآخرين. على هذا الأساس، لِمَ لا يكرس مواهبه في المجال الذي يثير حقاً شغفه، انحرافات الفكر الإنساني؟ وما دام ذا نزوع نفعي ويسعى للنجاح في الحياة، فقد كان يبحث عن

منفذ لفضاء الزمن الرحيب. بدأت بعض الكلمات تينع في الكتب ووسائل الإعلام: التطوير الشخصي، دروس في السعادة، فن الحياة، التقدير الذاتي، الانشراح. أدرك أنّ له في هذا المجال الواسع فرصة عليه الإمساك بها. هكذا ترك مقاعد الجامعة وفتح عيادة صغيرة للعلاج النفسي بضاحية مورنينغسايد هيغتس وإيست هارلم.

قضى سنوات، وهو يعالج زبائن من الفئات الشعبية يعانون الاكتئاب، الإدمان، التهاب المفاصل وآلام الظهر. حين يستحضر هذه الفترة يدرك إلى أيّ حدّ كانت تجربة حاسمة في حياته. فبحكم علاقته بهذه الطينة من زبائن الحي استطاع أن يكوّن نفسه تدريجياً، ويستكمل معارفه في علم النفس، ويتشبَّع بالقراءات، ويحضر تداريب فن الحياة، وأيضاً عدة ندوات في «الإرشاد الروحي» والتطوير الذاتي. انطلاقاً من هذه العناصر التي نهلها من ينابيع مختلفة انتهى إلى صياغة نظريته الخاصة القائمة على نموذج مدقق من الروائز والتقنيات المختبرة والأكثر جدة: الفكر الإيجابي، العلاج السلوكي، العلاج بالاسترخاء، لعب الأدوار، المسرح، السيكودراما[1]، العلاج بالضوء، العلاج بوخز الإبر، التواصل الوجداني. وكان أول مَن اقترح في مانهاتن نظرية حديث المشائين القائمة على استمالة مرضاه للحديث في أثناء جولة للتنزه عبر ممرات حديقة سنترال بارك. لا يهم إذا كانت هذه العلاجات بلا سند علمي صلب، لكن ما الداعي للاستغناء عنها كتقنية أساسية في

(1) علاج نفسي يجمع بين الدراما وعلم النفس. الهدف منه هو إيجاد حلول للمشاكل عن طريق مساعدة الشخص في فهم مشاعره.

العلاج بعد أن تتأكد فعاليتها بحكم نتائجها المرجوة مع بعض المرضى؟

بعد أربعة أعوام، انقلبت حياته على نحوٍ غريب ذات مساء، كان قد حان وقت إغلاق عيادته حين رأى زبونة عجيبة وبصحبتها طفل يقارب العشر سنين من عمره. على الرغم من نظارتيها الشمسيتين اللتين تخفي بهما عينيها، والقبعة الحريرية التي تغطي بها شعرها، تعرّفها بسرعة. إنها لوريتا كراون منتجة ومنشِّطة البرنامج الشهير الذي يحمل اسمها. كيف تأتي لهذه الأميركية ذات الأصول الأفريقية التي تعتبر في عداد النساء الأكثر ثراء وتأثيراً في عالم الإعلام أن توجد في عيادته المتواضعة بهارلم؟ جاءه الجواب مختزلاً في أربع كلمات: عاملة النظافة المشتغلة لديها. قبل أشهر معدودة، أفلح إيثان في تخليصها من آلام شقيقة الرأس المزمنة -بفضل ثلاث حصص علاجية بوخز الإبر-، وهو الحديث الذي باشرته مع المحيطين بها إلى أن انتهى إلى مسمع مشغِّلتها.

على كلّ حال، جاءته لوريتا طلباً لاستشارته في شأن طفلها الذي يعاني حالة عُصاب نفسي جراء موت والده الصاعق قبل عامين في ظروف مفجعة. في جولة بحرية على ظهر مركبه الشراعي، سمح الأب لابنه بناءً على طلبه بتسلّم المقود لدقائق، وانتهزها فرصة لضبط الأشرعة وتعديل وجهتها. بعصفة ريح مفاجئة فقد الأب توازنه وسقط في البحر. ارتعب الطفل ولم يعرف كيف يوقف المركب. وفي محاولة منه لأن يفعل شيئاً لأجل والده ارتمى بدوره في مياه المحيط الباردة. بعد ساعة، كان هو الناجي الوحيد الذي عثَر عليه رجال الإنقاذ.

ظلّ الطفل منذ ذلك الحادث الفاجع، يعاني أزمة نفسية حادة

ناجمة عن شعوره بعقدة الذنب؛ وباسترجاعه من وقت لآخر المشهد الصادم للواقعة، تنتابه نوبات الرعب، وتستبد به الهواجس، ممّا يرمي به في مهاوي المأساة أكثر فأكثر. حين جالَسَه إيثان، وجده مؤرقاً، مكتئباً، متوتراً، عاجزاً عن التركيز ومنقطعاً عن الدراسة منذ أشهر.

طافت لوريتا كراون بطفلها كل عيادات الأطباء النفسانيين الأكثر شهرة على الساحل الشرقي، لكن لا مضادات الاكتئاب، ولا وصفات التخفيف من حالات الشرود، لا ولا حصص التنويم المغناطيسي، كانت كفيلة بتخليصه من اضطراباته ووضع حدّ لمعاناته.

لقد أسعف إيثان الحظ والحدس معاً. باشر مع الصبي بضع حصص من الحركات البصرية[1] التي ساعدته على أن يعاود «معايشة» تفاصيل هذه الواقِعة الصادمة مع إعادة تنظيم ذاكرته لتمكين الدماغ من «هضم» المأساة التي عاشها.

هكذا، تماثَل الطفل للشفاء وصار بالتدريج خارج دائرة الخطر، وهو ما كان وراء شعور لوريتا كراون بالعرفان لإيثان بالكثير من الفضل. وإعراباً منها عن عمق امتنانها أوعزت إليه بأن يصدر كتاباً عن تجربته في العلاج النفسي ليتسنى لها فيما بعد توجيه الدعوة إليه للمشاركة في حلقة من حلقات برنامجها الشهير. إنها لوريتا، عاهلة الأثير التي تتربع منذ قرابة عشرين عاماً على عرش الإعلام ببرنامجها الناجح الذي حوّلها إلى مؤسسة قائمة بذاتها. لوريتا التي تنشط

---

(1) علاج نفسي يعتمد على الحركات البصرية للتخلص من اضطراب ما بعد الصدمة.

قداسها الاحتفالي على أكثر من مائة وخمسين قناة محلية. وفي الأيام التي تشهد نسبة عالية من المشاهدة، تصل إلى استقطاب أكثر من خمسة عشر مليوناً من المتابعين، تمثل النساء غالبيتهم بنسبة 80 بالمائة. وعلى غرار لاري كينغ، تعتبر لوريتا أيقونة الثقافة الشعبية وتتمتع بقوة التأثير وسط الملايين من المشاهدين. وهكذا، ما أن أوردت ذِكر كتاب إيثان حتى تحقّقت له كمعالج شابّ أفضل أرقام المبيعات، ليفيد بعدها من وابل من المقالات الصحفية التي كتبت عنه لتفتح له باب الشهرة والنجاح.

وإلى جانب ذلك، أتاحت له تلقي الدعوات للمشاركة في برامج أخرى تلفزية وإذاعية، ممّا حوّله في نهاية المطاف، وفي غضون ستة أشهر، إلى الضيف الأثير بلا منازع على شاشات التلفزيون كلما تعلّق الأمر بموضوع له صلة بعلم النفس.

على هذا النحو، انتهز إيثان كلّ الفرص المتاحة ليصير عمّا هو عليه الآن إمبراطوراً على رأس مؤسسته المالية الصغيرة. وانطلق من يومها في إعطاء تعاليمه على شكل كتب، ندوات، تداريب بالغة الكلفة، مواقع الإنترنت، أقراص مصورة، كتب صوتية، روزنامات، أقراص مدمجة للاسترخاء. ومؤخراً، اقترحت عليه عدة جامعات إعطاء «دروس في السعادة»، كمجال معرفي جديد مطابق لذوق العصر صارت تُقبِل عليه الكثير من الكليات منذ أن أقدم عالم النفس الشاب «طال بن شاكار» على بلورة وتطوير هذا الموضوع في قاعات المحاضرات بجامعة هارفارد.

على الأثير، أشاع إيثان في أوساط مشاهديه أجواءَ الثقة، وعمّق في نفوس متابعيه مشاعر الاطمئنان، كانت له أفكار وجيهة وشعور بالاقتدار، لكن دونما ادّعاء أو عجرفة. لم يسبق أن قدَّم

نفسه أبداً بصورة معلّم روحي، ممّا أكسبه مزيداً من المصداقية. تعوّد في تعاطيه مع مواضيعه اعتماد خطاب مرن، مليء بالمعاني الدالة ومنسجم مع روح عصر تنخره الريبة، منصرفاً إلى حثّ الناس على انتهاج نمط جديد من العلاج من دون حصص التحليل النفسي المرهقة ولا وصفات الأقراص المضادّة للاكتئاب، حتى وإن كان هو نفسه مدمناً على تعاطي مهدئ الـ«بروزاك». كما يدعو لاتّباع أسلوب البساطة في الحياة والتجرد من النزوعات المادية، حتى وإن كان هو نفسه غارقاً في حياة البذخ والترف؛ هذا مع تأكيده على دور الأسرة، والصداقة والعلاقات الاجتماعية، حتى وإن كان هو نفسه يعيش حياة الوحدة والضجر.

- افعلوا ما أقول

*

خفَّف إيثان سرعة السيارة قبل أن ينحرف نحو الطريق السريع. ورغم الوقت المتأخر، ارتأى أن ينعطف باتجاه ميدان تايمز سكوير: بغرض تصفية حسابه الأخير مع ماضيه. مضت خمس عشرة سنة بأكملها، خمس عشرة سنة بكلّ أيامها منذ أن قرّر ذات مساء خريفي أن يترك حياته الماضية على أمل أن يصير شخصاً آخر.

توقف أمام فندق ماريوت، عَهِدَ بمفاتيحه للمسؤول عن ركن السيارات، وبدل أن يَلِجَ الفندق عَبَرَ الشارع.

كان ميدان تايمز سكوير موحشاً تقريباً. وسط الزقاق، صادف مجموعة من اليابانيين في حالة انتشاء، يأخذون لبعضهم الصور وهم يتصايحون «ياتّا» بنبرة ساخرة تذكّر بالسلسلة التلفزية المفضلة لديهم.

أشعل إيثان سيجارة. وجد موزع الصحف ما زال دائماً كما عَهِدَه في ذكرياته قابعاً في المكان نفسه. نفحه القدر المطلوب من

القطع النقدية، قبل أن يسحب عدد اليوم من جريدة **نيويورك تايمز**، ويشرع في البحث عن ملحق «الفن والثقافة» لتطالعه صورته في الصفحة الأولى تحت عنوان:

المعالج النفساني الذي فتن أميركا

في أوّل الأمر، كانت المادة مقرّرة للنشر في الأسبوع الموالي، غير أنه أفلح بفضل علاقاته التعجيل بنشرها ليصادف ذكرى مولده التي كان الوحيد مَن يعلم بها: تصفَّح المقال بشكل عارض: وجده طافحاً بالتمجيد والإطراء تماماً كخطاب قداسة.

شدّ جُماعَ قبضته وضرب بها الصندوق المعدني للهاتف العمومي. هكذا كتب له النجاح! ها قد وفى بوعده: في غضون خمسة عشر عاماً استطاع أن يظهر على الصفحة الأولى من جريدة **نيويورك تايمز**. لقد انطلق من الصفر ليصل إلى القمّة، وكما يقول الناس هنا: **ما يتحقق لك في نيويورك تستطيع أن تعيد تحقيقه في أي مكان آخر.**

على الطرف الآخر من الزقاق، لمح عاملين بصدد تثبيت لوح زجاجي على واجهة متجر «فيرجين ميغاستور». وهو يتابعهما، قفزت إلى الذاكرة مشاهد من حياته قبل خمسة عشر عاماً، حين كان عاملاً في أوراش البناء مع صديقه جيمي. لعله لأوّل مرة يقيس المسافة التي عبرها. الزقاق نفسه عبره مراراً قبل خمس عشرة سنة خلت. كان عليه قطع مسافة خمسة عشر متراً للعبور إلى الطرف الآخر من الرصيف، وخمس عشرة سنة للوصول إلى قمة المجد. هكذا تدفق في ذهنه سيلٌ جارف من الذكريات، غير أنه لم يلبث أن عمَد لتوقيفه في الحين.

من المؤكد أنه ضحى بكلّ شيء من أجل الوصول إلى القمّة، وضرب من حوله طوقاً من العزلة، وفوق ذلك أتقن اللعبة ولم يذهب طموحه سدى.

وهو ينظر إلى حركة المرور المتدفقة باتجاه الجنوب، انتابه إحساسٌ عميق بالحسرة. أليس من الغرابة ألّا يجد بجنبه مَن يشاطره ثمرة هذا النجاح؟

في لحظة خاطفة، لمع في ذهنه وجه سيلين وهي تتطلع إليه بعينيها الخضراوين، ثم لم تلبث أن أسبلت أهدابها وتلاشت صورتها، ليتزايد فجأة خفقان قلبه ويداهمه في الحين شعور بالانقباض.

لا، تمالك نفسك! الحياة جميلة. أنت تملك كلّ ما ترغب فيه، وتعرف جيداً أنّ قدر الإنسان أن يكون وحيداً على الدوام، وحيداً في اللحظات النزقة حقاً، وحيداً حين ينتهي الحب ويرحل، وحيداً حين تباغته الشرطة ذات صباح، وحيداً في حضرة الطبيب وهو يكشف له عن إصابته بالسرطان، وحيداً وهو يحتضر...

حاول أن يحيد بفكره عن هذه الأسطوانة المشروخة. ومن أجل الحدّ من قلقه المداهم الناجم عن نجاحاته الكبرى، عليه أن يتعلّق بطموحٍ آخر لسنواته القادمة مهما كانت كلفته. لقد سبق له أن تلقّى دعواتٍ للالتحاق بالمجلس البلدي. ولو كرّس جهده بالكامل لتحقيق هذا الطموح، لتوسّم في نفسه الكفاءة المطلوبة للوصول إلى كرسي عمدة نيويورك. ومع ذلك، قرَّر ألّا يبادر بخوض الانتخابات القادمة، على أمل أن يهيئ نفسه للاستحقاقات الموالية المرتقبة بعد ثمانية أعوام.

هذا ما كان منشغلاً بالتفكير فيه حين أحسّ في جيبه بذبذبة هاتفه المحمول «بلاك بيري»، ووصله من الطرف الآخر من الخط صوت

المنتجة بمحطة تلفزيون «إن بي سي» وهي تستفسره عن سبب تأخّره على سبيل الاطمئنان.

*

تابع إيثان خطوه عبر المجموعات العمرانية التي تفصله عن مركز روكفيلر، مجتازاً طول الشارع 5، وعند ملتقى الشارعين 49 و50 ولج ممراً محفوفاً بالأزهار بمحاذاة حدائق تشانل غاردن يفضي مباشرة إلى مبنى تاور بلازا. كان يقيس فعل الريح بخفق الأعلام المنصوبة على البنايات ودفق المياه المتصاعدة من النوافير. ومن المقرّر تسجيل حلقة اليوم بشكل استثنائي خارج الاستوديو في الهواء الطلق بالفضاء العام، في الساحة الشهيرة، على بُعد خطوتين من ميدان التزلج، تحت أنظار التمثال البرونزي لبروميثيوس بمشعله المتقد.

لم يجد إيثان من الوقت إلّا ما يكفيه للدخول توّاً لغرفة التجميل، قبل استقباله على موقع التصوير من قبل مادلين دوفين، نجمة فقرات الأخبار الصباحية. بعد ذلك، من المفترض أن يستغرق الحوار معه خمس دقائق، بين مقطع للمغني جيمس بلونت على الهواء مباشرة، وتحقيق مضاد بشأن الاختفاء الغامض لأليسون هاريسون الوريثة المعروفة بأسلوب حياتها المطلقة على عواهنها.

مع ختام الفاصل الإشهاري، وقبل بدء البث بثلاثين ثانية، بدت مادلين دوفين في لباسها الضيق ذي اللون الفاتح وهي تتصفح جذاذاتها للمرة الأخيرة، بوجهها الأشبه بوجه دمية وأسنانها المرصّعة وخصلاتها الشقراء الملتفة في جديلة مشدودة إلى الوراء. انتهت عاملة التجميل من تجفيف طلاء المساحيق على وجهها وانطلق صوت المقدمة الأنيقة معلناً:

- ضيفنا الموالي جعل من الذكاء العاطفي وتقدير الذات مناط اهتمامه ومحور خطابه. يضع نصائحه بين أيدينا خير مُعين على تجاوز الفترات الصعبة وتعاطي الحياة على الوجه الأحسن، ويبسط أمامنا كتاباته لكشف مظاهر لا يرقى إليها الشكّ في شخصياتنا ممّا أهَّلها لتحقيق أعلى أرقام المبيعات في سوق الكتب والمنشورات. سيداتي، سادتي، أدعوكم لأن ترحِّبوا معي بإيثان ويتاكر!

التحق إيثان بمقعده تحت عاصفة من التصفيق، وهو يدرك أنه من الصعوبة بمكان ظهوره بعد جيمس بلونت، لكنه يبقى قادراً على أن يضفي على فقرته سحره المعهود.

يخيم على مسرح «السبت في أميركا» جو دافئ بفناجين القهوة الساخنة أمام كل ضيف، ووعاء كبير من الفطائر والفواكه، ممّا يعطي الانطباع بمائدة فطور شهي في جو حميمي بين الأصدقاء، خاصة وأن بث البرنامج يصادف وقت الذروة بأعلى نسبة مشاهدة. من عادة مادلين دوفين أن تستهلّ الحوار بنبرة دافئة ودود. وإيثان يعرف مسبقاً أنه لا مجال للارتياب منها ومن أسئلتها المفخّخة؛ لذلك يبقى الأهم بالنسبة إليه أن يمتلك ما يكفي من القدرة على الإقناع والحفاظ على الابتسامة. هكذا فكَّر في الاسترخاء للحظة من أجل التخفيف من مستوى الارتباك والاستنفار لديه، عاقداً كلّ العزم على اعتماد خطاب وظيفي مرن.

مادلين: في كتبك، كما في ندواتك، تلحّ في الغالب على ضرورة تبنّي موقف إيجابي في مواجهة الحياة...

إيثان: صحيح، من مصلحتنا جميعاً أن نرمي عنّا أفكارنا السلبية، وأن نرى بالأحرى من الكأس نصفها المليء بدل نصفها الفارغ. من أجل بلوغ هذه الغاية، علينا أن نتخلص

من أحكامنا المسبقة التي ننظر من خلالها إلى ذواتنا، ونعجز بالتالي بسببها من تحقيق التقدم المأمول. على كلّ منا أن يترك جانباً الشك المترسب في فكره! أن يتوقف عن التفكير بمنطق «بإمكاني أن أريد» ويفكر بمنطق «أنا أريد»! أن يتوقف عن التفكير بمنطق «بإمكاني أن أستطيع» ليفكّر بمنطق «أنا أستطيع»!

من كثرة ما ظلّ يعمد لتوظيف جمله المكرورة بالتركيبة نفسها، تسرَّب إلى نفسه الانطباع بأنه تحوّلَ إلى مجرد إنسان آليّ مبتذل.

مادلين: لكن، لا يجب الخلط بين المتعة والسعادة. أليس كذلك؟

إيثان: فعلاً، لا يجب الخلط بين المتعة والسعادة. فالبحث عن المتعة البسيطة لا يقود إلى السعادة الدائمة. إنّ السعادة الحقيقية تُبنى بالالتفات نحو الآخر والالتفاف به، بالاستثمار في العلاقات المستدامة، بتعهّد الصداقة والمحبّة، بالانخراط في الأعمال التطوعية الخيرية... لأن الفردانية مجرّد وهم. ولا مجال لأن نوفر لأنفسنا الحظ في تحقيق طمأنينة الذات إلا بالإسهام في تحقيق طمأنينة الآخر.

من أين كان له كل هذا المقدار من الجمل التي لم يدأب عليها هو نفسه فيما قبل؟ آه، كان من السهل عليه أن يلعب دور الأستاذ ويصقل هذه الدرر من الحكمة، لكن أمر الالتزام بها في حياته الخاصة يبقى مسألة أخرى.

إيثان: إننا نحيا في مجتمع يزداد غنى أكثر فأكثر، دون أن يعني هذا بالضرورة أنه يزداد سعادة أكثر فأكثر.

مادلين: ما الذي يدعوكَ لأن تقول هذا؟

إيثان: علينا، يا مادلين، أن ننظر إلى بلدنا الذي يستهلك ثلاثة أرباع من مجموع الإنتاج العالمي من مضادات الاكتئاب.

مادلين: إذاً، كيف الخروج من هذه الدوّامة في رأيك؟

إيثان: الحل يكمن في إعطاء اكثر من معنى لمعيشتنا اليومي.

مادلين: بأيّ معنى؟

إيثان: ألم يراودك الإحساس، يا مادلين، بأن حياتك تنفلت منك؟ ألم يراودك الإحساس بأنك تعيشين في عالم بقيم منحطّة رخيصة؟ عالم نعيش فيه برغبات من صنيعة الإشهار، عالم يبقى استهلاكنا فيه محكوماً بنظرة الجار، وطريقة تفكيرنا مقرونة بما نسمعه في التلفزيون...

وهو يتحدث، كان يلازمه الشعور أكثر فأكثر بنوع من النفور من مواصلة المشاركة في هذا السيرك الإعلامي المقزّز. لكن هل بمقدوره أن يفعل غير هذا في عالم الشهرة والمنافسة؟

مادلين: هل بالمتناول وصفة محدّدة للظفر بالسعادة؟

إيثان: يجب أن نمتلك الجرأة على تغيير أنفسنا، الجرأة على أن نكون أسياد حياتنا الخاصة، الجرأة على الانغمار في اكتشاف ذواتنا.

مادلين: هل يبقى بمقدور كلّ منّا جميعاً أن يلج عالم السعادة؟

إيثان: أؤمن بالقدرة، ولا أؤمن بالقدر. وفي اعتقادي أرى

أنّ علينا أن نتحمّل كامل مسؤوليتنا فيما يصيبنا، وأرى في الوقت نفسه أيضاً أنّ كلّ فرد يملك في دخيلته أهليّة السعادة التي من مصلحته زرع بذورها ورعايتها.

مراراً، رفّت عيناه وهو يداري نوبة تثاؤب ناجمة عن اضطرابات ليلته الفارطة. كان عليه أن يركّز أكثر. لطالما تهيّب البرامج المبثوثة على المباشر، لأن أدنى هفوة في التعبير يمكن أن تكون خطأ قاتلاً ذلك أنّ المقابلة التلفزيونيّة الناجحة من شأنها الرفع من مستوى نجاحاتك إلى أوجها، في حين أن المقابلة التلفزيونيّة الفاشلة من شأنها تدمير حياتك كلها. وما هي إلّا ثوانٍ معدودة حتى تغلّب على تخوفه. ماذا سيقع لو أطلق لنفسه العنان في تناول أحد المواضيع البئيسة حول الأقليات العرقية، المرأة، الدين، الجنس؟ ماذا سيحصل لو سمح لنفسه بتسريب حديث من قبيل: **كما تعلمين، مادلين، صادفت مساء أمس إحدى بنات الليل، شربنا معاً حتى الثمالة، ممّا تسبب لي في فقدان التحكّم في السياقة وإلحاق أضرار بسيارتي في طريق العودة إلى بيتي...** هكذا بعد يوم أو يومين، سيحتلّ المقطع المرتبة الأولى في التداول على موقع «يوتيوب» و«ديليموشن»، ضارباً عرض الحائط بمصداقيته وسمعته كمعالج، وملوّحاً به في مهاوي التجاهل والفقر. بذل جهداً في التركيز، ألقى نظرة إلى المرشد -قميصه الأزرق يضفي عليه ملمحاً طيباً على الأثير، وسمرته الطبيعية توحي بأنه عائد للتو من عطلته السنوية- ثم أطلق صوته في تصنّع ليعلن باقتناع:

إيثان: علينا أن نتعلم الحياة في الحاضر، فالإفراط في الالتفات إلى الوراء يورثنا عادة اجترار نوبات التحسّر

والامتعاض، تماماً كما الإفراط في تمنّي المستقبل يفضي بنا إلى الإغفاء على أراجيح الأوهام. إنّ الحياة الوحيدة الجديرة حقاً بالعناء هي حياة اللحظة الحاضرة...

مادلين: ما نصيحتك الأخيرة لمشاهديك على قناتنا؟

إيثان: أسرعوا للحياة، أسرعوا للحب، لأنكم لا تعرفون الوقت المتبقي في حساب أعماركم. نحن نظنّ دائماً أن لدينا ما يكفي من الوقت، لكن الحقيقة خلاف ذلك. في يومٍ ما، سندرك بعد فوات الأوان أننا بلغنا نقطة اللارجوع.

مادلين: نقطة اللارجوع؟

إيثان: إنها اللحظة التي يدرك فيها المرء أنه لم يعُد بوسعه الرجوع إلى الوراء، اللحظة التي يدرك فيها أنه فوّت على نفسه فرصة الحياة...

*

أزال إيثان في غرفة التجميل المساحيق العالقة بوجهه. كان مفعماً بشعور الرضا عن أدائه: هذا المفهوم الذي انتهى إليه في ختام المقابلة -نقطة اللارجوع- فكرة مهمة لا يدري كيف لمعت فجأة في ذهنه، وسيعمل دون شك على بلورتها في ندواته المرتقبة وكتبه القادمة.

التحقت مادلين دوفين بإيثان من أجل إتمام مهمتها كانت في حاجة إلى بعض خطط عمله لوضعها على موقع البرنامج على الإنترنت.

- الطريقة المثلى هي تصويرك في عيادتك، إذا لم يكن من مانع لديك.

بدا إيثان متظاهراً بالارتياح على الرغم من إحساسه بنوع من

الانقباض. لم يكن لديه الاستعداد هذا الصباح لتحمّل أيّ متطفل يرافقه أو يتعقّب أثره.

- باستطاعة فرانك مرافقتك في الحال. اقترحت عليه مادلين مشيرة إلى أحد المصورين. ستكون المادة جاهزة خلال ساعة.

تردَّد إيثان هنيهة. ليست مادلين دوفين من النوع الذي يمكن أن يُرفضَ لها طلب، خاصة إذا اقترن بقناة «إن بي سي». هذا ما تقتضيه لعبة الأعمال الحرّة. وكما يقول وارهول: **العمل الجيد هو الفن الأفضل**. وفوق ذلك، لم يكن في نيّته الذهاب إلى مكتبه هذا الصباح، ذلك أن صورة المرأة الشقراء -الغامضة المريبة- لا تزال تؤرق باله، ولا يجد معها إلّا رغبة واحدة: العودة إلى يخته بأسرع ما يمكن للاطمئنان إلى عدم وجودها في فراشه.

- ماذا يا إيثان؟ هل أنت موافق؟

كان على وشك أن يعتذر لها: «لا، يا مادلين، غير ممكن هذا الصباح»، إلّا أنه في اللحظة الأخيرة ارتأى أن يقول لها بنبرة أقرب إلى الاستسلام:

- بطبيعة الحال، يمكنك أن تقولي لفرانك أن يلتحق بي.

3

ويتاكر الغامض

الصدع الذي يتسرّب منه الحزن إلى نفسك،
هو نفسه الذي سمحت له أن يتسلّل عبره
عالم المظاهر والتفاهات.

هيلين غريمو

مانهاتن
السبت 31 أكتوبر
الساعة 10 و35 دقيقة

تبدو ناطحة السحاب، بلمستها الفنيّة المعمارية «آر ديكو»، منتصبة بكل صلابة على ضفاف نهر إيست ريفر في الموقع 120 من شارع وول ستريت، محتلة بذلك فضاء بأكمله لتشكّل من خلاله أحد أكثر شرايين العالم شهرة. وبمحيطها تبدو أطرافها أقلّ امتداداً بالقياس إلى جارتها كونتينانتال سنتر بشكلها المطبوع بمسحة ما بعد الحداثة، المتميّز بأضلاعه الثمانية المكسوّة بالزجاج الصلب؛ وإن كان الحجم ليس هو ما يشدّ الأنظار إليها، حيث تنطوي فضلاً عن ذلك على طابع خاص بسحرها الجذاب وحضورها اللافت. وإلى جانب هذه المواصفات، فإنّ ناطحة السحاب في موقعها 120 من وول ستريت يبقى من مزاياها القدرة على التخلص من حدّة المنافسة

بكلّ لباقة، بفضل واجهتها الكلسية ناصعة البياض، وزواياها الناضحة بالحياة، وقسماتها المرسومة بالدقّة المتناهية.

عَبَر إيثان بهو المدخل بسرعة رمح ساهم، والمصور بالكاد خلفه مقتفياً أثره وسط هذه المتاهة من الرخام الوردي والصوان الأحمر الزاهي والنيكل اللامع البراق. قبل أن يدلف إلى قلب المصعد، شغل السماعة العالقة بأذنه ليهاتف مساعدته ليزي. لم تستغرق المكالمة أكثر من ثانيتين، كحيّز زماني بدا له كافياً لتمكينها من التقاط الرسالة:

- سأصل خلال دقيقة.

*

عالياً، في الطابق الثلاثين، وضعت ليزي السماعة وهي تتساءل عن الحال الذي يمكن أن يكون عليه مزاج مشغِّلها هذا الصباح. لقد لاحظت عليه في الآونة الأخيرة كثرة الانفعال والميل للخمول، مع آثار الإجهاد الذي أخذ منه مأخذه. إنها تعرفه جيداً هي التي واكبت مساره المهني عبر كلّ مراحل تسلقه، من عيادته الصغيرة في هارلم حتى هذه العمارة الشاهقة الفخمة في وول ستريت، منذ أن التقيا قبل تسعة أعوام حين كانت عاطلة، بدينة، دميمة، بلا كفاءة ولا أدنى إحساس بتقدير ذاتها.

وللإفادة من برنامج المعونة بالحصول على قسيمة التغذية، كانت مضطرّة بمقتضى قانون مكتب المساعدة الاجتماعية لقضاء بضع ساعات في القيام بأشغال التنظيف في مقاولات الحي التي لها طلبات. بهذه الصفة كان أن حلّت ليزي ذات يوم بمكتب إيثان الذي كان حينها في حاجة إلى سكرتيرة بدل خادمة نظافة، وبحكم تَيَسّر تأقلمها قرر تشغيلها لديه بصفة رسميّة. ومع انفتاح عالم الشهرة

تدريجياً في وجهه كمعالج نفساني، سرعان ما عرض عيادته للبيع ليفتح عيادة بديلة في الأوساط المترفة بقلب أحد الأحياء الراقية.
هكذا لم تنخدع ليزي بوفرة حظوظها في مواصلة خدمته. ولأنها كانت تدرك طبيعة طموحه التوّاق لم يخامرها الشك في إمكانية إقدامه على اختيار مساعِدَة بمؤهلات معيّنة في مستوى التعامل مع زبنائه الأثرياء، كأن تكون جميلة، شقراء، بعينين زرقاوين وقدٍّ ممشوق وقامة مديدة، ذات أسلوب محبّب ومزاج رائق متوازن؛ وكلها مواصفات ما كانت لتجتمع لها من قبل ولا من بعد. لكن خلاف كلّ تكهّناتها، حصلت المفاجأة، واقترح عليها إيثان دون سابق توقع أن تواصل المغامرة بصحبته.

رغم تأثرها بطابع الثقة التي منحها، بدت مُكرهة على الممانعة:

- آسفة سيدي، لأني لا أعرف ماذا سيتوجب عليّ فعله.

- وماذا أيضاً؟

- لا أملك المفاتيح التي من شأنها أن تؤهّلني لاستقبال زبائنك الجدد. أعتقد أني غير مؤهلة بالمرة لهذه المهمة.

هزّ رأسه، وبحركة من يده اقتنص كلّ الحجج المقنعة لحسم المناقشة.

ما أحبّت فيه على الخصوص معرفته بأنجع الأساليب في تحفيز الناس؛ وهي المعرفة التي جسّدت في اعتقادها موهبته العظيمة، وشكّلت بالتالي السبب الكامن وراء نجاحاته، وهو أمر لم يكن هو نفسه على وعي به، كما لو كان يتجاوزه؛ إذ كانت تكفي منه مجرد كلمة، مجرد نظرة، كي يجعل مرضاه في لحظة خاطفة يستعيدون الثقة في ذواتهم والإحساس بالطمأنينة في دواخلهم.

ومن أجل أن تكون في «المستوى» المؤاتي لمهمتها الجديدة،

قامت بتخسيس وزنها عشرين كيلوغراماً دفعة واحدة، وإجراء عملية تجميل في وجهها، وتعديل تسريحة شعرها، واستبدال سراويل الجينز والقمصان القصيرة بأخرى حرصت على انتقائها من متاجر المصمِّمة المعروفة دونا كاران.

ومن يومها، ظلت تتردَّد على صالون الحلاقة نفسه الذي تتردد عليه جينيفر كونيلي، وسحبت بطاقة انخراط للإفادة بصفة منتظمة من حصص التجميل في صالون جيسيكا باركر، حيث تلقت منذ أسابيع قليلة أولى حُقَنِ «البوتوكس» بعد أن كانت ذات مرّة قد أقسمت على عدم دخوله بالمرة.

واليوم، حين تنظر إلى نفسها في المرآة، يراودها الشعور بأنها تحيا في جسد امرأة أخرى غيرها، جسد ببشرة تبدو صقيلة، بدأت تحسّه خفيفاً غريباً عنها حتى أنّ توصيفه بات من المتعذّر عليها

هكذا صارت حياتها في ظاهرها على قدر ملموس من اليسر، وصارت المبالغ التي تجنيها من إيثان كراتب وإتاوات مستحقّة كافية لتسديد تكاليف تعليم ابنيها في أرقى المدارس الخصوصيّة، وضمان إيواء والدتها في إحدى دور العجزة بشروط إقامة مريحة. ومع ذلك، لا تزال بين الحين والآخر تستحضر بنوع من الحنين تلك الأعوام الجميلة التي قضتها في هارلم، حين كانت تستقبل للعلاج الزبائن البسطاء من الفئات الشعبية ذات الأغلبية السوداء. صحيح أن المظاهر السائدة هناك هي مظاهر العنف والإحباط والتهميش، لكن في ظلها كانت تشيع أجواء الدفء والحياة. أما اليوم، فالمال متيسّر لديها بالوفرة المطلوبة، وتجد معه كل شيء مفرطاً في الرحابة، والنظافة والأناقة والنعومة. وحتى مرضى تلك الفترة أخلوا المكان لعيّنة منتقاة من الزبائن: مدراء من عالم الأعمال، رياضيون

محترفون، رجال سياسة، أشباه مشاهير في وسائل الإعلام. لكن في كل هذا، تبقى «الحياة الحقيقية» مفتقدة هنا

ما رأي إيثان في كل هذا؟ إنها تجهل الأمور في عمقها. لقد كانت تراه كلّ يوم، ومع ذلك لم تستطِع اختراق هالة الغموض المحيطة به. تُرى ماذا تعرف عنه في الواقع؟ لا شيء على قدر من الأهميّة إطلاقاً، وحتى صلتهما ببعض يكتنفها الغموض، إذ لا تربط بينهما علاقة صداقة بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنها في الوقت نفسه بمعنى من المعاني علاقة تتيح لكل منهما ضمنياً إمكانية الاعتماد على الآخر. وبناء عليها، تجد ليزي نفسها مَدينة له بكلّ شيء، وعلى تمام الاستعداد لفعل الكثير من أجله، حتى إنها أعدَّت من تلقاء نفسها قائمة من التضحيات بهذا الشأن: الكذب، الإدلاء بشهادة الزور لصالحه أمام هيئة المحكمة، تحمّل تبعات أخطائه المهنية بدلاً عنه، مساعدته حتى في التخلص من قتيل في قلب الليل إذا لزم الأمر.

لكنها في الفترة الأخيرة، بدأت تلاحظ لديه بعضاً من فتور الهمّة وعدم الاكتراث الأقرب إلى التذمّر وتدمير الذات. وعدّة مرّات، في الصباحات الباكرة، تفاجأت به نائماً على كنبة مكتبه، وعلى المائدة الزجاجية أمامه بقايا من آثار الكحول والكوكايين. وهي حالات استنفرتها وخلخلت في ذهنها صورة الرزانة والاعتدال التي عهدتها فيه من قبل. تُرى ماذا وقع له؟ ومنذ شاهدته في التلفزيون هذا الصباح، وهاتف المكتب لم يتوقف لحظة عن الرنين، حتى إنها سجلت عدداً هائلاً من مواعيد الاستشارة فاقَ الحدود المعقولة، وتقاطرت على موقع العيادة على شبكة الإنترنت حتى لا مَزيد الكثير من طلبات برمجة الحلقات الدراسية، ما دام قد حقّق

بكتابه الأخير على موقع «أمازون» رقماً قياسياً في المبيعات متجاوزاً بذلك معدّل مبيعات كلٍّ من ستيفن كينغ وجون غريشام.

وحتى أسلوب حديثه في التلفزيون بدا لها أسلوباً مصطنعاً، إلّا في ختام المقابلة حيث استطاع أن يكون أكثر إقناعاً؛ وما أثارها في كلامه بالخصوص تلك الفكرة اللافتة التي تفتَّقت على لسانه بصيغة -**نقطة اللارجوع**-، وهي على يقين بأنها ستكون عنوان كتابه اللاحق أو ندوته القادمة.

من حرصها عليه، بدأت تستشفّ وراء مهارته وجاذبيته أعراض إرهاقه وتعبه، لذلك وضعته تحت المراقبة الدائمة لتتبّع مظهره وخطابه، في محاولة منها لاستباق أية عثرة محتملة. وتبعاً لذلك أحسَّت به في الأيام الأخيرة قريباً من القطيعة، على شفير الهاوية. تُرى في أيّ اتجاه يسير هذا الرجل؟ وما مفتاح شخصيته؟ لديها إحساسٌ بأنه على وشك نهاية مرحلة حاسمة، وبودّها لو تمدّ له يَدَ العون لتمكينه من تجاوز حالة الضغط والقلق المتخفية وراء نشاطه المفرط وابتسامته المصطنعة وواجهته اللامعة. ربما عليها مفاتحته في الأمر بالصراحة اللازمة، غير أنها في الوقت الحاضر لا تلتمس في نفسها الشجاعة الكافية؛ وفوق ذلك تجد الظرف غير مناسب، على الأقل هذا الصباح حيث سيكون عليه تدبير مشكلة أخرى واردة.

قبل قليل، بوصول ليزي إلى المكتب، وجدت فتاة بانتظارها على باب العيادة. تساءلت: كيف تأتّى لها أن تغافل حرّاس الأمن عند مدخل العمارة؟ غريب أمرها. لكنها على كل حال هي الآن هنا، جالسة قبالة الجدار، وبيدها المقال الذي خصصته **نيويورك تايمز** لإيثان في عددها الأخير.

- أريد مقابلة إيثان ويتاكر، قالت بنبرة حادة.

لتلطيف الموقف على مضض، أعلمتها ليزي بصوت هادئ أنّ عليها أخذ موعد مسبق كما تجري به العادة.

- وما دمت فتاة قاصرة، على والديك أن يقوما بطلب الموعد بدلاً عنك.

- أريد أن أراه اليوم. ردّت المراهقة بكل إلحاح.

- هذا مستحيل.

- إذاً سأنتظره.

شغّلت ليزي هاتفها المحمول لطلب تدخل حرّاس الأمن، لكنها سرعان ما عدلت عن الفكرة. رأت ألّا شيء أسهل من حلّ المشاكل بالقوّة، ومن دون أدنى حسّ إنساني على الخصوص، ولم تجد بُدّاً من الإذعان للفتاة المصرّة على البقاء بقاعة الانتظار بما يشبه الاعتصام، وهي تدرك في قرارة نفسها أنّ إيثان لن يتقبّل الأمر على الإطلاق.

*

- كيف كان ظهوري؟ توجّه إيثان لليزي متسائلاً بينما كان المصوِّرُ منشغلاً بتثبيت آلته وضبطها.

- في أحسن حال، كما العادة، وإن بدا عليك بعض التعب. أليس كذلك؟ ردّت عليه وهي تقدم إليه فنجان قهوة.

- هل بَدَوتُ في حالة أسوأ ممّا أنا عليه الآن؟

- لا، ليس لهذه الدرجة، لا داعي للتهويل.

- على كلّ حال، كنت مصيباً في القول بفكرة «اللارجوع»، إنها فكرة مستحسنة للغاية.

- إذاً خيراً فعلت. هذا ما بدا لي. وماذا عن مقال الجريدة؟

أرادت لردها أن يكون إطراءً له على سبيل المجاملة بهدف طمأنته وإرضائه.

- هل لدينا طلبات؟

- لقد حوّلتُ إليك على بريدك الإلكتروني آخر الأرقام. حتماً ستسرّك المفاجأة.

بكل رضا، جلس إيثان إلى مكتبه، وشغل حاسوبه الفضي «ماك بوك» لتحيين معطيات «البلاك بيري». اقترحت ليزي فنجان قهوة على المصوِّر ستيف، الذي كان حينها يتأمل منظر المدينة من خلال النافذة الفسيحة، وهو مأخوذ بمشهد يقطع الأنفاس.

ثم لم تلبث أن مالت على إيثان وهمست له:

- هناك أمر ما لا بد من تسويته في الحال.

وأوعزت إليه بإشارة أن يتبعها إلى الممر.

- ماذا حدث؟

- هناك مَن يريد مقابلتك بقاعة الانتظار.

- لقد سبق أن أعلمتك بعدم برمجة أي موعد عمل لهذا اليوم.

- أعرف ذلك جيداً. لكن.

- مَن؟

- فتاة تصرّ بكل قوّة على مقابلتك.

- فسري لها بكل بساطة أن هذا من الاستحالة بمكان. أنت من عليك القيام بصرفها، وبالتالي هذا يدخل ضمن مهام عملك.

وهو عائد إلى مكتبه، عرّج على مكتب ليزي وشرع دون تحرّج في تفتيش قمطرها.

- أليس لديك شيء ما لتخفيف الصداع؟ رأسي يؤلمني منذ استيقاظي هذا الصباح.

أعادت ليزي إغلاق قمطرها بحركة سلطويّة متعمَّدة، تعبيراً منها عن استيائها من تجاوزات مشغِّلها. سحبت من حقيبة يدها علبة أقراص وأخذت منها اثنتين لتمدّهما إليه دون أن تنبس ببنت شفة.

نظر باستخفاف إلى حبّتي «أدفيل».

- أنا بحاجة إلى مهدّئ أقوى من هذا بكثير.

التفتت ليزي للرف، تناولت منه كتاباً ورمت به على المكتب أمامه، لتطالعه على الغلاف صورته الباسمة الهادئة المطمئنة.

إيثان ويتاكر

الحياة من دون أدوية

بِيعَ من هذا الكتاب 400,000 نسخة

- ربما أنتَ الأَولى بتطبيق النصائح الوجيهة التي تسديها للآخرين.

لم يجد إيثان بُدّاً من مداراة ردّها بلا اعتراض، مضطراً لابتلاعه بطعم توبيخ مستحقّ على مضض.

اكتسحه إحباط عميق، واستبدّ به الإحساس بالعياء والخواء، ولم يعُد يشعر إلّا بالتقزز والخوف. هو الخوف نفسه الذي يحاول التخلّص منه عبثاً منذ الصباح، الخوف نفسه الذي يلازمه منذ أن استفاق من نومه على المرأة الغريبة في سريره، واكتشف الخدوش الكثيرة على هيكل سيارته. ومن جديد، عاد للتنقيب في ذاكرته، مستنفراً كلّ وعيه لاسترجاع بعض النتف من صور البارحة. هكذا تيسّر له أن يستعيد بجلاء مَشهَدَ دخوله حانة «سوسياليستا» في حدود الساعة التاسعة مساء، وأجواءَها الصاخبة بالموسيقى الكوبية وكؤوس «التيكيلا». وماذا بعد؟ تدريجياً، قفزت إلى السطح بعناء بضع

ومضات في شكل صورٍ متلاطمة: دراجات نارية تهدر بزعيق محركاتها المرعبة، فتيات يتراقصن على الكونتوار، نادلات بصُدراتٍ جلدية يمطرن الروّاد في مكبّر الصوت بوابل من الشتائم. إنه يعرف هذا المكان جيداً! هوكز آند هيفيرز، المعروف بحانة الدراجين في حي ميتباكينغ: مكان غامضٌ كان مصدر إلهام لفيلم كويوتي أوغلي. وماذا أيضاً؟ رأى. فيما رأى. لم يعُد يرى أيّ شيء على الإطلاق.

ما كان عليه أبداً أن يسمح بحدوث المهزلة في حضرة هذا المصور. كان عليه أن يعود رأساً إلى يخته في محاولة لاستجلاء ذلك اللغز.

فجأة خطرت بباله فكرة. جلس بمكتب ليزي وتناول الهاتف. مهما يكن، هناك هاتف في المركب، ولا يتطلب منه الأمر سوى الاتصال، لعلّ الفتاة الغامضة الغريبة تردّ على مكالمته. وبالفعل بعد ثلاث رنات، كان هناك من تلقفَ السماعة على الطرف الآخر.

-

- آلو؟

-

من الظاهر أن أحداً ما، على الطرف الآخر من الخط، يغرق في صمته، وإن كانت الوتيرة المنتظمة لأنفاسه تفضح حضوره.

- آلو؟ كرر إيثان. مَن أنت؟

لا جواب.

استغرق حوار الصم هذا قرابة عشرين ثانية إلى أن بادر الطرف الآخر على اليخت بإغلاق الخط.

هزّت ليزي رأسها تعبيراً عن ذهولها من التصرف غير المألوف لرئيسها.

- سأفسّر لكِ الأمر لاحقاً. أشار إليها بما يشبه الوعد وترك المقعد.

كان من الظاهر عليه تزايد قلقه من مجريات هذه القصة.

وليزي كان يسيطر عليها في تلك اللحظة انشغال آخر.

- أعتقد أنّ الفتاة لا تزال بانتظار مقابلتك.

4

جيسي

هذا هو الموضوع الذي يشغلني أكثر: الحب،
فقدان الحب، موت الحب، والألم الناجم عن
فقدان الأشياء التي نحن في أمَسِّ الحاجة إليها.
جون كاسافيتس

فتح إيثان باب قاعة الانتظار بمزاج عكر.

القاعة مرتبة بعناية، سابحة في ذلك الشعاع الأزرق الحاد الشائع في مانهاتن. وعلى الكنبة الجلدية تجلس مراهقة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها منطوية على نفسها، بمعطفها الملقى على ساقيها المثنيتين وبصرها الساهم في الفراغ عبر النافذة. شعت عيناها ببريق غامض وهي تتطلع لإيثان يدخل القاعة، وخلال ثانيتين خيّم صمتٌ مطبق على المعالج النفساني والفتاة الصغيرة. كانت بعينين متهجّعتين، وخصلاتٍ شقراءَ مسترسلةٍ تنسدل على جانب من وجهها الشاحب، وقَدّ رشيق نحيل يوحي بمظهر هشاشتها، رغم سترة الجينز التي ترتديها فوق قميص فضفاض أشبه بقمصان مضيفات الطيران.

- أين والداك؟ سألها إيثان من دون تحفظ.

- ماتا منذ فترة. أجابت على الفور بلا تردد.

هز إيثان رأسه:

- لا أنت تكذبين.

وأضاف مؤكداً لها بنبرة هادئة:

- يجب أن تعلمي أن لديّ معرفة خاصة بكشف الناس الذين يكذبون، وأنت الآن تكذبين.

- أتعرف كشف الناس حين يكذبون؟

- أجل. إنها مهنتي.

- كنت أعتقد أن مهنتك هي مساعدة الناس.

في محاولة منه لتلطيف الأجواء، سألها:

- ما اسمك؟

- جيسي.

- ما سنك؟

- سبعة عشر عاماً.

- لا ما سنك الحقيقي؟

- أربعة عشر عاماً.

- اسمعيني، يا جيسي، أنت لا تزالين طفلة، ولهذا ليس بإمكاني استقبالك في إطار الاستشارة في غياب والديك أو ولي أمرك، هل تفهمين؟

- لعلمك، لديّ المبلغ الكافي لأداء أجر أتعابك.

- المسألة ليست مسألة مال.

- بل على العكس بكلّ تأكيد. وأنت تكلمني بهذه النبرة اعتقاداً منك أني فقيرة.

ندَّت عن إيثان زفرة عميقة، وبحركة لا إراديّة دسّ يده في جيب سترته وسحب علبة سجائره.

- كنت أظن أن التدخين ممنوع. قالت له وهي تثبت بين شفتيها سيجارة من التبغ الرخيص.

- هل ترين أحداً يدخن هنا؟ سألها ليثير انتباهها إلى كون سيجارته غير مشتعلة.

- لو كنت من أسرة ثريّة، أو كنت بصحبة والدَيّ لعامَلتَني معاملة مختلفة. صحيح؟

- فعلاً ردّ عليها إيثان مغالباً عياءه.

- أهكذا هي الحياة؟

- أجل، هكذا هي الحياة، قد تكون أحياناً جائرة دنيئة. هل وافقك هذا الرّدّ؟

خاطبته بلهجة معاتبة مشوبة بنوع من الغيظ:

- تبدو على شاشة التلفزيون أكثر لطفاً.

ألقى نظرة على ساعة يده، وهو يفكر في ذاك الرّجل الذي لا يزال بانتظاره في مكتبه، وفي تلك المرأة التي تركها على متن مركبه، وفي المكالمة التي كانت وراء خلخلة توازنه، وفي نظرة الاستخفاف التي لمحها قبل قليل بعيني سكرتيرته، وفي الإحباط الذي يستشعره الآن في حضرة هذه الفتاة الصغيرة المصرّة على الإفادة من استشارته.

- ما الذي جاء بك إلى مكتبي؟

- كنتُ أودّ. أن تساعدني.

- اسمعي، ستمدّك مساعِدَتي بعنوان زميل لي، متخصّص في علم نفس الأطفال. قولي له إنك من طرفي.

- ولكن أنتَ مَن قصدت.

- ليس بمقدوري مساعدتك.

- ومع ذلك، فإن الجرائد تقول عنك.

قاطَعَها في الحين:

- لا يجب أن نصدِّق ما تقوله الجرائد.

أزاحت عن وجهها خصلة متدلية. رمقها إيثان بنظرة خاطفة، نظرة ضائعة طالما انفعل بها بكلّ تأكيد من قبل، حين كان يملك قلباً بين جوانحه. فكّر في شيء ما، وخاطبها محاولاً التستر عن مشاعر التعاطف معها:

- طيب، ستجمعين الآن لوازمك، وتعودين إلى البيت من دون إثارة مشاكل. موافقة؟

- هل تعرف أين يقع بيت العائلة؟

- لا، ولا أريد أن أعرف.

باستسلام، طأطأت رأسها، أخذت حقيبة ظهرها وسحبت منها منديلاً ورقياً تبين على طرفه العلامة الخاصّة بمقهى «فرونت ستريت». ثم دلفت باتجاه الباب متعمّدة مماحكة إيثان في طريقها.

بانفعال، أمسك بها من كتفيها وخضخضها مترفقاً:

- تبّاً لك. ماذا دهاك؟ ما مشكلتك؟

تبادلا نظرة حادة، وكأنّ كلاً منهما يبحث في عيني غريمه عن طبيعة روحه الحقة. تَبَدّت لجيسي بعيني إيثان أمارات العياء الفادح الذي يهدّه، وتكشف له بعينيها مدى الرعب الكاسح الذي يستبد بها.

عاودَ مُساءلتها مرة أخرى:

- تُرى ما مشكلتك؟

تطلعت إليه:

- أودّ. أودّ لو أتخلص من خوفي للأبد.

- مِمَّ تخافين؟

- من كل شيء.

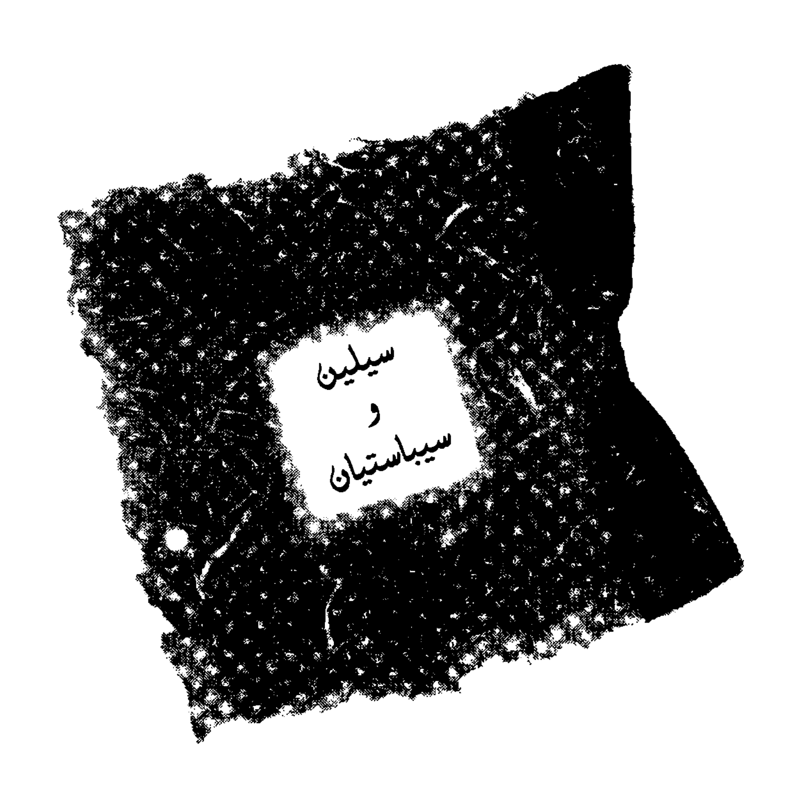
لأول مرّة منذ وقت طويل، شعر إيثان أنه مسكون بإحساس حقيقي أكيد.

- إذاً، انتظريني هنا، عليّ أن أنهي عملاً، وأعود إليك بعد عشر دقائق.

*

بدخوله إلى مكتبه، وجد المصوّر لا يزال بانتظاره. اعتذر له عن التأخر، عازماً على إتمام المهمة في أسرع وقت ممكن بالاتباع الحرفي لتوجيهاته. وبإدراج ليزي في المقابلة، تطلبت منه المهمة كاملة نصف ساعة. وبينما كان المصور منشغلاً بجمع لوازمه، ارتأى إلقاء نظرة خاطفة على بريده اليومي الموضوع على مكتبه. أثارت انتباهه بين مجموع المراسلات بطاقة أنيقة مطوية: بطاقة دعوة لعرس زفاف في ظرف مُزَيّن الأضلاع، موشى بشريط لامع معقود عند طرفيه.

في الواقع، ما أن فتح عينيه هذا الصباح حتى تهيّب هذا اليوم الذي بدا له من مَطْلَعِه يوماً عصيباً لِا محالة. وتبدو له الآن هذه البطاقة من الاسم المزخرف لصاحبتها منطوية دون شك على رسالة مهولة.


سیلین
و
سیباستیان

5

كل شيء ممكن الحدوث

كل ما أحببتُ، سواء ممّا صُنتُه أو ضيّعته،
سأظلّ إلى الأبد أحبّه.

أندريه بروتون، **الحب المجنون**



سيلين، سيباستيان

من دواعي سعادتهما، بمناسبة زواجهما،
دعوتكم لحضور مراسيم حفل زفافهما المزمع إقامته
يوم السبت 31 أكتوبر
عند الساعة الثانية بعد الزوال
بحدائق بوت هاوس
إيست 72 وبارك درايف نورث
سنترال بارك - نيويورك

ولتأكيد حضوركم المرجو تعبئة بطاقة الحجز
وإشعارنا بها في ظرفها قبل 15 أكتوبر
وتقبلوا خالص تشكراتنا على تلبية الدعوة

ظلَّ إيثان للحظة ممسكاً ببطاقة الدعوة، وهو مسمّر في مكانه بلا حراك، بقلب ممزّق من هول المفاجأة.

سيلين.

سيلين تعقد قرانها وتصرّ على إخطاري بزواجها. بادر بتفحّص الظرف، لاحظ أنه لا يحمل أي طابع بريدي ولا أدنى إشارة لعنوان المرسِل أو هويته. لعلّ أحدهم تعمّد دون شك إيداع الدعوة في بريده هذا الصباح. لكن بأيّ هدف؟ هل بقصد التذكير والإخبار أم بقصد الإغاظة والاحتقار؟

تهيّأ له أنه يسمع صوتها، صوت عشيقته القديمة وهي تهمس له: والآن، هل رأيت أيها التافه إلى أيّ حد أنني قادرة على مواصلة الحياة رغم غيابك، وكم أنا سعيدة من دونك، ومفعمة بحب غيرك.

أغمض عينيه، ومن جديد ارتسم أمامه وجهها وهي في تمام ألقها، بنعومة قسماتها، وبريق نظرتها ولمعان خصلاتها الحرّة إذ تنفلت من مشبك جديلتها برقة أخاذة. تَنَشَّق رائحة جسدها، وتردَّدت بمسمعه ضحكتها تتخللها أصداء من صوتها الهامس باسمه.

هذا ما يدمّره.

حاول أن يقاوم، ويطرح كلّ ذكرياته جانباً كما تعوّد أن يفعل منذ سنين خلت. **كلّ هذا صار بالنسبة إليك مجرّد تفاصيل حكاية متقادمة. من الأفضل على كلّ حال أن تكون سيلين سعيدة في آخر المطاف. ثم لا تنسَ أنك أنت الذي ارتأيت أن تتركها مراعاة لمصلحتها**. لكنه وجد آليات المقاومة لديه اليوم عديمة الفعالية. وبدل أن يلتمس سبيلاً لاستعادة هدوئه، بدأ يتغلب عليه الإحساس بتحرّق في جفنيه.

ترى أين من المحتمل أن يكون هو نفسه اليوم لو أنه لم يتخلَّ عن سيلين؟

ترى أي حال كان من المحتمل أن يكون عليه اليوم؟

للتخلص من النظرة المتطفلة للمصوّر، أشاح بوجهه عنه وتسمّر أمام النافذة مُكرَهاً على مواجهة المدينة وسمائها العمياء. وبعينين مغرورقتين بالدموع، وضع يديه على الحاجز الزجاجي اللامع، تبدّى له كمرآة تعكس ملامح وجهه. وتساءل حينها كم من الوقت حقاً لم يرَ وجهه على صفحة مرآة؟

طالعه رجلٌ واهنٌ وحيد، طافحٌ بالتناقضات. رجلٌ على شفير الهاوية، حطّمه الخزي وهدّه الحزن. رجلٌ منغمرٌ في حرب مدمّرة بلا رحمة أو هوادة. حرب ضدّ نفسه، ضدّ عدوّه الحميم: المتمثِّل في شخص هذا المعالج النفساني اللطيف -بديله المثالي المستعار- الذي صاغه من كلّ القطع التي أتيحت له، بديله الذي اكتمل على يديه ليحمل إليه الشهرة والثروة، ويتحكّم بالتالي في مسار حياته ليقوده إلى الإحباط وينتهي به إلى الدمار.

رفَّت أجفانه، وأحسّ بدمعه ينساب حاراً على خديه. لم يسبق أن انتابته هذه الحالة الغريبة من قبل، لأنّ الخمرة صارت في أيامه الأخيرة وحدها القادرة على تحريك دواخله واستدرار عبراته. ولعله لم يغمره الشعور أبداً بهذا العمق من الهشاشة والتأثر. أو كما لو أن سدّاً انفرج بغتة بداخله وأطلق العنان لكلّ هذا الدفق من مشاعره الجيّاشة. ممّا لا شك فيه أننا لا نستطيع أن نظلّ قادرين على تمالك أنفسنا ورفض حساسيتنا على الدوام.

كان لا يزال يشعر بنوع من الانزعاج من حضور المصوّر خلفه،

ممّا كان يفسد عليه مجاراة حالة تأثّره بعفوية. لكن لماذا لا يغادر هذا الرجل القاعة؟

إليك عني. اخرج في الحال من فضلك.

كان إيثان على أهبة الالتفات إليه بشتيمة كفيلة بإجلائه فوراً من القاعة، لكن ما يخشاه أكثر أن يفضحه صوته ويخرج في شكل حشرجات متقطعة.

كل ما كان يريده في اللحظة أن يبقى وحده على انفراد بذاته، يسدل الستائر ويجلس للسُّكْر حدّ الاحتضار. لعله بذلك يمنح لذاته فرصة حقيقية لسبر أغواره، ويمارس غسيل المخّ على نفسه بشراب الفودكا؛ إنه جواز سفره المؤقت لعالمه المخملي النظيف، عالم أكثر خفّة وتحرّراً، حيث لا تزال سيلين مسكونة بحبّه، عالم أشبه بجنة اصطناعية لا ينام المشردون في صناديق التعليب على قارعتها، ولا تركن السيارات المفخّخة القابلة للانفجار في شوارعها، ولا تنهار قمة الثلج بأعلى سرعة ممكنة في منحدراتها، وحيث لن يكون السرطان إلا علامة من علامات الأبراج في قواميسها.

هو الآن يقف بمحاذاة الشرفة، ووجهه يكاد يلتصق بجدارها الزجاجي، آخر حاجز يفصله عن الفراغ. ألقى نحو الأسفل نظرة أشعَرَته بالدوار، ومسح ببصره شريط نهر إيست ريفر بامتداده الأزرق وساوث ستريت سيبورت، الميناء البحري لمانهاتن. استطاع أن يتبيّن بجلاء المراكب الشراعية الكبيرة المتراصة على طول الرصيف، ومعها في خلفية المشهد الأسلاك الفولاذية والدعامات الإسمنتية على طول جسر بروكلين.

في الأسفل، على بعد مائة وعشرين متراً، لا تزال الحياة متواصلة على الرصيف في المطاعم والمنتزهات والمحلات التجارية

المكتظة بالرواد والزوار، لا تزال الحياة متواصلة، وإن كان إيثان يقف على الجانب الآخر منها. هو في هذه اللحظة تستبدّ به فكرة الإلقاء بنفسه في الفراغ حسماً للأمر، ليضع بشكل أو بآخر حدّاً لمعاناته ويتخلص من ألمه إلى الأبد. أغمض عينيه فتبدّى له سلاح ناري عليه حشوه بالرصاصات الملقاة بجانبه، أحسّ فوهة المسدس الصلبة الباردة على صدغه، تصوّر أصبعه مباشرة على الزناد، وهو يضغط تدريجياً إلى أن.

هز المكان دويّ مرعب، مثل طلقة نار عن قرب، سرعان ما أعقبتها صرخة مزقت الصمت المطبق.

*

انتشلته الطلقة بحدّة دويها فجأة من فيض مشاعره لحاله الباعث على الرثاء.

- ليزي؟

بعدها ستتوالى تفاصيل المشهد في حالة من الفوضى والغضب، وسط غشاوة مشُوبة بمدّ من الصراخ والدماء.

هرع إيثان خارج مكتبه. لا أحد في الممر. من داخل قاعة الانتظار تعالى الصياح مرّة أخرى. دلف إليها مسرعاً ليجد ليزي جاثية على رأس جيسي، ولطخات الدماء منتشرة في كلّ مكان من القاعة. لم يكن بمقدوره أوّلَ الأمر استيعابُ ما يجري: كان جسد ليزي يغطي جسد الفتاة الصغيرة، ولم يستطع أن يتبيّنَ مَن منهما المصابة قبل أن يقف على هول الفاجعة. من قوّة الطلقة تطايرت من جمجمة جيسي شظية، وعلى وجهها انطمست تقاسيمها الشابة بفعل فلق دموي غائر تناثرت منه أجزاء من دماغها.

مستحيل.

كإنسان آليّ، جثا هو الآخر على ركبتيه بالقرب من جثة الفتاة المتمدّدة على الأرض، وبيدها اليمنى سلاح ناري.

لقد أقدَمَت جيسي على الانتحار.

مستحيل. صبية في ربيعها الرابع عشر تفجّر رأسها برصاصة قاتلة. إلّا هذا، حتى في هذا الزمن الآهل بالمجانين.

التفت إيثان إلى ليزي، وهي تتناول هاتفها للاتصال بالإسعاف على الرغم من لا جدوى من أيّ تدخل من هذا القبيل، إذ ليس من الضروري أن تكون طبيباً لتأكيد وفاة الفتاة المنتحرة.

باستسلام، انحنى إيثان على جثمانها الممدد ووضع يده على خدها.

بعينيها المشدوهتين الكابيتين لا يزال يرتسم إحساسها الفظيع بالرعب الذي أسرّت له به قبل قليل، لترمي به في مهاوي القلق والإحباط.

لقد رجَوتِ مساعدتي قدر ما استطعتِ، ورفضتُ لك الرجاء. وكشفت لي عن عنائك، غير أني لم أعبأ بما تكابدين من عناء...

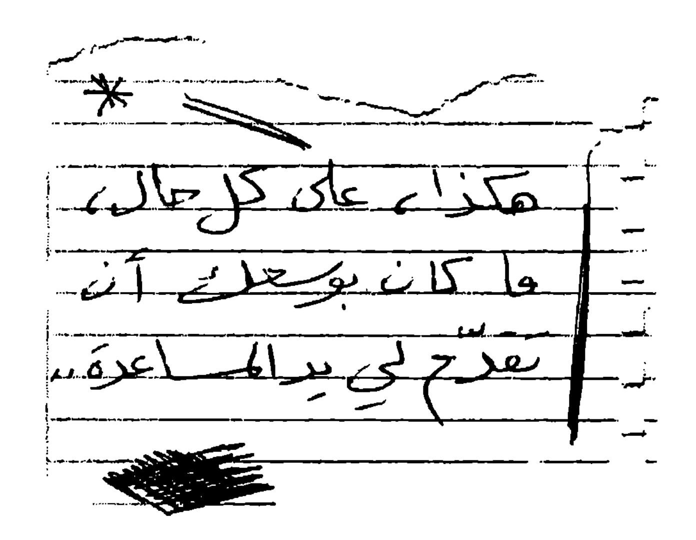
فجأة أثار انتباهه انعكاسٌ متحرك على الزجاج. التفت في الحال، فإذا بالمصوّر خلفه على بعد أمتار يجدّ في إعداد لوازمه لتوثيق اللحظة.

- مَن سمح لهذا القذر أن يباشر التصوير هنا!

مستشاطاً غضباً وحنقاً، قفز إيثان من مكانه شاهراً قبضته في وجه المصور الذي لم يتوانَ في تفادي اللكمة والإفلات بجلده باتجاه الباب، وهو مزهوّ بسَبقِه الصحفي المثير. طارده إيثان حتى سُلّم الإغاثة الخلفي، ولم ينجح في اللحاق به رغم ثقل الكاميرا على كتفه. توقف ليلتقط أنفاسه المتقطعة وعاد أدراجه ليجثو بالقرب

من جثة جيسي. لا يدري أية قوة غامضة دفعته لأن يأخذ يدها بين يديه، كما لو أنه يأبى أن يتركها وحيدة في هذا العبور الافتراضي المرير نحو العالم الآخر الذي طالما كان لديه محطّ شك وارتياب.

حين لامس كفّها الرطبة الناعمة، اكتشف بقبضتها قصاصة من ورق مدعوك، يبدو أنها كتبت عليها آخر رسالة ارتأت أن تتركها لإيثان قبل أن تترك الحياة:



هكذا، على كل حال،
ما كان بوسعك أن
تمدّ لي يد المساعدة.

6

قوّة الأشياء

القدر هو ما نصادفه في اللحظة التي لا نتوقعه.

مارسيل بروست

مانهاتن

السبت 31 أكتوبر

الساعة 13 و8 دقائق

غادر إيثان رفقة محاميته الدائرة 66 لمفوضية الشرطة بعد ساعتين من الاستماع لإفادته بإخضاعه لعملية استنطاق مرهق. وهو ينزل أدراج المدخل، غمره فجأة وميض خاطف كالبرق أصابه بغشاوة. وضع يديه على عينيه ليتبيّن له أنه انعكاس من آلة تصوير بيد صحفي كان يترصّده من وراء عمود من الرخام. بحركة من المحامية للإفلات، حثّته على التراجع إلى الوراء والعودة إلى داخل البناية المركزية.

- هل سبق لك أن قرأت رواية **محرقة الغرور**[1] لتوم وولف؟ سألته وهي تعبُر به باباً سرياً للخروج.

---

(1) رواية لتوم وولف نُشرت عام 1987، تُصوِّر رأسمالياً ثرياً من وول ستريت، بعد أن أوقَعَ بشابٍّ أسود في منطقة برونكس، يصبح فريسة للصحافيين ويرى كل عالمه ينهار من حوله.

- لماذا؟

- فيها وصفٌ لما سيقع لك.

ثم تكهنت له بنبرة مستسلمة: إن وسائل الإعلام التي طالما انبهرت بصعودك اللافت ستكون هي نفسها السبّاقة للابتهاج بسقوطك المدوي.

- ولكنني لم أقترف أي جرم! ردّ عليها مبعداً عنه كلّ شبهة.

- أحياناً يكفي المرءَ أن يوجد بالمكان السيئ في الوقت السيئ بحُكم الصدفة لتتوفر أسباب تدمير حياته بالمرة.

- كنت أعتقد أنك أنتِ الأولى بالدفاع عني!

- **شجاعة الإنسان تُقاس بمدى قدرته على مواجهة الحقيقة:** هذا ما تقول في كتبك. أليس كذلك؟

ودّ لو كان بإمكانه الاعتراض على قولها، لكنه لم يجد ردّاً مقنعاً في الحال.

وصلا إلى سلّم يفضي إلى ساحة خلفيّة ضيّقة منحصرة بين صفّ من سيارات الشرطة وأكداس من مواد ورشة.

اقترحت عليه أن توصله برفقتها في طريقها، غير أنه فضّل العودة راجلاً إلى مكتبه الذي لا تفصله عنه إلّا بضعة أزقة. بوصوله إلى موقع 120 من وول ستريت، اكتشف أختام الشرطة القضائية على باب عيادته. في غمرة غمّه، لم يجد من وجهة غير الموقف التحت-أرضي للسيارات أسفل العمارة لأخذ سيارته. ظلّ لحظة متسمراً على مقعده خائر القوى وسط العتمة المُزرَقة الخافتة التي تكتنف على المكان. لماذا يتملّكه الانطباع بأنه صار يتلبّسُ وجه مجرم؟ لماذا بذل الشرطي الذي استجوبه كل ما بوسعه لترسيخ هذا الانطباع في نفسيته؟ صحيح أنه لم تُوجَّه لإيثان رسميّاً إلى حدّ الآن أية تهمة، لكن بحكم سنّ

الضحية وطبيعة العنف المرتكب في أقصى حالاته، سيشكّل الحدث لا محالة مادة إعلامية دسمة بعناوين رئيسة مثيرة، ممّا سيؤثر في الرأي العام ويدفعه بالتالي للمطالبة بكبش فداء.

كل شيء حصل على نحو خاطف.

أغمض عينيه وشرع في تمسيدهما. تَسارَعَ برأسه شريط الأحداث، الفظّة المؤلمة، على شكل ومضات متتابعة: الطلق الناري، الرعب الذي أعقبه، وصول الشرطة، حجز كاميرا المراقبة المنصوبة في قاعة الانتظار، نقالة الموتى البيضاء التي حملت جثمان الضحية.

تلك الفتاة، جيسي. لم يجد المحقّقون بحوزتها أية بطاقة تعريف. ووجد من الخير له أنه لم يكن يعرف عنها شيئاً، بما في ذلك اسمها الكامل.

حين قابلها، لم يُبْدِ أيّ فضول في مساءلتها، ولا أية رغبة في معرفة هويتها، بل فوق ذلك لم يطرح عليها أي سؤال حول طبيعة توجّساتها ومعاناتها. هذا مع أنها جاءت خصيصاً لمقابلته شخصياً هو بالذات. من الظاهر أنها كانت تحرص على تقطيع القصاصات الصحفية الخاصة به، وتشاهد البرامج التلفزية التي تستضيفه. هذا ما انتهى بها دون شك إلى هذا المآل. قصدته تبحث عن سند، طالبة منه يَدَ المساعدة، لكنه تخلى عنها في اللحظة الأخيرة وتركها وحيدة مع يأسها.

بكل تأكيد. هو الآن مستعد أن يقدّم أي شيء مقابل أن يعود الزمن به ثلاث ساعات إلى الوراء. هكذا كان حاله دوماً بعد كل مأساة: **لو أني كنت أعرف، لو كان بإمكاني استعادة الموقف،**

الحظوظ الموالية لن أدعها تضيع. . لكن الزمن للأسف لا يعود أبداً إلى الوراء.

باغته فلاش آلة التصوير وقطع عليه حبل تفكيره.

فتح عينيه فلاش ليلمح المصور نفسه الذي تعقّبه فلاش يُمطره بسيل رشاش من الصور داخل السيارة. كل ومضة فلاش تصيبه تشلّ حركته تماماً مثل فلاش صعقة كهربائية. وبحركة سريعة للإفلات، أدار مفتاح المحرك وانطلق كالبرق على متن سيّارته المازيراتي مجبراً المصور على الانسحاب. تعرّج إيثان في مساره بين الأعمدة، وعاد من جديد لمطاردة المصور قبل أن يتراجع عن القرار ويغادر المرأب.

*

من دون وجهة محدّدة، سار على طول «فولتون ستريت»، ومنه صعد «برودواي»، ليطالعه وجه جيسي من جديد.

لم يكن من المعقول أن يغفل عمّا كان محتمل الوقوع. الآن، بدأت تنكشف له بجلاء العلامات المؤشرة التي كان من المفروض أن تستنفر انتباهه: الندوب البادية على معصمها، سحنة وجهها، نحافة قدّها التي تجعلها أشبه بوردة ذابلة، صراحتها الجارحة بما لا يناسب سنّها. لكن، فات الأوان.

إنّ الإقدام عن الانتحار ليس تعبيراً عن الحرية. تُرى أية قوى مشؤومة يمكن أن تدفع صبية في ربيعها الرابع عشر إلى نسف جمجمتها ذات صباح خريفي جميل؟ أي وجع؟ أية مهانة؟ أي غضب؟ أية ضغينة؟ وأي رعب كانت أضعف من مواجهته؟!

كان من المفروض أن تطرح عليها كل هذه الأسئلة حين كانت أمامك. وتباشر الحديث معها، وتُعيد إليها الثقة

المفقودة. هذا ما كان عليك القيام به، غير أنك بدَلاً من ذلك كنت مستغرقاً عن آخرك في مشاكلك الشخصيّة الصغيرة.

خرج من برودواي ليلج حي ليتل إيطالي ويصعد باتجاه نوليتا وإيست فيلادج، وهو يمسك بالمقود بلا وجهة محدّدة. كان يودّ الهروب، وهذا كل ما في الأمر.

من جهة أخرى كان يعلم تماماً أن عليه تحمّل نتائج تصرفاته حتى آخر المطاف.

صحيح أنك لست مَن ضغط على الزناد، لكنك ستظل تعاني عقدة الذنب إلى آخر أيام حياتك.

لقد تعوّد، في برامج التلفزيون أو في ندواته، أن يتحدث في الغالب عن الانتحار، بإدراج أرقام يحفظها عن ظهر قلب: «حوالي 3000 حالة انتحار تسجّل يومياً في العالم بمعدّل ضحية كل ثلاثين ثانية».

ضحية كل ثلاثين ثانية؟ هيا، احسب قليلاً لترى:

1... 2... 3... 4... 5... 6... 7... 8... 9... 10...
11... 12... 13... 14... 15... 16... 17... 18... 19...
20... 21... 22... 23... 24... 25... 26... 27... 28...
29... 30...

قتيل.

1... 2... 3... 4... 5... 6... 7... 8... 9... 10...
11... 12... 13... 14... 15... 16... 17... 18... 19...
20... 21... 22... 23... 24... 25... 26... 27... 28...
29... 30...

قتيلان.

1... 2... 3... 4... 5... 6... 7... 8... 9... 10... 11... 12... 13... 14... 15... 16... 17... 18... 19... 20... 21... 22... 23... 24... 25... 26... 27... 28... 29... 30...

ثلاثة قتلى.

1... 2... 3... 4... 5... 6... 7 8... 9...

على هذه الوتيرة السريعة يتتابعون واحداً تلو الآخر!

مع ذلك، كنت قبل قليل أقل دهاءً والصبية تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعيك بعد أن أقدمت على تفجير دماغها. فرؤية الموت مرأى العين أفظع بكثير من عدّهِ بأرقام مجردة في الكتب. أليس كذلك؟

*

فجأة خارت قوّة المازيراتي، وتناقصت وتيرة سرعتها عند ملتقى شارعَي باوري وستويفسنت، وعلى شاكلة قرص تسجيليّ مشروخ، بدأت نغمة المحرك المنتظمة تخرج عن خطوط توليفتها الموسيقية المألوفة، مرغمة هذه النيزكة على إنهاء سباقها والتوقف على بُعد أمتار معدودة.

ما كان ينقصني غير هذا.

نزل من السيارة وصفق الباب خلفه ثمّ وقف على الرصيف يجيل بصره من حوله، فتبيّن له أنه في بداية ساحة سانت مارك بقلب حي إيست فيلادج، أحد أحياء مانهاتن التي أفلتت من عملية التلميع التي طالت المدينة في السنوات الأخيرة.

فتح غطاء المحرك متأففاً من هذه السيارة الجديدة التي كلّفه اقتناؤها 140,000 دولار.

مال على المحرك بارتياب.

طيب، لا داعي للاعتقاد بأنك تفقه شيئاً في هذا المجال...

فتّش في حافظة أوراقه عن بطاقة التأمين، ركَّب رقم هاتف المصلحة المعنية وطلب إرسال سيارة تصليح إلى عين المكان.

- هذه حالة أقل استعجالاً، لذا لن يكون بالإمكان الاستجابة لطلبك قبل ساعتين من الآن. اعتَذَرَ له صوت المسؤولة على الطرف الآخر من الخط.

- مدة ساعتين؟ ردّ متضايقاً.

- إنّ إضراب سائقي سيارات الأجرة قد أربك حركة المرور على الطرقات، وتسبَّب في الكثير من حوادث السير، ولذلك لا تتوقف خطوطنا عن التوصّل بطلبات التدخل.

أقفَلَ الخط بمزاج متوتر، وأغلق غطاء المحرك ثم أشعل سيجارة أخذ منها نفساً عميقاً بعصبية ظاهرة.

كان الشارع موحشاً بشكل باعث على الاستغراب، وقد كنسته ريح الجنوب مثيرة في الأجواء سحابات من الغبار ونثاراً من الأوراق المتساقطة من الأشجار والقصاصات المتطايرة من صناديق القمامة. ولا بد من الإشارة إلى أن حيّ إيست فيلادج لا يدخل في عِدَاد الأحياء الآمنة في مانهاتن. كان في وقت سابق متهالكاً وسيئ السمعة، شكَّل لفترة طويلة سوقاً رائجة لأباطرة المخدرات وخلفية للمهمّشين والمومسات، وساحة لأعنف المواجهات مع دوريات الشرطة؛ كما شكَّل في الوقت نفسه معقلاً لحركة «بيتنيكس» الأدبية، وفن الجاز، ومَدّ الثقافة المضادة، وموسيقى الروك والبانكس. وقد ظلّ زاخراً بأعلامه الخالدة التي أبدعت في هذه الأجواء: تيلونيوس مونك، وآندي وارهول، وجان ميشيل باسكيا؛ هذا إلى جانب

السهرات التي أحيتها المغنية باتي سميث، وفرقة بوليس ومجموعة كلاش في نادي «سي بي جي بي» على بُعد أمتار من منحدر هذا الشارع. ومن المثير في هذا الحي أنه حافظَ على طابعه الخفي المتميّز، رغم مظاهر التحوّل جعلت منه قبلة للكثيرين.

تقدم إيثان بضع خطوات على رصيف ساحة سانت مارك الذي سبق أن عبره مرة أو مرتين. ومن يومها ظلّ يختزن في ذاكرته صورة شارع يضجّ بالحركة، والحانات، والباعة المتجولين، وتجار الأسطوانات القديمة، وقاعات الوشم، ومحلات التزيّن بالأقراط؛ إلا أنه يبدو، عشية هذا السبت، شارعاً غارقاً في جو من الجمود والخمول يوحي للزائر بأنه في مدينة أشباح.

فجأة التفت مذعوراً من فرملة قوية لسيارة أجرة حلّت كهبوب إعصار ضرب على مبعدة أمتار منه.

غريب...

لم تكن «فورد كراون فيكتوريا»، ذاك النوع التقليدي الشائع في سيارات الأجرة بالمدينة، بل كانت أكثر قدامة؛ سيارة عتيقة من نوع «شيكر» بأجزاء متناسقة كالتي تُستعمل في الأفلام الكلاسيكية، تذكر بتلك التي كان يقودها الممثل روبيرت دي نيرو في فيلم تاكسي درايفر.

بدا التجهّم على جبين إيثان.

هذه المركبة تشكّل، دون شك، قطعة من سلسلة تحف نادرة..

لاحظ فوق سقف السيارة العلامة الثلاثية المضيئة للتنبيه إلى كون السائق خارج الخدمة. والمدهش أنّ علامة الإنذار، التي تستعمل عادة لتنبيه الشرطة لحالة خطر، كانت هي الأخرى معطّلة.

اقترب إيثان من السيارة بهدف الاستطلاع، فانزاح زجاج النافذة عن وجه ضخم:

- **هل تودّ أن أقِلكَ إلى مكان ما؟**

كان السائق زنجيّاً بمنكبين عريضين، ورأس حليقة، وبشرة سوداء لامعة. تبدو عينه اليسرى منحسرة يغطيها جفنٌ مُسْدَل، ممّا يضفي على وجهه قتامة من مزاج سوداوي عَكِر.

تراجع إيثان خطوتين إلى الوراء مرتاباً من هذا الاقتراح المباغت.

- هل أنت في الخدمة؟

- ليكن كذلك.

تردَّد إيثان برهة، إذ وجد الاقتراح رغم ذلك مغرياً: لم تكن لديه النيّة على كلّ حال في انتظار سيارة التصليح لمدّة ساعتين، ولحسن الحظ فسيارته مركونة في موضع بعيد عن عرقلة حركة المرور. هكذا فتح باب السيارة الصفراء وأخذ مكانه في المقعد الخلفي.

وفي الحال، انطلق السائق دون أن ينتظر منه تحديد وجهته المقصودة.

*

ما أن استوى في جلسته حتى انتبه إلى أنّ سيارة الأجرة لا تتوفر على عَدّاد، وبدأ يتوجّس من مآل هذه الورطة التي سقط فيها دون تحَسّب. فهو ككلّ ساكنة نيويورك، طالما تناهت إلى سمعه قصص سيارات النقل السرّيّ التي تُستعمل في الإيقاع بالسياح لسلبهم ما بحوزتهم. لكنه ما لبث أن استبعد أن يكون مستهدفاً، إذ إن السائق

بهيئته الضخمة كهيئة لاعبي الكرة المستطيلة سرعان ما أبان في تعامله عن لطف غير متوقع.

- هذا يوم عصيب؟ سأله السائق وهو يرمقه من خلال مرآة السياقة.

- هه. لا، أبداً، كل شيء على ما يرام. ردّ إيثان وقد أربكه السؤال.

حدج السائق بنظرة حذرة. بدا على هيئة روبير ميتشوم في فيلم **ليل الصيّاد**، وقد وشم على أعلى الأصابع أربعة أحرف على كل يد: .L.O.V.E و .F.A.T.E[1]

بهذه الملاحظة ترسخ لديه الانطباع أنه بإزاء شخصية قلقة مهزوزة. وقرأ رخصته المهنية المعلقة على ظهر مقعده، الحاملة لاسمه -كورتيس نفيل- مقروناً باسم منطقته - بروكلين.

- من الظاهر ألّا شأن لك بما حدث. بادره فجأة بصوت مُطمئن.

- ماذا؟

- انتحار الفتاة.

شعر إيثان برجّة في أعماقه:

عمّا تتحدث؟

- أنت أعلم بما أقصد.

- أنت. هل رأيتني على شاشة التلفزيون؟ أليس كذلك؟ سأله إيثان وهو يستحضر اللقطة التي اقتنصها المصور التلفزي في غفلة منه. إذاً لقد قامت القناة بعرضها بأسرع ما يمكن!

---

(1) أي الحب والقدر.

لم يبادر كورتيس بأيّ جواب مباشر، لكنه قال مهمهماً كأنه يخاطب نفسه:

- ليس بوسعنا معاكسة المجرى المحتوم للأشياء، ولا بوسعنا شيء أمام الموت وقضائه.

تنهّد إيثان راغباً عن الدخول في أي جدال، وحوّل بصره لمرآة القيادة الأمامية وقد علقت بها سبحة معقودة من حبّات الصَّدف والفضة، تتدلى متأرجحة وسط الواجهة الزجاجية للسيارة، وهو يستمع للسائق الزنجي يتابع كلامه:

- الاعتقاد في القدرة على مواجهة القدر مجرد وهم.

هزّ إيثان رأسه بالإيجاب، وفتح زجاج النافذة لاستنشاق قليل من الهواء الرطب. لم تكن تلك المرة الأولى التي يضطرّ فيها لتحمل شخص في حالة هذيان. والمهم بالنسبة إليه بكل بساطة الحرص على تفادي السقوط في اللعبة. وتركه يواصل حديثه بتركيز:

- أرى أن قدر تلك الفتاة كان هو الموت، وأعتقد أنه لم يكن بإمكانك إنقاذها مهما أَوْلَيْتَها من عناية.

- إذاً نحن لسنا مسؤولين عن أي شيء في حياتنا. أهذا ما تقصده؟ سأله إيثان مضطراً لمجاراته في الحديث على هذا النحو التبسيطي كما بدا له.

هنا بالذات، تريّث كورتيس ليردّ عليه بعد تفكير وبصوت وقور:

- أنا أؤمن بوجود نسق للأشياء، نسق لا يمكن بأي شكل خرقه أو تحريفه عن مساره.

- هل تؤمن حقاً في كون الأمور مكتوبة سلفاً؟ سأل إيثان باستخفاف مكشوف.

- بشكل مطلق. إن الزمن مثل صفحات كتاب: فأنت في

اللحظة التي تقرأ فيها الصفحة 66، تكون الصفحتان 67 و68 مكتوبتين سلفاً.

- وكيف تتعامل مع الصدفة؟

هزّ كورتيس رأسه:

- أعتقد ألّا وجود للصدفة، أو لتكن الصدفة هي. هي الله.

أجل، الصدفة هي الله وهو يتجوّل بين ظهرانينا متخفياً على الأرض...

- وماذا عن حريّة الاختيار؟

- ما نراه حرية اختيار ليس إلّا مجرد مظهر خادع، مجرّد وهم سامّ يجعلنا نعتقد في القدرة على التصرف في الأشياء من حيث هي في الواقع خارج إرادتنا. ألم يسترعِ ذلك انتباهك أبداً؟ ألا ترى أنّ هناك أناساً ينعمون دائماً بمسرة الحياة في أحسن حال، وآخرين يعانون دائماً الأمرّين لينتهوا لأسوأ مآل؟

وجد إيثان نفسه يحفظ هذا الخطاب عن ظهر قلب. وبعض مرضاه -على العموم من الأشخاص الذين يرفضون الاعتراف بجرمهم في وقوع أحداث مأسوية- لا يفتأون يردّدون هذا النوع من الكلمات. لكن أيّ جرم مكبوت يؤرق كورتيس نفيل؟

جال إيثان ببصره يتفحّص ما حوله. مقصورة السيارة مليئة بلُعَبٍ ودمى من كلّ الأصناف: نصْبٌ مصغَّر للعذراء، وآخر لحارس ملاك، وأزهار متيبسة عالقة بالمقاعد، وأوراق تنجيم تاروت مارسيليا على شكل بطائق مصوّرة تجسّد مجتمعة فيما بينها رسومَ أطفال تمّ إلصاقها حتى على الزجاج. ثم لاحظ أن الطابع التزييني للمقصورة يجعلها أقرب إلى. ضريح. وفجأة تفتقت الصورة في ذهن إيثان:

- هل هو ابنك؟ سأله وهو يشير إلى صورة طفل صغير في إطار فضي مرصّع موضوع على لوحة القيادة.

- نعم. إنه جوني.

- كم عمره؟

- ست سنوات.

تردّد إيثان في طرح مزيد من الأسئلة. ماذا لو أخطأ بطرح سؤاله الموالي؟ وماذا لو.

- توفي؟ أليس كذلك؟

هكذا وجد الكلمات تنفلت من بين شفتيه.

- نعم. أكد السائق متابعاً بصوت خافت لا يكاد يُسمع، مات قبل عامين، كان ذلك خلال العطلة الصيفية.

- ماذا حصل بالضبط؟

لم يرد كورتيس في الحال، ليترك فسحة مديدة من الصمت، وقد انصبّ تركيزه على الطريق، وكأنه لم يسمع سؤال صاحبه. وبعدها، باشر بصعوبة استحضار تفاصيل حكايته الفاجعة، كاشفاً بحرقة، وبصوت متقطّع، بعض ما ترسَّب في أعماقه من بقايا ذكريات دفينة مؤلمة. هكذا انغمر في سرد المأساة بعينين غائمتين:

- ذات يوم صحو جميل، كنت في الحديقة منشغلاً بالمشواة المنصوبة على الفحم.. وابني جوني بالقرب مني يستمتع بلطم الماء وهو يستحمّ بحوضه المطاطي الصغير، بينما أمه جالسة تحت الشرفة تترنّم بترديد إحدى أغانيها الطروب المحبَّبة إليها. وكلبنا السلوقي «زفير»، ذو الأصل الإيرلندي، في المرجة المعشوشبة يلاعب أسطوانة هوائية قديمة. قضى بيننا ثلاثة أعوام متتالية في جو حميمي هادئ. كان كلباً هادئاً أميناً رغم متانته ومظهر قوته

وصلابته. وقد حرصنا على تربيته وترويضه على أحسن وجه، ممّا حوّله إلى كلب وديع، ظلّ دائماً: رغم قامته الفارعة، يحتفظ بهدوئه ورباطته، ولا ينبح إلا لماماً عند الضرورة.

ظلّ إيثان غارقاً في صمته، مشدوداً إلى حكاية كورتيس، متابعاً حتى أدقّ التغييرات التي تعتري نبرة صوته.

- بغتة، ومن دون سبب ظاهر. صعقتُ وأنا أرى الكلب ينقضّ على جوني، ويبدأ في نهشه، مركّزاً هجومه على صدره وعنقه، قبل أن يطبق بشدقيه على رأسه.

توقف كورتيس عن الحكي، وسادت فترة صمت طويلة، تخلّلتها تنهداتٌ عميقة، وهو يفرك بين الحين والآخر عينه الخابية، ليواصل بعد لحظة:

- كان عليّ أن أصارعه بيديّ العزلاوين، وأنا مرتعب، لإبعاده عن جوني بكلّ ما أملك من قوة، لكني سرعان ما أدركت ألّا جدوى من ذلك بعد فوات الأوان: كان قد نهش وجهه بالكامل، ومزّقه كقطعة لحم عفنة. بعد ذلك خمدت أنفاسُ جوني وهو يمسك بيدي على متن مروحية الإسعاف التي كانت تقلنا على وجه السرعة باتجاه المستشفى.

*

صمت.

في هذه اللحظة، واصلت المروحية طريقها، ووجد نفسه منشغلاً بتأمّل السحاب وانعكاسه، وكأن اختراقه أشبه بعملية قفز من واجهة زجاجية إلى أخرى.

*

- بموته استبدّ بي ألم عصيّ عن التفسير. وحين رحلَت زوجتي -التي لم تغفر لي ما جرى للصبي- أشرفتُ على الموت مراراً بدوري، وبقيت على هذه الحال إلى أن تيسّر لي فهمي.

- ماذا فهمت؟ سأله إيثان بهدوء.

- أني لم يكن لي أيّ ذنب في ما حصل.

كانت السيارة لا تزال تواصل طريقها عبر ساحة ماديسون سكوير، متجاوزة محطة غراند سنترال باتجاه ميدتاون. واستطرد كورتيس:

- لا ذنب لأحد فيما حصل. إن الأمر في الواقع أفظع ممّا يبدو عليه في الظاهر. وأعتقد أنّ أجل كلّ إنسان محدّد بشكل مسبق، بحيث لا يدري أيّ منا بأي مكان تحين ساعته، ولا يملك سبيلاً للإفلات من قدره.

ظلّ إيثان يصيخ السمع باهتمام لكورتيس، يتجاذبه نحوه مزيج من الشفقة والارتياب. بدا له بكلّ يقين أنه أنشأ لنفسه قوقعة على شكل منظومة من الاعتقادات؛ كلها ترهاتٌ حول القضاء والقدر أتاحت له أن يواصل الحياة في منأى عن أيّ شعور بالذنب أو إحساس بالألم الناجم عن موت ابنه الفاجع.

وتابع كورتيس كلامه:

- هناك أحداث ليس بمقدورنا تغيير مجراها أو إيقاف مسارها على الإطلاق. فالأشياء المنذورة للحدوث لا بدّ أن تحدث مهما حاولنا الحيلولة دون وقوعها.

- إذاً، بهذا المنطق ستنتفي كلّ مسؤولية عن جرائم العنف والقتل والاغتصاب.

أخذ كورتيس هذا الاستدلال بعين الاعتبار، وهو يتجاوز فندق

بلازا، ويتخذ مساره بمحاذاة المنتزه المركزي، ثم بعد برهة عنَّ له أن يسأل إيثان:

- هل يمكنك أن تفسر لي أمراً؟

- كما تشاء.

- لماذا لم تحدّد لي وجهتك المقصودة حين أردتُ أن أقلّك معي؟

- لا أعرف لماذا. وربما لأني لم أكن أعرف أصلاً وجهتي المقصودة.

بعد أن تجاوز متحف «فريك كوليكشن»، توغل بالسيارة داخل منتزه سنترال بارك قبل أن يصعد بسرعة متباطئة شارع إيست درايف. ثم قال له وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة:

- ألم ينتابك التوجس مني؟ كان بإمكاني الإيقاع بك، وسلبكَ ما بحوزتك.

هزّ إيثان رأسه، وردّ عليه مداعباً:

- كيف ينتابني التوجس من وجه بملامح باعثة على الثقة والاطمئنان؟

في هذه الأثناء، بدا أن علاقة تواطؤ قد توطّدت بين الرجلين على نحو غريب. ألقى إيثان ببصره من النافذة: كان الجو يشي بوقت في عزّ الخريف، ومنتزه سنترال بارك تغطّيه الأوراق الصقيلة المتساقطة بفعل الريح، وقد امتدت كبساط زاهٍ على أرضيته. وشدت انتباهه مجموعة من الصِّبْيَةِ تصطف على طول منتزه درايف نورث، عارضة على الأرض عيّناتٍ من اليقطين بمختلف الأحجام، ترقباً لعيد «الهالوين»، ومن وراء الأشجار تَعِنّ له بالبال تلك الضفاف المنحدرة للبحيرة التي...

أحسّ إيثان بغتة بالانقباض: سنترال بارك، البحيرة. هل هذه أيضاً محضُ صدفة؟

لم يدُم تساؤله طويلاً، إذ جاءه الردّ في غضون بضع ثوانٍ معدودة حين توقفت به سيارة الأجرة بالضبط عند ملتقى شارعي إيست 72 وبارك درايف نورث. ألفى نفسه دون سابق توقع أمام مطعم «ليب بوت هاوس»، حيث من المقرر أن تقيم سيلين حفل زفافها المُعلَن.

بحنق واستغراب، مالَ إيثان نحو كورتيس وسأله:

- بالله، قل لي، مَن تكون أنت؟

- مجرد سائق تاكسي يحاول أن يساعدك.

- ولكن لماذا جئتَ بي إلى هنا؟ سأله بنبرة متوعِّدة. كيف تَسَنّى لك أن تعرف.

ترجّل كورتيس من السيّارة، وفتح الباب الخلفي لزبونه. شعر إيثان بنوعٍ من الشماتة بتوظيفه كلعبة في مناورة خفيّة. هبّ من مقعده غاضباً، وانتصب أمام الزنجي ذي القامة الفارعة فيما يشبه المواجهة، لكنه بدا له أكثر صلابة وأقل لطفاً.

ودون أن يفقد رباطة جأشه، عاد كورتيس إلى مقعد القيادة وأدار مفتاح المحرك، دون أن ينبس بكلمة.

- لكنك لم تقل لي لِمَ جئتَ بي إلى هنا؟ صاح به إيثان ضارباً بجماع قبضته باب السيارة.

وهو على أهبة الانطلاق، فتح كورتيس زجاج النافذة، وردّ عليه ببداهة:

- إنه قدرك.

7

سيلين

هكذا نسقط في الحب، بالبحث في شخص المحبوب عن النقطة التي لم يسبق له، هو نفسه، تبيّنُها في نفسه.

إيري دي لوكا

سنترال بارك بوت هاوس
السبت 31 اكتوبر
الساعة 13 و32 دقيقة

قدّم إيثان بطاقة الدعوة عند المدخل قبل أن يقوده أحدهم إلى ليكسايد داينغ، القاعة الرئيسة الفسيحة بأرضيتها الرخامية اللامعة كميدان تزلج. كانت مجموعات من المدعوين مستغرقة في الحديث حول الموائد بأغطيتها الصقيلة المزينة بأزهار زاهية. وبالمناسبة، اكتسى المطعم الشهير اللون «الأزرق، والأبيض والأحمر»، وسادت في أجوائه المحادثات باللسان الفرنسي، بحكم أنّ السواد الأعظم من الضيوف كان قد وصل بالأمس من مطار «شارل-دو-غول».

جال إيثان ببصره في أرجاء القاعة دون أن يتمكن من التعرّف على أحد من الحاضرين. فخلال العام الذي استغرقته علاقته بسيلين، لم يسبق له أن قابل أيّاً من أفراد عائلتها أو أصدقائها. كانا

حينها مكتفيين بنفسيهما، ويعتبران الوقت الذي يمكن أن يقضياه مع الآخرين وقتاً ضائعاً.

تقدّم إلى الفسحة التي تمّت تهيئتها كحانة للضيوف، وطلب كأساً من مارتيني كي لايم. فشراب الفودكا بالفانيلا يسبب له لبرهة حرقة مستحبّة في الحنجرة والبطن، ويتيح له لحظة من السلوى بعد كلّ الضغوط التي يواجهها بعد إفاقة كلّ صباح. غير أنه يبقى مجرد شعور مؤقت بسكينة لا تدوم إلّا فترة قصيرة، ولتمديدها عليه أن يطلب كأساً أخرى من الفودكا، فكأسين، ثم ثلاثاً، خمساً، وبعدها يطلب قنينة بأكملها. انتابه إحساسٌ بالضيق، وتذكر أنه لا يتوفر على وسيلة نقل للعودة إلى سكناه. سحب الهاتف من جيبه وركب رقم مصلحة لتأجير السيارات الفاخرة سبق أن تعامل معها في غير ما مناسبة سابقة. حدّد لموظفة مكتب الحجز عنوان المطعم، ووعدته في الحين بسيارة ستصله في أقل من ثلاثة أرباع الساعة.

تعمّد الابتعاد عن الحانة خوفاً من الانسياق وراء الرغبة الجامحة. الفسحة الرحيبة تشرف على البحيرة، وتتيح للناظرين الاستمتاع بمرأى صفحة الماء المتلألئة تحت أشعة الشمس الوهّاجة. في هذا الجو الباهر، أقبلت سيلين وعريسها على استقبال ضيوفهما قبل انطلاق الحفل، تحت نظرات إيثان المتفرِّسة فيها عن بُعد، وهي تختال مشعّة كملاك بفستانها الأنيق الشفيف من النسيج الفاخر المزيّن بالدانتيل، وخصلات شعرها المشدودة أعلى رأسها في شكل جديلة تضفي على محيّاها البهيّ سحراً خاصاً، وتسبغ عليها هالة راقصة من الزمن الجميل. بدا لإيثان أنها لم تتغيّر كثيراً خلال كلّ الأعوام الخمس، وأنها على قدر من الجاذبية التي لم يلمسها فيها من قبل. كان فيها شيء غير قابل للإدراك: بسمتها المتحفظة،

نظرتها الأقل بريقاً من المعتاد، عفويتها التي لم تحتفظ منها إلّا بما يوحي بها.

على الرغم من منع التدخين، تناول سيجارة وأشعلها، وهو يتابع حركاتها كما لو كان تحت تأثير تنويم مغناطيسي قوي. ثم تنبّه إلى أنه بدأ فجأة يرشح عرقاً، لتنتابه بعد برهة رعشة برد سرعان ما اجتاحت كلّ أطراف جسمه ليتحوّل معها إلى ما يشبه هيكلاً في حالة ارتجاف؛ وأحسّ بقلبه كأنه يتقطر دماً ناضحاً بسُمّ حارق قاتل، لعله هو ما يمنحه شعوراً طفيفاً بهذا الدفء المؤقت.

في لحظة ما، التفتت سيلين والتقت نظراتهما لتشدّهما إلى بعضهما لنقطة ارتكاز على نحو متبادل. حاول إيثان بلا جدوى تهجّي ذاك البريق المشعّ في عيني معشوقته القديمة: حسرات؟ بقايا مشاعر؟ ضغينة؟ رغبة انتقام؟ أم ماذا؟ ورغم إحساسه بالوجود على أرض مناوئة، اقترب من الجمع، استند إلى صارية وتظاهر بالاستغراق في تأمّل الزوارق والجنادل التي تذكّر بيخوت البندقية العائمة على صفحات الماء المتلألئة كالمرايا.

- ها أنت مع ذلك قد أتيت. همَسَتْ له وهي تدنو منه لحظات بعد أن لاحظت حضوره.

- لم تبعثي لي إشعاراً مسبقاً بالموضوع.

ثم أضاف:

- أنا سعيد بأن أراك ثانية بعد طول عهد.

هزّت رأسها:

- لا، كان ذلك بالأمس القريب بالنسبة لي، بالأمس القريب فقط.

انزوت به جانباً على انفراد، بالقرب من أكمة صغيرة من الشجيرات المستنبتة بلون الخريف، تتدلى فروعها على جنبات الفسحة. بقيا معاً واجمَيْن للحظات، يراقبان هواة ركوب القوارب يضربون بمجاديفهم، بينما الماء يتماوج إثرها على إيقاع مجموعة موسيقية شابة، كانت بصدد ارتجال معزوفات من فن الجاز على الضفة المقابلة بالقرب من نافورة بيثيزا.

ثم لم تلبث أن واصلت الحديث:

- وأنا يُسعدني بدوري أن أعود مرة أخرى إلى نيويورك. لقد حلمت دائماً بالزواج في مانهاتن. هل تذكر آخر مرة جئنا معاً إلى هنا؟

أذكر كل ثانية قضيتها برفقتكِ.

- ليس تماماً.

- كانت البحيرة متجمدة تكسوها الثلوج. معك حق كان ذلك بالأمس البعيد.

- هل تقيمين الآن بفرنسا؟

أشاح بعينيه عنها، والتفت ليلمح رجلاً بسترة طويلة سوداء وصدرة معطف بيضاء منهمكاً في الحديث لأصدقائه وهو يرقب عروسه؛ ببسمته المشرقة، ووجهه الجميل وقامته الفارعة. يبدو من النوع العصري القادر على كسب الثقة في كلّ المجالات: مدير مقاولات مبتكر، ورياضي مواظب، مؤهل كرَبِّ أسرة لطيف وزوج ناجح في كامل لياقته.

- أما زلت تشتغلين بشركة الطيران الفرنسية؟

- لا لم تعُد ترق لي هذه المهنة، فقدّمت استقالتي قبل خمس سنوات لأجل الإعداد لاجتياز مباراة ولوج سلك التدريس. وأنا

الآن أدرس في «بيلفيل» بقسم ذوي الاحتياجات الخاصة. وهي مهمة تدرّ علي اليوم دخلاً محترماً.

بعدها، تركت سيلين فسحة للصمت ولهبوب الريح المتزايد. شعرت برعشة، فعدلت طرف فستانها من نوع كارفن المكشوف عن الرقبة والكتفين؛ تزينه بارقة أحجاره الرمادية المتلألئة وحواشيه المطرزة بشريط دقيق من الدانتيل؛ ممّا يتيح اكتشاف وشم على كتفها بشكل منمنمة عربية كرمز كانت له بالنسبة إليها فيما مضى دلالة خاصة، لكنه قد يبدو لها اليوم شيئاً تافهاً.

- أعلم فيما كنت تفكر إيثان وأنت تلقي سؤالك: كرسي وظيفة، وبيت صغير في الضاحية وزوج شاب لطيف. لعلك تردّد في قرارة نفسك أنني صرتُ في النهاية ما لا كنت أودّ أن أكونه قبلاً

لم يكن يتوقع منها هذه الملاحظة، ومع ذلك حرص على طابعه الودّي المسالم:

- لا أنت مخطئة. أرى أنك ارتأيت الاختيارات التي تناسبك، وأنا سعيد لأجلك.

- توقّفْ عن المواربة بكلام منمق. لقد اخترتُ ما كنتَ أنت تبخسه: الأسرة، والاستقرار في بيت الزوجية ورتابة الحياة اليومية.

بحكم انفعالها، ارتفعت نبرة صوتها قليلاً ممّا أثار اتجاههما انتباه مجموعة من الضيوف، وقد بدا عليهم التساؤل عمّن يكون هذا الشخص الذي أخرج العروس عن طورها، وصرفها عن الجميع لمدة ربع ساعة بأكملها على بداية الحفل.

- أعتقد أنني لستُ هنا في المكان المناسب يا سيلين. وبصراحة، لا أفهم سبب توجيهك لي دعوة الحضور لحفل زفافك.

- اعتبرها عملية استدراج لأتلقى منك هدية.

- هدية؟

- وهديتك أن تبوح لي أخيراً بالحقيقة.

- أية حقيقة؟

- السبب الذي جعلك تتركني.

تراجع قليلاً إلى الوراء كأنه يستشعر خطراً محدقاً:

- لقد سبق أن حسمنا في هذا الموضوع.

- لا لم نحسم بالمرة: اكتفيتَ فقط بأن وضعتني أمام الأمر الواقع. لم تكلِّف نفسك أكثر من ثلاث دقائق للقيام بالمهمة، وبعدها انصرفت إلى غير رجعة.

حاول إيثان أن يجد مخرجاً من هذه المواجهة غير المتكافئة:

- في الحياة، ليست كلّ الأسئلة منذورة بالضرورة لأن نجد لها أجوبة شافية.

- توقف عن الحديث كما في كتبك! من أين تأتي بهذا الكلام؟ من رواية لباولو كويلو؟ وفِّر جُملك المنمقة لمقابلاتك التلفزيونية القادمة!

هزّ إيثان رأسه محاولاً أن يوضِح لها الموقف بهدوء:

- اسمعي. هذا ما حصل في وقت بعيد ما كان لنا أن نسعد فيه معاً. أنت كنت تشترطين زواجاً وأطفالاً واستقراراً. وكل ما لم يكن بوسعي توفيره لك.

حولت سيلين بصرَها بعيداً. لمحت صديقتها الحميمة زوي وهي تلمِّح إليها بالإسراع، مشيرة بإصبعها لساعة يدها. كان القسّ قد حضر وبدأ الضيوف يأخذون أماكنهم على مقاعد الحديقة.

أمسك إيثان بيدها وقال لها مودعاً:

- سأنصرف. أتمنى لك كلّ السعادة.

ورغم نيته في الانصراف، ظلّ واجماً مستبقياً يدَها بيده بنظرة ساهمة. وفي عمق المشهد، كان صَف ناطحات السحاب خطاً يتقطعُ وراء الألوان الخريفية البرّاقة وهي تتطايرُ كشهب اصطناعيّة تندمج فيها تنويعات من الأصفر والأرجواني والبرتقالي.

وكلما تباطأ إيثان في الانصراف، أحسّ بثقل نظرات الضيوف تتفرّسه مستفهمة حول صفة حضوره وطبيعة تصرفاته. حينها أطلق يد سيلين على مضض ثم أشعل سيجارة أخرى. فبادرته مؤاخذة:

- ألم تقلع بعد عن هذه العادة السيئة؟ كنتُ أعتقد ألّا أحد في نيويورك ما زال يدخّن!

- سأكون آخر من يتوقف عن التدخين. ردّ عليها وهو ينفث دوائر من الدخان المتصاعد.

- إذا كنتَ تعتقد أنك ماكر.

- ستيف ماكوين كان يدخن، جيمس دين كان يدخن، جورج هاريسون كان يدخن، كريستوف كيسلوفسكي كذلك، وألبير كامو، ونات كينغ كول، وسيرج غانسبور.

- كلهم انتهوا إلى الموت مبكراً يا إيثان، همست إليه بصوت ناعم قبل أن تسحب عقب السيجارة من بين شفتيه وترميه بالماء.

كانت تلك من حركاتها المعهودة في الماضي، بدافع الحرص على العناية به والاهتمام بحاله، حين كان لا يزال لمستقبلهما معنى.

لكن سيلين سرعان ما غالبت هذا الإحساس المؤثر قبل أن يملك عليهما وجدانهما:

- شاهدتك على شاشة التلفزيون هذا الصباح، وكان من

الصعب عليّ ألّا أراك في هذه اللحظة. ها قد صرتَ في كل مكان: في البرامج، في المجلات.

تطلّع إليها بنظرة متسائلة. تردّدت ثم قرّرت أن تكشف له عن آخر أوراقها:

- أرى أنك لستَ على ما يرام يا إيثان. تبدو غير سعيد على الرغم ممّا حققته من نجاح.

قطب حاجبيه:

- ماذا تعرفين عني في هذا الشأن؟

- أتذكُر لماذا وقعنا في الحب؟ أتذكر لماذا كان حبّاً جارفاً أقوى منا معاً؟ لأني كنتُ قادرة على أن أرى فيك أشياء يعمى عنها الآخرون، وكذلك كان الشأن بالنسبة إليك اتجاهي.

ردّ باستخفاف:

- كلّ هذا كان مجرد تفاهات وخدع كنا نتبادلها كما في الأفلام.

- أنت تعلم أني محقّة فيما أقول.

- اسمعي. أنا أتأسف لإحباطك. ولتعلمي أنّ كل شيء في حياتي على خير ما يرام: لقد أصبحتُ ثرياً ومشهوراً، في موقع يتطلع إليه الجميع، وأملك يختاً وبيتاً في هامبتون.

- على ماذا يدل هذا؟

حاول أن يتمالك نفسه موزعاً في الوقت نفسه بين الإذعان لتحاملها والرغبة في الردّ على ادّعاءاتها:

- ما دمتِ قوية إلى هذا الحدّ، افصحي لي عن الخلل الذي تلمسينه في حياتي.

- لا شيء على ما يرام يا إيثان: حياتك فراغ ووحدة. أنت

وحيد بلا أصدقاء، بلا عائلة، بلا رغبات. وما يبعث على الحزن أكثر، أنك على تمام الوعي بواقعك. لكنك لا تفعل شيئاً لتَدارك أمرك.

رفع سبابته باتجاهها عازماً على تبرير موقفه، لكنه صرف النظر عن مواجهتها، كما صرف النظر عن إخبارها بما حصل له قبل بضع ساعات حين أقدمت جيسي على الانتحار في حضرته.

- ستتأخرين عن ضيوفك. ذكرها ببساطة.

- اعتنِ بنفسك يا إيثان. ردَّت عليه وهي تبتعد عنه.

ثم بعد أن قطعت أمتاراً معدودة، التفتَت إليه لتقول له:

- لقد استمعتُ هذا الصباح لما قلته في برنامجك التلفزيوني بشأن تلك الفكرة **نقطة اللارجوع**.

تطلع إليها بنظرة مستفهمة عن قصدها تركت لجملتها لحظة بياض لتكون أكثر إثارة وتشويقاً. وبعد تردّد رفعت في وجهه التحدي:

- طيب، نقطة اللارجوع في قصتنا، كما سترى، على بعد عشر دقائق من الآن.

8

نقطة اللارجوع

الحظ أشبه بطواف فرنسا، دائماً علينا أن
ننتظر طويلاً كي نرى مُرورَ كوكبته سريعاً.
حوار من فيلم **القدر الرائع لأميلي
بولان**، لمخرجه جان-بيير جونيه

سنترال بارك بوت هاوس
السبت 31 أكتوبر
الساعة 14 و5 دقائق

تمّ تجهيز حديقة المطعم بمقاعد خشبية مطلية بلون موحد، على شاكلة خطين متقابلين في الوسط يقودان إلى مصطبة في الهواء الطلق. وعلى أنغام أغنية «ها قد أشرقت الشمس»، صعد والد سيلين المعبر المعشوشب ليقود ابنته حتى الهيكل الذي اتخذ القسّ خلفه مكانه بهالته السمحاء لإعلان انطلاق الحفل:

إخوتي الأعزاء،

ها نحن نلتقي اليوم بهذا الجمع الطيب، في أجواء من المسرة والصلاة، لنبارك هذا الرباط المقدس بين رجل وامرأة تواعدا على المحبة و. . .

لم يستطع إيثان مغادرة الـ«بوت هاوس»، إذ ظلّ قابعاً على أحد

المقاعد الدائرية العالية التي تحيط بار الحانة، وهو يراقب بطرَفي عينيه مجريات الحفل، غارقاً في تساؤلاته حول الكلمات الأخيرة لسيلين. إلى ماذا يا ترى كانت ترمي بالضبط من خلال هذه الجملة الغامضة؟ ولماذا اختارت أغنية «ها قد أشرقت الشمس» لجورج هاريسون كخلفية موسيقية في معبرها إلى الهيكل؟ أغنية كانت هي مَن عرّفه بها فيما مضى، وهي حريصة كلّ مرة عند سماعها على تذكيره بأنها الشمس بالنسبة إليه، بوصفها الإنسانة الوحيدة التي كانت تنير حياته.

ماذا بالإمكان أن نقول غير مثل هذه التفاهات حين نسقط في الحب؟ هذا ما ردَّد في نفسه وهو يطلب كأساً أخرى من الفودكا أملاً في التخفيف بها من معاناته.

عزيزتي سيلين، عزيزي سيباستيان، أنتما على أهبة اتخاذ قراركما الحاسم. وهو خيار أردتما به مرضاة الله. أنت، يا رب، يا مَن بيده حياة كلّ منا. أنت يا مَن لك الأمر من قبل ومن بعد، ماضياً وحاضراً وآتياً. أنت يا مَن زرعت في قلب كلّ من سيلين وسيباستيان الحب الذي سيشدّهما بعضاً إلى بعض إلى الأبد...

لقد أخطرته قبل قليل فقط أن «نقطة اللارجوع في قصتنا، كما سترى، بعد عشر دقائق من الآن»، خلال عشر دقائق سأعلن زواجي، خلال عشر دقائق سيُغلق البابُ بشكل نهائي.

هذا آخر نداء، هذه آخر فرصة.

في يوم الأمل هذا ستأخذ علاقتكما مساراً جديداً باتجاه المسرّة وتقوية الآصرة. في يوم الأمل هذا، ستقيمان الدليل على المحبة والوفاء والاحترام المتبادل. لذا نحن

نلتقي اليوم جميعاً لنكون على قرانكما شهوداً، ودعماً وسنداً...

ترك إيثان مقعده ليدنو من الحديقة. شعر بنفسه وحيداً، مقصياً من قِبل الجميع، وبرأسه دوار. هو الصداع الموجع نفسه الذي ألمّ به هذا الصباح منذ يقظته، وزادت حدّته بموت جيسي مع ساعات الاستنطاق التي قضاها في مخفر الشرطة، وهاتين الكأسين من الفودكا أحسّ بالخوف والبرد بأعماقه، فشدّ أزرار معطفه، وخطا بضع خطوات وكله حرص على تمالك نفسه حتى لا يبدو مترنحاً في مشيته.

في هذه اللحظة، بدأ القس يتحدث أمام العريسين بنبرة احتفالية:

إن من شأن الزواج إضفاءَ القداسة على العلاقة بين الرجل والمرأة، كرباط شرعي لتمديد السلالة وتربية الذريّة ودوام المؤازرة بينهما في أحوال اليُسر كما في أحوال الفقر، في السرّاء كما في الضرّاء...

كانت سيلين على حقّ حين شدَّدت على الفراغ الفادح في حياته. هو القابع في كاتدرائية الوحدة القاتلة، المتقوقع داخل ذاتيته المدمرة. ها هو الآن بمفرده ولا أحد معه، وقد صار التقاسم والحب والحنان مجرد مشاعر غريبة عنه. فجأة، تنبّه أنه لا يملك فعلاً ولا صديقاً واحداً، منذ أن تخلى بكلّ جبن عن جيمي في أزقة نيويورك قبل خمس عشرة سنة خلت. صحيح أنه حقّق كل شيء بمفرده؛ ومن أجل الخروج من تلك الوضعية البئيسة التي استبدّت به، كان عليه أن يتخلى عن كل شيء، وينتزع القوة اللازمة من أقصى أعماق عزلته. لقد آمن على الدوام بأنّ في حياة الوحدة

الفرصة لامتلاك القوة، وأن السقوط في الحب باعث على تبديد هذه القوة. والآن فهِمَ، بعد فوات الأوان، أن الأمور ليست بكل هذه البساطة.

إن الزواج التزامٌ قويّ لا يجوز أن نعقد عليه العزم أو الإبرام بناء على تهور أو نزوة أو لامبالاة. إنه رباط مقدّس حاسم، لأنّ ما شاء اللهُ أن يجمعه لا يمكن للإنسان أن يفرقه...

ها نقطة اللارجوع قد حانت الآن. لم يتطلب الوصول إليها حتى عشر دقائق، مجرّد عشر ثوانٍ معدودة. ثم ماذا يمكن أن يحدث لو اقتحم المنصة وأعلن في الملأ حبه لسيلين؟ تماماً كما في فيلم سينمائي. قد يكون لذلك تأثير كبير. في فيلم من هذا النوع، من المحتمل أن تتمّ تسوية الأمور في ثلاث دقائق. في فيلم من هذا النوع، قد يبدو إيثان غريماً، مثالياً، وعاشقاً جريئاً. لكنه الآن ليس في فيلم، ويمكنه أن يكون أيّاً شاء إلّا أن يكون بطلاً ويكفيه أن يكون الآن ممزّقاً مسكوناً بالحيرة والشكّ.

إذاً، إذا كان لأحدكما سببٌ وجيه للتراجع عن القرار أو الاعتراض على هذا القران، فليتكلم الآن أو فليخلد للصمت إلى الأبد...

فليتكلم الآن أو فليخلد للصمت إلى الأبد... كان لهذه الجملة وقع خاصّ في ظلّ الصمت المطبق على المكان، حيث يبدو أنّ صداها سيظلّ يتردّد مع الزمن. وعلى المنصّة الرسمية، كانت سيلين حينها تُدير رأسها بخفّة كما لو أنها تبحث عنه. مرَّت الثانية الموالية متثاقلة، وفي لحظة خاطفة تهيأ له أنه على أهبة أن يصعد المنصة ويعلن نهاية الحفلة.

لأنها روايتهما غير المكتملة.

لأنها بداهة الحب.

لأنه هو، ولأنها هي.

لكن كلّ هذا مجرد كلمات. ماذا بوسعه أن يقدِّم لها؟ عاوَدَ التفكير مرة أخرى في السؤال الذي طرحته عليه قبل قليل: «لماذا تخلَّيت عني؟». كان جوابه مراوغاً، لكن الحقيقة أنه هو نفسه لم يكن يعرف عن الأمر شيئاً.

في الأسابيع التي أعقبت فراقهما، ظلَّ يعتقد أنه كان يشكِّل خطراً على سيلين، ويرى يقيناً أنه لو واصل علاقته بها لتحوّل حبهما إلى سُمّ ناقع، إلى قنبلة، إلى مدية قاتلة. أوّلَ الأمر، منحته هذه القناعة نوعاً من العزاء. وفي هذه الفترة بالذات وجدَ ضالته بكلّ اندفاع في تكريس كلّ وقته وجهده للعمل. فيما بعد، تحقق له اللقاء مع لوريتا كراون، ومعها تحقّق له أولُ العهد بالشهرة. ثم بدأ تدريجياً في ارتقاء السلم الاجتماعي وهو على قناعة تامة بأنّ توجساته السابقة كانت مَحض وَهْم، كوسيلة سهلة لينفي الطابع الدنيء عن مسلكه وقراره بالتخلي عن سيلين. والحقيقة، أنه ترك سيلين كما ترك ماريزا وجيمي من قبل، لأنه لم يُرِدْ أن يكون مرتبطاً بأحد، لأنه لم يرد قط أن يخضع لأي التزام يحدّ من حريته. كان يريد أن يظلّ حراً من كلّ إكراه أو مسؤولية، عملاً بمبدئه: «أن أفعل ما أشاء، وقتما أشاء، كيفما أشاء». صحيح أنه لفترة معينة استلذّ طعم هذه الحرية؛ لكن مع النجاح الذي حقّقه، والثراء الذي توفر له، بدأ يتسرّب إليه الشعور بالاستخفاف مدعوماً بنصيب وافر من الملذّات الوهمية: الكحول، النساء، المخدرات، القمار، إلى أن ضاق ذرعاً بالحالة التي صار عليها.

والآن، وهو يعاني في حياته من كلّ هذه التمزّقات، ويحاول أن يكون صريحاً على الأقل مع ذاته، يجد أنه ما عاد متأكداً من أيّ شيء. وتحديداً، حتى قبل أن تنطق سيلين بكلمتها القدرية «نعم»، كان يعاوده هذا التحذير الداخلي المسبق بأنه يشكِّل خطراً عليها، ومعه يعاوده الإحساس الدفين نفسه، المجهول واللامعقول، بأنه مثقلٌ بالتهديدات. ورأى حينها بأنه إذا كان لا بدّ له من تحمّل مسؤولية واحدة في حياته، فلتكن هاته: أن يحمي المرأة التي أحبّها، حتى ولو اقتضى الأمر إبعادها عنه.

ألقى إيثان على سيلين نظرة أخيرة، كأن به رغبة لنقش صورتها بذاكرته إلى الأبد، ثم أشاح بعينيه عنها بعيداً.

إنها نهاية قصة حب.

إنها نقطة اللارجوع.

*

بعد هذه اللحظة من التهويمات، تمّ استئناف الحفل، في جوّه الهادئ، بتثبيت خاتمَي الزواج بيدي العروسين بعد إقرارهما بالقبول. وشرع الضيوف يشهرون آلاتهم الفوتوغرافية الصغيرة وكاميرات هواتفهم المحمولة لتوثيق أقوى اللحظات، تلك التي تمثِّل الوضع المناسب في شريط أطوار الحفل، لِيُطلع عليها الزوجان أبناءهما بعد سنين ويستعرضانها مع بعضهما بعيون دامعة مع كلّ ذكرى زفاف.

- لقد اخترتِ يا سيلين سيباستيان لك زوجاً. هل تسمحين له... ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة...

- نعم.

- ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة - ثرثرة، إذاً من الآن، لكما هذان الخاتمان رمزاً لحبكما وعزمكما على البقاء في كنف الوفاء.

وبينما كان يمرّ موكب الشرف من الصبية حاملين بابتهاج سلالهم الأنيقة لملئها بالهدايا والعطايا لتقديمها للعريسين، طلب إيثان كأساً أخرى من الفودكا، وانشغل بتصفّح بريده الإلكتروني للاطّلاع على الرسائل المتكدّسة في ذاكرة هاتفه البلاك بيري: مكالمات مقلقة من بيري ومن مساعده، طلبات إجراء حوارات، اعتذارات زبائن عن تنظيم ندوات، كلها علامات على أنّ سرباً هائلاً من الاتصالات سينطلق بعد قليل من عقاله. لم يتفاجأ بالأمر. لا بدّ أنّ مشهد انتحار جيسي قد طافَ كل القنوات الإخبارية. هكذا هو حال عصر عدوى الاتصالات: مجرد صورة قد تلطّخ سمعتك، وتدمِّر في رمشة عين ما جهدتَ فيه كلّ حياتك. قبل ساعات فقط، كان بمثابة «المعالج الذي فتن أميركا»، ليصبح الآن بصورة مجرم متورِّط في انتحار صبية في ربيعها الرابع عشر.

هكذا يزول مجد العالم.

آخر رسالة تتضمّنُ إخطاراً له بأنّ السيارة التي استأجرها بانتظاره عند مدخل الـ«بوت هاوس».

عَبَّ ما تبقى بكأسه في جرعة واحدة، وهَمّ بالمغادرة في اللحظة التي صادفت بالضبط اجتياز سيلين معبَر الشرف متأبِّطة ذراع زوجها تحت وابل من أكمام الزهور المتناثرة عليها.

9

الحيّ الصينيّ

不知彼，不知己，每战必殆

إذا كنت تجهل خصمك ولا تعرف نفسك،
فسيكون مآلك الهزيمة في كلّ معركة.

سون تزو، فن الحرب

كان الدكتور شينو ميتسوكي يشق في طريقه الحشود المتدافعة على طول شارع كنال، أوّلَ ما بعد الظهيرة، حيث تكون الحركة عادة في مثل هذا الوقت في أوجها بالحي الصيني.

مانهاتن - الحي الصيني
السبت 31 أكتوبر
الساعة 14 و32 دقيقة

بدا الحيّ أشبه بقفير يضجّ بالطنين والألوان. في كلّ مكان تفوح الروائح الجذابة والمقززة من التوابل، ومن نكهات الطبخ القوية، ومن الكافور والصندل. وفي كل مكان، تعرض البضائع الغريبة: الأواني المزخرفة زهيدة الثمن، الأقمشة الحريرية، الفوانيس، أعشاش الخطاطيف، الفطريات المجففة، السراطين المتيبسة،

الأقراص المدمجة المقرصنة، حقائب لوي فيتون المقلدة بعشرة دولارات، وسلع مزورة من كلّ نوع. معها تختلط الألسن من الكانتونية السائدة شمال الصين إلى الماندرينية والبِرمانية والفلبينية والفيتنامية، ممّا يعطي الانطباع بالوجود بقلب هونغ كونغ أو شنغهاي أو غوانيغزو.

تطور هذا المعقل الصيني بجنبات شارع موت بإقامة عشرات المجموعات السكنية، حول ساحة كونفوشيوس، على بعد خطوتين من «ليتل إيطالي». كان حيّاً شعبياً بأزقة ضيقة محفوفة بعمارات صغيرة ملونة ذات سلالم حديدية مفتولة. في منتصف القرن التاسع عشر، حيث وصل البحارة الصينيون الأوائل -الذين سيلتحق بهم فيما بعد مواطنوهم الذين كانوا يشتغلون في كاليفورنيا عمالاً بأوراش تشييد سكك الحديد- شرعوا في استثمار هذا الجزء سيئ السّمعة من حي لوير إيست سايد، حيث لم يكن يتصور أحد أن يتحول هذا المكان إلى أهم معقل صيني في العالم الغربي. وفي السنوات الأخيرة، تماشياً مع توسع إمبراطورية الوسط في الاقتصاد العالمي، انتهى الحي الصيني إلى ابتلاع «ليتل إيطالي»، الحي الإيطالي القديم الذي لم يتبقَّ منه اليوم سوى جزء صغير تمّ تحويله إلى نقطة جذب سياحي تطلّ على شارع مولبيري حول بعض المطاعم المفتوحة خصيصاً للزوار.

نزل شينو ميتسوكي بهدوء في اتجاه منتزه «كولومبوس» لينعم باستراحة في مطعم صغير في شارع موت تعوّد التردّد عليه. أخذ مكانه بقلب القاعة قبالة نصب لبوذا بطلاء ورقي مذهب. صبَّت له النادلة كالعادة فنجاناً من الشاي الأخضر، قبل أن تعود إليه بعربة مزخرفة عليها تشكيلة كبيرة من الفطائر المبخرة تقدّم في علب صغيرة

من الخيزران. اختار شينو ميتسوكي معجنات محشوة باللحم مطبوخة على البخار، وقوائم دجاج مملحة وكرتين من الأرز المذرى بالجلجلان. وانغمر في تذوق وجبته بكلّ تلذّذ تحت النظرة المتأملة الحانية لوجه «ساكيا موني»، الاسم الآخر لبوذا.

لن يتسلّم شينو ميتسوكي مهمته إلّا بعد ساعة من الآن، لكن من عادته دائماً أن يصل إلى المستشفى قبل الوقت المحدّد، ليجد فرصة للاندماج بجوّ العمل ويستحضر التركيز اللازم للقيام بمهمته على أكمل وجه بصفته طبيباً متخصّصاً في الجراحة. ومن المفروض أن يشتغل اليوم بقسم المستعجلات. ويتوقّع، كما العادة كلّ عام مساء عيد الهالوين، أن يكون له نصيبه من الجرحى، والسكارى وضحايا الحوادث الذين سيتوافدون على المشفى بأعداد متزايدة خلال فترة عمله.

أكمل شينو تناول وجبته غاضاً بصره عمّا حوله. ومن حين إلى آخر، يهزّ رأسه ليراقب تحركات النادلة الجميلة وهي تتحرك في مدارها الصغير بابتسامتها الرقيقة. لم يكن في غفلة عنها. فكَّر لو أنه دعاها لمرافقته ذات مساء لزيارة معرض «موما» الأخير، أو لدخول السينما أو الـ«كاراأوكي»، وهو يكاد أن يكون على يقين أنها ستقبل دعوته. والواقع أن شينو ميتسوكي قد تخلى منذ عهد بعيد عن خوض أيّ تجربة غرامية في حياته، واختار أن يعيش في سكينة وسلام، بعيداً عن معاناة الرغبة والشهوة. وبحُكم إدراكه بأنّ المرء لا يمكنه أن يحصد إلّا ما يزرع، فقد كرّس وجوده من أجل صفاء الروح ونقاء السريرة إيماناً بمبدأ الكارما. بالتأكيد لن تفضي به أعماله الخيّرة إلى أية نتيجة في هذه الحياة، لكن لا يهم: سينتظر الحياة الموالية والحيوات التي بعدها ليظفر بالجزاء المأمول. وبالنسبة إليه، فدورة

الولادة والتناسل من المفروض أن تتمّ ملاحظتها منذ قرون وقرون قبل التطلّع لبلوغ البعث من جديد.

قام وترك المائدة باتجاه الجلبة السائدة في الخارج لينساق وسط الحشد المنحدر عبر شارع موت. في غضون عشر دقائق، وصل إلى مشفى سانت جود، بمحاذاة الحي الصيني ومنطقة المصارف. كان قد باشر عمله بثلاث دقائق حين تفاجأ برجل خائر القوى يقتحم المستشفى وينهار في البهو أمامه، ببذلته من ماركة برادا وقميصه من ماركة أوكسفورد ملطّخين عن آخرهما بالدماء.

*

مانهاتن - سنترال بارك
السبت 31 أكتوبر
قبل عشرين دقيقة

- هي ذي السيارة التي طلبتها سيدي.

تناول إيثان المفاتيح من يد المستخدم الشاب، وهو يحدج بنظرة مرتابة السيارةَ العتيقة الحمراء من نوع فيراري، من جيل الثمانينيات، مركونة بموقف السيارات الخاص بالمطعم.

- هل هذه هي كلّ ما وجدت؟ سأله وهو يضع توقيعه على عقد التأجير.

- لقد تهاطلت علينا الطلبات هذا اليوم بسبب إضراب سيارات الأجرة. ردّ عليه الشاب معتذراً.

جلس إيثان أمام مقود هذه التحفة من نوع 308 ج ت س، وعلى وجهه علامات عدم الرضا. ولمداراة الموقف تخيّل نفسه توم سيليك في الحلقات الأولى من سلسلة **ماغنوم**. وسأل الشاب:

- هل القميص الهاواياني والشارب اللاصق في الصندوق الخلفي أم في صندوق لوحة القيادة؟

- عفواً سيدي؟ ماذا تقصد؟

- لا عليك، أنت أصغر من أن تفهم قصدي. ردّ عليه وهو يدير مفتاح المحرّك.

غادر إيثان سنترال بارك جاعلاً مُبَدل السرعة في درجته الخامسة. كانت فترة ما بعد الظهيرة تبدو مؤاتية للتسوق، حيث أرصفة أشهر شارع في العالم مكتظّة عن آخرها، وإضراب سيارات الأجرة الذي أربك المدينة يعطي للراجلين الانطباع الخادع بإمكانية عبور الشارع دون خطر يُذكر.

قاد إيثان سيارته ثُمانيةَ السرعة مُنحَدِراً باتجاه حديقة باتري، وفكرُهُ أبْعَدُ ما يكون عن مهمة القيادة. وجد نفسه مستغرقاً بمرارة في بقايا مزيجٍ من الصور، يختلط فيها مشهدُ سيلين وهي تشعّ بهاءً في فستان الزفاف بمشهد جيسي وهي تلفظ أنفاسَها بجمجمة منسوفة وعينين متواريتين.

قبل ساحة ماديسون بقليل، لاحظ سيارة كبيرة رباعية الدفع من نوع هامر بنوافذ من زجاج داكن تلتصق بسيارته الفيراري من الخلف على نحو منذر بالخطر. في الوقت نفسه كانت سيارتان كبيرتان داكنتان تهمّان بتجاوزه، واحدة عن يمينه والأخرى عن يساره. وجد نفسه محاصراً وسط كمّاشة، فأطلق مرات متتالية منبه السيارة، غير أن صوت المنبهات في نيويورك لا يمكن تمييزه عادة لاختلاطه بالضجيج المألوف الذي صار جزءاً من حياة المدينة.

جَرَّبَ مُجاراة الخطر كمناورة لتخويف السائقين، لكنّ السيارتين ظلّتا متوازيتين على المستوى نفسه معه. حاول رفع السرعة، فعمد

السائقان بدورهما لضبط السرعة على مقاسه. حينها لم يجد بُدّاً من الضغط على الفرامل بكلّ قوّة: تماسكت الفيراري كابحة جماحها على الطريق بحكم انخفاض هيكلها المنخفض والناعم، لتصدمَها الهامر من الخلف باندفاع دبّابة كاسحة.

فجأة، زادت السيارة التي على يساره من وتيرتها لتنحشر أمامه، مفسحة له بذلك مجالاً للإفلات بالاندفاع باتجاه تقاطع كوبر سكوير، غير أن تلك الفسحة لم تكن إلّا فخاً، بحيث إن السيارات الثلاث كان لأصحابها سبق توقعٍ بِرَدٍّ فعله فتقاسمت أدوارها في محاصرته والتضييق عليه لإجباره على تخفيف سرعته إلى توقف على طول باوري.

بالكاد، وجد إيثان فرصة لِفَكّ الحزام قبل أن يفاجئه اثنان بقامتهما الفارعة على هيئة رجلَي أمن من «الإف بي آي»، فينقضّان عليه، ثم يسحبانه من منكبيه ويحشرانه بلا أدنى تحفظ في المقعد الخلفي للهامر.

*

مانهاتن

قبل أسبوعين

شقة فاخرة في مركز روكفيلر

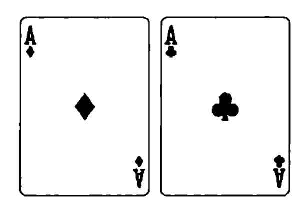
الصالون عبارة عن قاعة فسيحة -بمساحة ثلاثمائة متر مربع- تمت تهيئته كدور علوي على جنباته كوّات زجاجية تتيح رؤية دائرية لعالم نيويورك. يسُوده على الدوام جَوّ مَرِح، يَجد فيه الوافدون فضاء حميمياً رائقاً في ركن من القاعة، عازف بيانو يرتجل ببراعة تامة مقطوعات نموذجية من موسيقى الجاز. وحول مائدة كبيرة مبرنقة،

يتحلّق سبعة رجال تتوسطهم امرأة، منغمرين جميعاً في لعبة «البوكر» في مواجهة مفتوحة منذ بداية الأمسية.

يبدو الرجال في كامل أناقتهم ببدلات السهرة المفروضة على رواد الصالون، بينما ترتدي المرأة لباساً مثيراً كاشفاً عن مفاتنها: سروال جينز من النوع الرفيع مشدود لوسطها بحزام من الأسترخان، وحذاء خفيف من فرو الفهد والجلد المُبَرنَق، وقميص منحسر من الدوبلين القطني، وعِقْد في عنقها تتوسطه جوهرة ثمينة على شكل رأس نمر. تدلّ هيئتها على أنها مديرة مائدة القمار المكلَّفة بتوزيع أوراق اللعب على المحيطين بها. يأخذ إيثان مكانه قبالتها، وقد راكم أمامه أكبر عدد من قطع الرّهان مقارنة مع منافسيه منذ انطلاق اللعبة. كان قد تعلم البوكر منذ فترة المراهقة مع صديقه جيمي. ومع مرور الزمن صار لاعباً صلباً لا يشق له غبار؛ وأكثر من ذلك سبق له أن شارك في حلقات عالم البوكر إلى جانب أبطال لاس فيغاس العالميين حيث وصل مرتين إلى الدور النهائي في إقصائيات لا حدود للهولدم بألف دولار. وقد اكتسب خبرة حقيقية وبرع في استبطان اللاعبين الآخرين من ردود فعلهم. إنه في حالة تربُّص بكل شيء: بنظرات خصومه، وضعية أيديهم، حركات أجسادهم، والدم الذي يدبّ في أصداغهم. كان يعرف كيف يتريّث ويواجه الضغوط، ويتّخذ القرار بالسرعة اللازمة، ويخادع منافسيه بالتمويه وإخفاء خوفه.

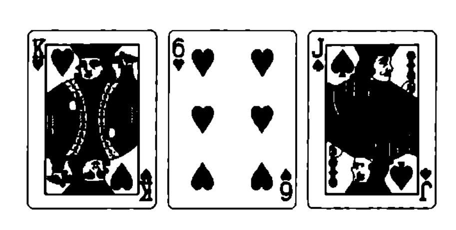
وفّى اللاعبان الجالسان على يسار مديرة القمار ما بذمتهما فوزّعت عليهما ورقتين لكل منهما، ويبقى كلاهما الوحيد من يعرف طبيعة ورقتيه. إمعاناً في المتعة والإثارة، عمَدَ إيثان إلى التريث دقائق إضافية قبل أن يطَّلع على أوراقه. لقد خسر كثيراً خلال الأسابيع

الأخيرة، لكنه يبدو محظوظاً هذا المساء. بعد أن تباطأ أطول وقت ممكن، ألقى في النهاية نظرة خاطفة على أوراقه، وكلّه حرصٌ على إخفائها بجماع يديه.



على الفور، أحسّ بتزايد وتيرة خفقان قلبه حين ألفى ورقتي «الآس» من نصيبه: التذكرة الرابحة للخطوط الأميركية بأفضل يد للإقلاع، تلك التي لا يتأتى الحصول عليها إلّا مرة واحدة في كلّ مائتي فرصة متاحة.

كانت المزايدات تسير في اتجاه تصاعدي كعقرَبَي ساعة، وكلما حان دور المرأة رمت بأوراقها حتى من غير كشفها، بهذا أدرك إيثان نيّتها في أن تكون اللعبة بلا معاينة: ذاك منتهى المجازفة والاستنفار. اسمها ماكسين جياردينو، بنت أحد المقاولين الأثرياء بالمدينة. عُرِفت بمهارتها المخادعة وغرابة أطوارها في لعبها المربك لحسابات ذوي الإمكانات المادية المحدودة. في الدور الأول للعبة، أعلن نصف عدد اللاعبين خسارتهم لتستمرّ المواجهة بين الأربعة المؤهلين. قامت ماكسين بإلغاء ورقة وأرجأت عملية الإنزال على الطاولة؛ ثم قلبت الأوراق الثلاث بحيث صارت قابلة للكشف، ممّا يتيح لأيّ لاعب امتلاك اليد الحاسمة شريطة القدرة على تركيبها في توليفة مع ورقتيه الأخريين اللتين يحتفظ بهما في منأى عن فضول منافسيه.

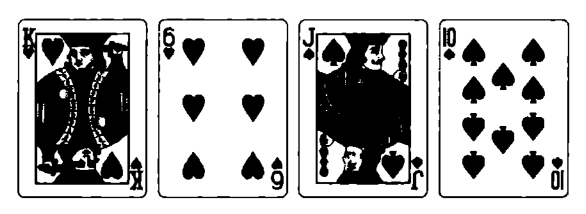


داری إيثان إحباطه، فهذا السحب لا يزيد من رجحان الأوراق الأولية التي بيده، وتبقى ضمنها ورقتا الآس في توليفة مؤهّلة للمشاركة بقوة في اللعبة.

باشرت ماكسين دوراً آخر من الرهانات من دون قلب الأوراق سعياً منها لرفع المزايدات. أعلن لاعبٌ خامس خسارته، وظلّ إيثان يواصل المنافسة. إنه يدري خلافاً للتصور الشائع أنّ البوكر ليست لعبة حظ بقدر ما هي «لعبة روح» غاية في التعقيد والدقة، واستعارة حقيقية للحياة تضعك وجهاً لوجه مع الخطر، والإثارة، والخداع، حيث يكون ضبط الاحتمالات أهم بكثير من ضربة الحظ.

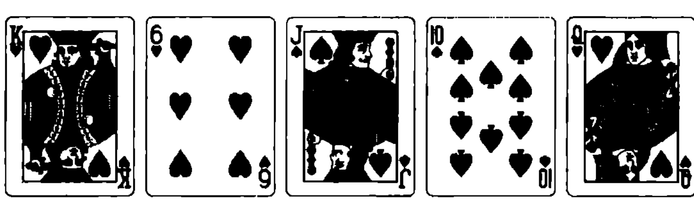
في هذه اللحظة، يرى أنّ كل الاحتمالات تبقى في صالحه.

ومن جديد، تلغي ماكسين ورقة أخرى قبل أن تشهر بدلاً منها ورقة جديدة.



هذه المرة، تصل المجازفة والإثارة حدّهما الأقصى، وهو يدرك في قرارة نفسه الآن بأنّ له حظاً واحداً بالكاد على عشرة في الحصول على خمسة أوراق متتابعة في ترتيبها. مجرّد حظ واحد بالكاد على عشرة في أن تكون الورقة القادمة عند كشفها ورقة «دام»،

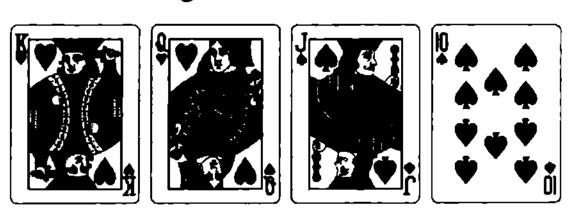
ممّا سيتيح له الحصول على خماسيّة على مستوى «الآس»، جواز مروره المطلق تقريباً باتجاه الفوز. بدأ الدور الموالي للرهان بإقصاء اللاعب السادس. هكذا لم يعُد حول طاولة القمار سوى اثنين: إيثان وجهاً لوجه مع ماكسين التي لم تكشف بعد عن أوراقها المتبقية. تجاوزَ الرهان الآن مليون دولار وماكسين لا نيّة لها في التوقف عند هذه المرحلة. إنهما يلعبان معاً «بلا حد» بالرهانات والرميات الحرّة. وكلما بادرت ماكسين برميتها ظلَّ إيثان يتابعها إلى أن تنفد قطع الرّهان من أمامها. ثم لم تلبث أن اقترحت عليه تجديد رهانه في أثناء اللعبة فقط بوقت قليل قبل أن تكشف ورقتها الأخيرة.



ظلّ محافظاً على رباطة جأشه، وعيناه مشدودتان إلى أوراق «البورد» الخمس. تناولت ماكسين سيجارة من علبتها المعدنية المكسوّة بجلد الحيّة. إنها تستمتع باللحظة التي تطبع بداية اللعبة الحاسمة، لأنّ كل شيء في النهاية يتحوّل دائماً إلى مواجهة مع الخفيّ الكامن في أعماق الآخر.

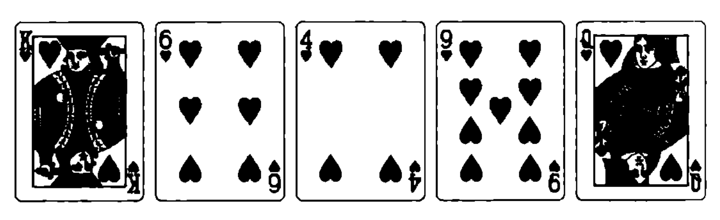
بلغت المزايدات أوْجَهَا في دورها الأخير وسط جَوّ تمتزج فيه حدّة المواجهة بحدّة الإثارة. كل منهما جاء إلى هذه المجابهة من أجل البحث عن شيء مغايِر في حياته. إنه بالنسبة إليه سفرٌ داخلي، مواجهة مع الخوف المترسّب في داخله من زمن الطفولة، نسيانُ حبّ ضائع وبحث وهميّ عن بصيص نور بقلب الظلام. وبالنسبة إليها انغمارٌ في المخاطرة، رغبة في التدمير وانتصار ساحق على الرجال.

الآن، لم تعُد الخمسة ملايين دولار على الطاولة. بادر إيثان بالمراهنة بحوالي مليونين، وهو مبلغ لم يكن في الواقع بحوزته، غير أنه لا يأبه للأمر ما دام هو الفائز لا محالة، وفي ذهنه ترتسم صورة يده الرابحة ماسكة خماسيتها المكلّلة بالآس.



غمره شعور عميق بالارتياح تمنى معه لو تدوم هذه اللحظة أطول فترة ممكنة. وأكثر من ذلك انتهزها فرصة للتفكير بتلذّذ فيما سيفعله بكل هذا المبلغ الذي سيكون بعد قليل من نصيبه. لكن ساعة الحسم بالقوّة كانت قد حانت، ساعة الكشف عن الأوراق الرابحة.

بكل هدوء، مدّدَ أوراقه بقلب المائدة، ليحين بعدها دور ماكسين. إنها لحظة غريبة مريبة لأن المرأة الشابة لم يسبق لها أن اطَّلعت على أوراقها، وبذلك يكون لهما الآن معاً أن يطَّلعا عليها. قلبت ورقتيها الخاصتين -ورقتي القلب الحاملتين لرقمي الأربعة والتسعة- وخلطتهما بالأوراق المشتركة لتظفر بالتركيبة الرابحة.



يدٌ تمسكُ بخمس أوراق بلون القلب، يَدٌ أقوى من الخماسية.

تطلعت ماكسين إلى إيثان بعينين تتطاير منهما شرارة عنف غير متوقّع وحدها لعبة البوكر قادرة على أن تشكِّل مصدراً له.

ظلّ إيثان واجماً في مكانه من هول خيبته الصاعقة، وهو على وعي بفداحة الورطة التي أوقع نفسَه فيها.

*

تكبّدَ بعد الخسارة عن اللكمة الأولى رعافاً في الأنف، وعن الثانية تلفاً في الكبد، وعن الثالثة ألماً في المعدة.

مانهاتن
اليوم

في مؤخرة الهامر، كان إيثان يتلقى الضربات الموجعة تصفية للحساب. ثلاثة رجال بنظارات سوداء، وذقون مربّعة وقبضاتٍ كقبضات «ترميناتور»، تكفّل اثنان منهم يرتديان الأسود بشلّ حركته، بينما انشغل الآخر بتلقينه درساً عمّا ما بذمته من دين القمار. مظهرُهُ لا ينمّ عن تمام عناية، ومع ذلك يبدو أرجح مكانة من زميليه. يرتدي سترة مباشرة على جذعه العاري، ويعتمر قبعة مشدودة على رأسه. يتدلى من تحتها شعرُه الطويل المُجَعّد، ويظهر ما تبَقى من وجهه غير الحليق: أشبه بكاريكاتور جلاد سادي يجد متعة كبيرة في أداء مهمته على أكمل وجه. في بداية الزوبعة، أحسّ بأضلاعه تندغم في بعضها، ثم توالت عليه الضربات القوية بسرعة لينتبه إلى أنه لا يزال على قيد الحياة. والآن، ها هو يرجو ببساطة لو يتوقف هذا الطوفان. كم من الوقت تسعفه طاقته على تحمّل هذه المعاملة القاسية؟ كان أنفه مثل نافورة تنزّ بالدماء المتدفقة على ثيابه وعلى الغطاء البلاستيكي الذي تستعمله هذه الوحوش للتستر عليه في مؤخرة الهامر التي انطلقت في سباقها المحموم مُحَوّطة بنوافذها الزجاجية القاتمة.

وصلت اللحظة التي بدأ فيها «الجلاد» يتحدّث بصوت واهن، وهو يمسّدُ قبضته الفولاذية:

- الآنسة جياردينو بانتظار مالها منذ خمسة عشر يوماً.

- أنا. أنا سأتدبّر المبلغ قريباً، لكني. أحتاج. أحتاج إلى مزيد من الوقت.

- أخذتَ ما يكفي من الوقت.

- إنه مبلغ كبير. ليس بوسعي أن أتدبر مليونَي دولار هكذا!

- انطلاقاً من اليوم، صار المبلغ مليونين وخمسمائة ألف.

- هه؟ أيعقل هذا؟

- اعتبرها حصيلة فوائد، ردّ عليه وهو يوجّه له بقبضته ضربة عنيفة على مستوى تجويف بطنه.

أحسّ إيثان بأن شيئاً ما قد تهشم بداخله. في الوقت نفسه أرخى النذلان الآخران خناقه، وتركاه فريسة منهارة بين المقعدين الخلفيين.

أغمض عينيه من شدّة الألم. كيف له أن يتدبّر كل هذا المبلغ؟ من الظاهر كما هو شائع أنه ثريّ، بحكم وتيرة الاستشارات الطبية المتقاطرة على عيادته، والندوات التي يعرض فيها خبراته، وعقود النشر التي يوقعها لإصدار كتبه. صحيح أنه يجني من وراء كل ذلك أموالاً طائلة، لكنه في الوقت نفسه ينفقها على حياته الباذخة. وأكثر من ذلك، قام مؤخراً باستثمار مبلغ كبير كمساهم في تشييد مركز للفحوص الطبية قريباً من ميامي؛ وهو عبارة عن مصحّة جد متطورة متخصّصة في علاج الإدمان من شأنها أن تشكل بعد تدشينها لاحقاً مصدر ثروة لا تنضب، وإن كانت الآن قد استنزفت قدراً غير يسير من إمكاناته المادية. والحالة هاته، ماذا بوسعه أن يفعل؟ بإمكانه أن

يعرض كلّ ممتلكاته للبيع، لكنها تبقى غير كافية: مركبه؟ لا يزال قيد قرض لدى البنك، سيارته؟ لن تجدي نفعاً بالحالة المهترئة التي صارت عليها. تحويلاته المصرفية في البورصة؟ هي الأخرى عرفت انخفاضاً كبيراً بفعل أزمة الرهن العقاري. والأنكى من كلّ ذلك من دون شك ما سوف يترتّب في القادم من الأيام عن بثّ صور موت جيسي في كل القنوات التلفزيّة. وهذا على كلّ حال ما كان وراء تعنيفه وتوسيعه ضرباً مبرحاً إلى هذا الحدّ. ثم ما دام إيثان في غمرة النجاح والشهرة، فإن آل جيادرينو ارتأوا في بادئ الأمر أن يتركوه لحاله، لكنهم ما لبثوا أن تنبهوا إلى أن الحظّ بدأ يدور لصالحهم.

- طيب. هل تملك هذا المبلغ أم لا؟ سأله الجلاد بصوت هادئ.

تمالك إيثان نفسه بصعوبة، ومسح أنفه النازف بكم قميصه محاولاً طمأنته:

- بإمكاني تدبّرُه، لكن ليس في الحال. أحتاج.

- كم من الوقت؟

- أمهلني أسبوعين إضافيين على الأقل.

- أسبوعين، همهم الجلاد، أسبوعين.

سحب من جيب سترته سيجاراً كوبياً وعضّ عليه بأسنانه دون أن يشعله. ثم شرع يبحث في علبة معدنيّة ليخرج منها مِلقَطاً بمقبضين طويلين. ندّت عنه زفرة عميقة، وفي لحظة خاطفة بإشارة منه، انقضّ معاوناه على إيثان وشلّا حركته. ضغط أحدُهما على جسده بكامل ثقله ممسكاً بمعصمه الأيمن ومدّده أمام رئيسه. إذاك تهيّأ الجلادُ لِفَرْم أصبع من أصابعه وهو يحاول ثنيه جاهداً بتوسلاته وشدّ جماع قبضته. لكن هيهات أن يجد مخرجاً من مطبّته.

لا، ليس يدي اليمنى. لا، ليس سبّابتي!

حتى آخر لحظة اعتقد إيثان أنّ الجلاد يمزح فقط من أجل ترويعه. فتلقي وابل من اللكمات شيء، لكن نزع أصبع من أصابعه شيء آخر؛ وفوق ذلك يرى أنّ لآل جياردينو سمعة طيبة لا يمكن تعريضها للخدش أو المساس. لكن ربّما كان عليه التحقق أكثر من رصيد العائلة في مثل هذه النوازل.

صدرت عن الملقط قرقعة مكتومة. وفي طرفة عين لمح إيثان سبابته تنفرط من يده وتسقط على الغطاء البلاستيكي. وفي نصف ثانية منفلتة من الواقع، حيث لم يكن الألم قد انبعث بعد من مَكمنه، كان لا يزال بإمكانه ألّا يصدق بأنّ كل هذا يحدث له. ثم لم يلبث أن تدفق الدم من يده كشلال، واكتسح جسَدَه ألم فظيع فوق الاحتمال. إذاك ندّت عنه صرخة قويّة لم تكن كافية للإيذان بنهاية عذاباته.

- أسبوعان، أصبعان! غمغم الجلاد موقناً بكل برودة دم.

ومرة أخرى أقدم بآلته المروعه على بتر أصبعه الوُسْطى. وبنبرة واثقة قال له وهو يضغط بكل قوّة على مقبضَي المِلقَط بيده:

- اعتبر نفسك محظوظاً ما دمنا لم نبتر منك شيئاً آخر.

حين انفرط الأصبع الثاني من يده، انسدلت على بصره غشاوة، ولم يعُد جسده إلّا كومة من ألم. وبفعل اللكمات التي توالت عليه لدقائق إثر ذلك أحسّ بضيق في صدره وبتقطع في أنفاسه. كان على وشك أن يغمى عليه حين توقفت الهامر فجأة بفرملة قوية، وانفتح بابها المزلاق وانقذف به على إسفلت الرصيف المغمور بأشعة الشمس قبل أن يسمع دوي عجلاتها وهي تنطلق من جديد بسرعة مجنونة.

*

تعفَّر وجهه بغبار الرصيف، ولم تسعفه قواه الواهنة على الوقوف، وفي سمعه يختلط ضجيج حركة المرور بصرخات حشد من المارة الذين تحلّقوا حوله في هلع، وقد أيقن أنه ميت لا محالة. تُرى سيسعى الناس لإسعافه أم سيتركونه لحتفه بهذه الحال على قارعة الطريق؟ قاوم بكلّ ما تبقى له من أمل البقاء ومن طاقة، اليأس الذي تملّكه من أجل استعادة قواه المتهالكة. وبصعوبة بالغة استطاع أن ينهض دون أن يتكئ على يده المعطوبة، وشرع مرتعباً يبحث على الرصيف عن أصبعيه المبتورتين. التقطهما بيده السليمة، ومرّرَ كمَّ ذراعه على الدم الذي لا يزال ينزف من أنفه، حريصاً على ألّا ينظر إلى جرح يده. ظلّ الجمع من حوله يحملق فيه مندهشاً. لاحظ أنّ أغلبه من أصول آسيوية مع بعض السيّاح، ممّا ساعده على تحديد موقعه. إنه في الحي الصيني، وقد تبَيَّنَ له على وجه الدقة الزقاق المنعرج المعروف لشارع دُوِيِر، حيث كان من عادة العصابات الدخول في اشتباكات مميتة لتصفية حساباتها بكثير من الزهو. ومن الظاهر بكلّ تأكيد أن لهؤلاء المجرمين روح دعابة مريبة ما داموا قد أبقوه على قيد الحياة.

- أسرع!

لم يكن يعرف المكانَ بما يكفي، لكن كان عليه أن يسرع. حاملاً أصبعيه المبتورين، صعد شارع موت، أحد الشرايين الكبرى التي تخترق الحي. انطلق يركض على غير هدى، محموماً، لاهثاً، ضائعاً في متاهة ملغزة. ووسط المحلات التجاريّة المتراصة المدجّجة بلافتاتها الضوئية الغمّازة، تطلّع إلى متجر أعشاب يضع على الواجهة أفراساً بحريّة مُيَبّسَة، عظامَ نَمِر، قرن كركدن ودواء سحريّاً لعلاج أنفلونزا الطيور. دفع الباب ودلف إلى الداخل يجيل

بصره في محتوياته. عشرات الأوعية البلاستيكية لحفظ جذور، وبتلات، وأزهار وأوراق لما يناهز خمسين نبتة متنوعة. توقف لحظة لتمييز ما يبحث عنه: أكياس بلاستيكية مضغوطة يستعملها الزبناء لحمل النباتات النادرة. سحب أحَدَها ودسَّ فيه أصبعيه المبتورين.

- أسرع!

حمل الكيس وانطلق باتجاه شارع مولبري ومطاعمه. مَرَّ عليها واحداً بعد الآخر إلى أن عثر على بار عليه سمك طازج. كان على وشك أن ينهار، لكنه أفلح مرّة أخرى في التماسك باستنفار قواه المتبقية. أزاح سمكة كبيرة من فصيلة أبي منقار كانت معروضة على فرشة من مسحوق الثلج. وبدأ في حشو كمية كبيرة من الثلج في إحدى العلب المفتولة من الخيزران الموضوعة على طاولة على الرصيف لتمكين الزبائن من تلفيف وحمل وجباتهم المطبوخة على البخار. ولتفادي الموت التلقائي لإصبعيه دسّ الكيس المضغوط وسط الثلج وأغلق العلبة بإحكام.

- اركض الآن!

- اركض!

- اركض!

*

الحي الصيني، يوم السبت ما بعد الزوال، كأيّ يوم آخر.

الحي الصيني، مدينة وسط مدينة، لها قواعدها الخاصة وأسرارها المشفرة.

الحي الصيني، بحشوده الملتحمة، ولافتاته المخطوطة وأسقفه المتدرجة وفق معمارها التقليدي القديم.

في الأجواء الرطبة لمنتزه كولومبس شيوخ صينيون ينخرطون

بعناد في لعبة الماه-جونغ، وآخرون بمفردهم يمارسون «التاي-تشي-شوان» بحركات جسدية بطيئة مضبوطة.

وعلى طول ساحة شاذام بالقرب من المعبد البوذي، يركض رجل متقطع الأنفاس، مضرّجاً بالدم والعرق، بخاصرة مُصابَة، وإصبعين مبتورتين، وضلع مهشم، وكبد متضرّز، ومعدة موجوعة، وعلى خديه تنساب دموع مخلوطة بدمائه النازفة. كان من الطبيعي أن ينهار هنا، مثل كلب على قارعة الطريق، بفعل الإرهاق، والصدمة والكدمات، لكنه لا يزال يواصل الجري وبيده علبة من خيزران.

غريب. إنه يعيش أسوأ يوم في حياته على الإطلاق؛ وهو الآن على وشك أن يلفظ أنفاسه، دون شك، ومع ذلك.

ومع ذلك، في هذه اللحظة بالذات، يشعر على نحوٍ لا يصدّق أنه أكثر حياة من أيّ وقت مضى.

هو يعلم بأنه، قبل قليل فقط، لامس على قارعة الطريق قعر الهاوية التي كان ساقطاً فيها منذ عدة شهور. غير أنه استطاع أن ينهض ويطلق مرّة أخرى ساقيه للريح حتى لا يتهاوى بالمرة؛ لكنه يجهل إن كان لا يزال بمقدوره أن يطفو على السطح من جديد ويسبح خارج هذه المطبّة. ربما لا، ربما لأنه وصل إلى نقطة اللارجوع. وهو في هذه الأثناء، لا يفكر إلّا في شيء واحد: أن يبقى واقفاً متماسكاً ليواصل الركض نحو مقصده، الركض باتجاه مشفى سانت جود ليدفع الباب في بضع ثوانٍ متبقية قبل أن ينهار مغشياً عليه في البهو عند مدخله.

هكذا، ببذلته البرادا وقميصه الأوكسفورد الملطّخين بالدماء.

10

لحظة كارما

من يعلم أنه يعلم، أنصتْ إليه.
من يعلم أنه لا يعلم، علِّمْه.
من لا يعلم أنه يعلم، أيقظه.
من لا يعلم أنه لا يعلم، أعْرِضْ عنه.
حكمة صينية

مشفى سانت جود
السبت 31 أكتوبر
الساعة 15 و25 دقيقة

يفحص الدكتور شينو ميتسوكي اليد المصابة بعد أن نجح في وقف نزيفها. لفّها في ضمادة ضاغطة قبل أن يقوم بتنظيف الإصبعين المبتورين وقد ثبتهما على كمادة عازلة موضوعة على طبقة من قطع الثلج، خاصة وأنه وجدهما في شروط حفظ مواتية، وأن المُصابَ -الذي لا يزال أمامه فاقداً وعيه- قد حرص بفضل فطنته على ألّا يجعلهما في تماس مباشر مع الثلج حتى لا تتعرض أنسجة الأوعية الدموية للتلف.

الآن، عليه أن يتصرف بكلّ سرعة ممكنة دونما تهوّر. لذلك توقف بضع دقائق للتفكير في ترتيبات عملية إعادة زرع الإصبعين.

لاحظ أنّ طريقة بترهما كانت دقيقة، وهي أفضل على أية حال من فرمهما أو اقتلاعهما، ذلك أنّ احتمال عودة الأطراف المبتورة إلى الحياة يتوقف عادة على نوعية طريقة قطعها، وهكذا كلّما تمّ بتر الإصبع من قاعدته تقوى نسبة نجاح عملية إعادة زرعه، حتى في الغالب من حالات التصلب وفقدان الحس. وكان من الظاهر أن المصاب قد فقدَ كمية كبيرة من الدم، ومع ذلك يبقى قادراً على استعادتها تدريجياً بحكم حداثة سنه نسبياً. إلّا أن علبة السجائر البادية من جيب سترته لم تكن مؤشراً حسناً في صالحه، إذ من شأن الإدمان على التبغ أن يؤدي به إلى تصلب الشرايين ممّا يجعله عرضة للإصابة بجلطة دموية محتملة.

- دكتور، ماذا نفعل؟ سألته رئيسة الممرضات المكلَّفة بمساعدته في التعهد بالمصاب.

- سنحاول إجراء العملية.

هكذا، وهو يباشر عملية التخدير الموضعي، لم يتوقف عن التساؤل حول ملابسات هذا الحادث الدموي الشنيع. وتقتضي مثل هذه الحالات إخطار الشرطة تحسّباً لتعرض الضحية لعنف أو تعذيب، خاصة وأنه من الظاهر لم يفقد إصبعيه في أشغال تشذيب أعشاب حديقته أو تثبيت رفّ في غرفة صغاره.

*

الساعة 17 و30 دقيقة

- لا تتحرك بالمرّة!

حين فتح إيثان عينيه، كانت قد مرّت ساعتان على الدكتور شينو ميتسوكي وهو لا يزال يجري العملية، حيث تمكّن من توطيد الكسرين بلوالب، وهو الآن في طور لأَم الأوعية الدموية والأعصاب

الممزّقة. استغرق إيثان بضع دقائق لاستعادة وعيه بذهن أشبه بمتاهة مروعة تتماهى فيها صور مريبة: جيسي، سيلين، الغريبة الشقراء، المسلحان المأجوران بهيئة رجال الـ«إف بي آي»، وهذا الكاسر الشبيه بوجه أمير كوستوريكا بملقطه المرعب.

- إصبعاي. سأل الطبيب بقلق.

- ها هما هنا. أنت لا تزال تحت تأثير التخدير الموضعي. فقط لا تتحرك بالمرة.

بعد الانتهاء من معالجة الأطراف والألياف العصبية، واصلَ الطبيب العملية باعتماد مجهر في معالجة الأوعية الدموية بخيط وإبرة دقيقة جداً.

هكذا، استغرقت العملية ثلاث ساعات متواصلة، تخلّلها بشكل منتظم بين الحين والآخر تبادل الحديث بين الطبيب ومريضه.

*

الساعة 18 و5 دقائق

- أعاني من ألم. قال إيثان للطبيب متبرماً وهو يشير إلى بطنه.

جَسّه شينو بلمسة من يده:

- ألم كلها الحياة. في الولادة ألم. في الشيخوخة ألم. في ضياع الحب ألم. في الموت ألم.

*

الساعة 18 و52 دقيقة

عجز إيثان عن البقاء بلا حراك، ممّا حذا بالدكتور شينو إلى زجره بلهجة مستفزة:

- أنت عديم الصبر وسريع الغضب.

على سبيل الاعتذار هزّ إيثان كتفيه وأطرق رأسه انصياعاً لتعليمات الطبيب. فواصل شينو كما لو كان يحادث نفسه:

- الغضب حتماً سيقتلك.

- في الغضب تنفيس وشفاء. في الغضب رفض وتمرّد. ردّ إيثان بنبرة المدافع.

هزّ شينو رأسه، ثم لم يلبث أن تطلّع إلى إيثان بنظرة حادة:

- الغضب هو الجهل، والجهل هو الألم.

*

الساعة 19 و28 دقيقة

دون قصد منه في إحراج إيثان، قرّر الدكتور شينو أن يطرح عليه السؤال الذي أرقه، السؤال الذي سبق أن طرحته الممرضة أيضاً دون أن يجدا له معاً جواباً شافياً:

- كيف حصل لك ذلك؟

- سبق أن أخبرتك: حادث.

- لمن يُعزى الخطأ؟

- خطأ القدر. ردّ إيثان وهو يستحضر كلام كورتيس نفيل، سائق التاكسي المُحَيِّر الذي التقاه هذا اليوم بعد الظهيرة.

- القدر لا وجود له. عقب عليه شينو بنبرة فاترة، القدر عُذر العاجزين عن تحمّل المسؤولية في حياتهم.

بدا أنّ الدكتور قد عاد لحظة إلى صمته، لكنه سرعان ما عاد ثانية لتعميق فكرته:

- إننا في الحقيقة لا نحصد إلّا ما نزرع.

- هل هذا هو قانون الكارما؟

- أجل، إنها القاعدة. أجاب الطبيب بقناعة ثابتة. فالأعمال

الصالحة سبيل للسعادة والتنعّم بالفضيلة، كما الأعمال الطالحة سبيل للآلام والسقوط في الرذيلة.

ثم سكتَ لثوانٍ قبل أن يضيف:

- سواء كان ذلك في الحياة الدنيا أو في الآخرة.

لزم إيثان الصمت. كيف له أن يردّ على طبيب جرّاح يتحدث على غرار الحكيم جودي؟ لقد سبق له أن اطّلع على البوذية، واهتم فيها بطهرانية الكارما القائمة على وعي المرء بآثامه، والرغبة في الإفصاح عن ندمه، والعزم على تجاوز زلاته، في طريق التكفير عن ذنوبه. وفي حدود هذه النظرة، تبدو المسألة في غاية البساطة، لكن أمر تطبيق هذه المبادئ يبقى مسألة أخرى.

عاد به حديث الطبيب إلى الخطاب المتناقض الذي صدر قبل ساعات عن كورتيس نفيل، سائق التاكسي، الذي يرى أن كلّ أفعالنا موسومة بخاتم القدر.

تُرى أيّ هامش من الحرية يبقى في مجرى حياتنا؟

تُرى أي منهما، القدر أو الكارما، يحدد أصلاً مجرى حياتنا؟

*

الساعة 20 و52 دقيقة

انتهت العملية للتو. وإيثان ممدّد ببذلة المشفى على سريره في غرفة انفرادية، مشدود إلى جهاز طبي عبر أنابيب لتفريغ المثانة وتخففيف الألم والوقاية من تخثر الدم.

على هذه الحالة، لم يفطن للّيل الجاثم بظلامه في الخارج.

دخل الدكتور شينو ميتسوكي إلى الغرفة من أجل تبليغ آخر التعليمات، وبيده علبة المارلبورو التي حجزها من جيب سترة إيثان. وقال له محذراً:

- سيجارة واحدة كافية لتعريضك لتصلب الشرايين.

دنا من سريره لفحص يده ضاغطاً بمرونة على إصبعيه لتبيّن لونهما المتورد وقياس حرارتهما بعد إعادة زرعهما.

- آي!

- سيجارة واحدة كافية للإجهاز على إصبعيك بالمرة. لفافة واحدة من هذه القذارات كافية لضياع نصف يوم من العمل سدى!

- مفهوم.

- الأنسجة الجلدية هشّة للغاية. ولمعرفة مدى عودة الحياة إلى عضويك علينا انتظار عشرة أيام على عملية الزرع.

- حسناً، لنشبك يَدَيْنا تأكيداً للاتفاق. بادره إيثان مادّاً يده في محاولة منه لإشاعة روح من الدعابة على الموقف.

لكن شينو لم يسايره في ذلك، ولم تبرح وجهه أمارات الجد والوقار. ولتجاوز الحرج قال له إيثان ببساطة:

- شكراً لك سيدي على كلّ ما فعلت لأجلي.

أجابه شينو وهو يرنو ببصره للخارج من خلال الكوة الزجاجية في الغرفة:

- وددتُ لو بإمكاني أن أساعدك أكثر، لو بإمكاني أن أساعدك في العثور على سبيل للخروج من ظلمائك، سبيل للابتعاد عن جهالتك.

هذا ما...

لم يتطرق الطبيب الجراح في حديثه إلّا للعموميات، غير أنّ إيثان خامره الإحساس بأن يكون هذا الرجل على بيّنة من الكثير ممّا تحفّظ في الكشف عنه. وهو الإحساس نفسه الذي خامره فيما سبق إزاءَ سائق التاكسي، ممّا يجعله الآن في وضعية ملتبسة يستعصي عليه

فيها أن يعرف ما إذا كان حقيقة في حضرة شيخ حكيم أو رجل مُلهَم.

- هذا السبيل، عليك تبيّنه أنت نفسك. أسَرّ إليه شينو في الختام وهو يهم بمغادرة الغرفة. الحكمة لا تُقدّم جاهزة على طبق، وإلّا لما كانت حكمة أصلاً

*

بعد مغادرة الطبيب للغرفة، لم يلمس إيثان في نفسه القدرة على مواصلة الإمعان في أقواله. كان يحسّ بالتعب وبالرغبة في النوم. وبعد لحظة، شرع هاتفه البلاك بيري الموضوع على الطاولة المتحركة في الاهتزاز بجنب السرير. التقطه بيده السليمة، محاولاً بصعوبة الاطّلاع على آخر الرسائل في بريده الإلكتروني. وجد الكثير منها من قبل ليزي متوسّلة إليه بمهاتفتها في أقرب وقت. رأى أن يتصل بها، لكنه ما لبث أن صرف النظر. استطلع بسرعة ما تبقى من رسائل -تحاملات الصحفيين، إلغاء لقاءات مرتقبة وفسخ عقود مبرمة- ليتوقف فجأة عند رسالة مطوَّلة مرفقة بمشهد مصوّر قصير من قبل شركة أمن المرفأ.

ماذا حصل أيضاً؟

في العام الماضي، بعد عملية سطو على يخته، اشترط في تعاقده مع الشركة تثبيت كاميرات مراقبة لتصوير كلّ مشتبه يقترب من محيط مركبه. ثم لمح على الشاشة شخصاً يضع على رأسه قبعة بيسبول يطرق باب المقصورة في المعبر العلوي لليخت. بدت الصورة مضببة ممّا لم يُتَح له التعرّف عليه. لكن الرجل سرعان ما هزّ رأسه وفي الحين استطاع أن يتعرفه.

إنه جيمي!

لقد مرّ على آخر عهد بينهما أربعة عشر عاماً، فما الذي جاء به، وتحديداً في هذا اليوم الذي يبدو أنّ كل شيء في حياته بدأ يتبخر؟

*

الساعة 23 و57 دقيقة

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل تقريباً حين فتح إيثان عينيه، بعد فترة نوم هادئ بالمشفى دون أن يظفر بجواب عن سؤاله. فترة نوم اصطناعي بمُسَكن الألم توقعها خطوات الممرضة جيئة وذهاباً من أجل مراقبة دورته الدمويّة بين الحين والآخر. يشعر الآن بتحسن ملموس، ولأول مرة منذ زمن بعيد تبدو له الحياة بصورة أكثر وضوحاً. لقد رأى اليوم الأسوأ بأمّ عينيه، ولامس بأطراف أصابعه نقطة اللارجوع. ومن الظاهر أنه خسر كلّ شيء. الثروة، والسمعة والحب. لكنه أيقن في الوقت نفسه بشيء واحد: ليكن الله، والعناية الإلهية، والقدر، والحب والعائلة، وما إليها من المبادئ الكبرى التي تؤمن بها غالبية الناس وتنتظم وجودهم. أما هو بماذا كان يؤمن؟ لم يكن يعتقد في أية قيمة مطلقة، ولم يَبْنِ حياته إلّا على الطموح والمال، ومع ذلك لا يزال بإمكانه تغيير قناعاته.

نهض بصعوبة من سريره، وهو يحسّ بالألم في كلّ أنحاء جسمه بعظامه الهشة كألواح الزجاج. خطا بحذر ساحباً خلفه أنابيب الحقن الموصولة بأطرافه إلى سطح صغير ملحق بالغرفة يتيح له رؤية نهر إيست ريفر. وفي الخارج يسمع صفير الريح بقلب الليل وهطول المطر المصحوب بالبرق.

أسدل إيثان مصراع الشرفة الزجاجية، ووقف على عتبتها يتأمل المشهد الماطر.

لقد خسر اليوم كلّ شيء، والأهم من كلّ ذلك أنه لا يزال على قيد الحياة.

لكنه اليوم على الأخص، يستشعر في نفسه القوة اللازمة للتشطيب بجرّة قلم على حياته مرة أخرى، كما فعلها قبل خمسة عشر عاماً، القوة اللازمة للتعاطي مع الحياة بنَفسٍ آخر، وإعادة بنائها على دعامات جديدة. سيعمل على توقيف أنشطته، وتسوية ديونه ثم يترك الولايات المتحدة إلى غير رجعة. قد يبدو هذا القرار ضرباً من الجنون، لكنه في هذه اللحظة يستشعر حتى القوة اللازمة لاسترجاع سيلين نفسها. فالأجمل هو ما لم نعِشه بعد. هكذا خامرته الفكرة وهو يتأمل آلاف الأضواء المتلألئة على مرآة النهر أمامه.

وبسبب هطول الأمطار وصفير الرياح لم ينتبه للباب الذي انفتح، لكنه لمح فجأة على الزجاج انعكاس شبح متحرّك يقف خلفه. وما أن التفت حتى وجد سلاحاً مُصَوّباً إليه.

مَن؟

جمَد في مكانه. كانت الغرفة مغمورة بالظلمة، ولم يكن بإمكانه تبَيّنُ وجه مهاجمه. وحدها الفوهة الفضية للمسدس تبيّنها مصوبة إليه وهي تلمع مشعّة في الظلام.

اخترقت الرصاصة الأولى صدره، ودفعت به إلى السطح، وهو يضغط بيده على بطنه في ذهول.

تقدّم الشبح باتجاهه بخطوة ثابتة.

مَن؟

وأطلق النار مرة أخرى.

أصابته الرصاصة الثانية في الرأس.

ندت عن إيثان صرخة استغاثة مدوية، ومدّ يديه للاحتماء.

أحسّ بماء المطر البارد يمتزج على وجهه بالدماء النازفة، مع غشاوة تنسدل على عينيه. ثم بدا له كل شيء أمامه مضبباً وهو يحاول لآخر مرة تبيّنَ ملامح قاتله.

مَن؟

كان عليه أن يتعرفه على الأقل.

فجرت الرصاصة الثالثة جمجمته، فاندفع على إثرها مع أنابيبه المبعثرة باتجاه إفريز الشرفة.

غريب، كان يعتقد قبل ثوانٍ فقط أنه على أهبة سفر جديد، ولم يخطر له على بال أن يُقذَفَ به هكذا بكلّ فظاظة بعيداً عن عالم الأحياء.

مَن؟

سقط من الشرفة، ورأسه في المقدمة، على علوّ أكثر من ثلاثين متراً. أهكذا إذاً كان قدره: أن يتهشم على السقف الإسمنتي لموقف سيارات المشفى؟ رأى أن العقوبة كانت أشدّ ممّا توقع. وفي لحظة صفاء تساءل من جديد عمّن تكون له مصلحة في تصفيته.

لن يعرف ذلك أبداً.

ملفوفاً في كنف الريح، مغسولاً بماء المطر، يتهيأ له جسده يتخبّط في الفراغ، وبذهنه صورتان متلازمتان: صورة الفتاة جيسي التي استكبر في حقها قليلاً من وقته، وذكرى من الطفولة لأول سيجارة مع جيمي، صديقه الحميم الوحيد الذي لم يعرف له نظيراً في حياته.

يا لها من ورطة!

من المؤسف أنه غالباً ما اتخذ قرارات سيئة. من المؤسف أنه غالباً ما بدّد حياته.

كان آخر ما ارتسم في ذاكرته وجه سيلين، المرأة التي ظلّ يحبها على الدوام، وهو يشعر بسعادة غامرة لمصادفتها في هذا اليوم. بدت فاتنة في فستان زفافها. فاتنة، لكنها غير سعيدة. فتش بين ثنايا الذاكرة عن ذكرى أخرى راسخة. كانت صورة تجمعهما معاً في بداية علاقة حبهما، أُخذت لهما ذات يوم ربيعي في بحر واتر تاكسي، بأطراف الشاطئ الاصطناعي المقابل لفندق سكايلاين في مانهاتن.

وعلى الصورة، يظهران باسمين، سعيدين، عاشقين، أملهما في المستقبل كبير.

تشبث إيثان أطول ما أمكنه بهذه الصورة.

إنها المرأة التي كان يتمنى الموت معها.

11

مرض الحب

في ليل الروح المظلم، تكون الساعة
الثالثة صباحاً.

فرانسيس سكوت فيتزجيرالد

مانهاتن - الشارع 44
ليلة السبت إلى الأحد
الساعة 2 و45 دقيقة

همّت سيلين بالادينو بإزالة المساحيق عن وجهها بمقصورة الحمّام في أحد أجنحة فندق سوفيتل.

في حين اندسّ زوجها سيباستيان بالفراش للنوم بالغرفة المجاورة. نزعت فستانها ونظرت في المرآة إلى وجهها الخالي من مساحيق التجميل.

والآن ماذا تفعل؟

أطلقت خصلات شعرها المجعّد الطويل، وتحسّست وجهها الفتيّ بوجنتيها البارزتين وعينيها اللوزيتين، وعلى كتفيها وشم هندي يعود بها إلى بدايات قصة حبّها مع إيثان.

إيثان. . .

لقد صادفته مرة أخرى لدقائق معدودة هذا اليوم لتخسره على

الفور ثانية. تبادلا حديثاً مطلقاً على عواهنه لم يثِر فيهما إلّا مزيداً من الشعور بالضغينة. أحسَّت به هذه العشية مكلوماً على شفير الهاوية، ومع ذلك لم تتوانَ في مهاجمته. وحتى إن لم تجرؤ على مكاشفته بوضوح، تمنّت لو أنّ شيئاً ما يحدث خلال الحفل، لأنها اعتبرته دائماً رجل حياتها: الرجل الذي طالما بحثت عنه منذ أن وعت وجودها في الحياة، الرجل الذي بإمكانها أن تكشف له وجه الشيطان الكامن بدواخلها ويبقى رغم كلّ شيء كما عهدته على حبها.

والآن، ماذا تفعل؟

هذا المساء في غرفتها الفاخرة بالفندق، عَنَّ لها أن تلعب دورها المناسب في هذه الملهاة. لقد وجدت نفسها منذ زمن بعيد، وهي حبيسة أدوار لا تناسبها، بحُكم تنازلاتها، وانصياعها لتوجيهات العائلة والأصدقاء والمجتمع، إلى أن صارت غريبة حتى عن نفسها في حياتها الخاصة. ومن جديد، يجتاحها أحياناً هذا الإحساس بالوحدة القاسية.

- **الهروب**.

ارتدت سروال جينز، وقميصاً صيفياً وصِداراً مفتوحاً، وانتعلت حذاءها الكيكرز. لم تكلّف نفسها عناء التفكير فيما ستقدم عليه، موثرة الانسياق وراء هذه القوة العبثية التي انبثقت بداخلها فجأة.

«مآلُ الكلبة أن تعود»، هكذا يقول المثل.

هي تعرف أن فكرة التراجع ستكون محبطة للجميع: سيباستيان بطبيعة الحال، ومعه أيضاً والداه وعائلته وأقرباؤه الذين جاؤوا جميعاً إلى نيويورك للاحتفال معه بأجمل يوم في حياته.

لا أحد سيفهمها: لا يمكن التخلي هكذا عن كلّ شيء.

بكل هدوء، فتحت باب الحمّام، بينما سيباستيان يغطّ في نومه بلا حراك. كانت الحقائب لا تزال جاهزة عند مدخل الجناح تأهّباً لرحلة ستأخذهما معاً إلى هاواي استكمالاً لمراسيم الاحتفال. أخذت سيلين حقيبتها ودسَّت بجانب منها محفظة لوازم الحمّام.

فيما مضى، كان إيثان يفهمها جيداً، بخلاف الآخرين الذين كانوا يرون فيها سيلين الوديعة، والطالبة المُجدّة، مضيفة الطيران الجميلة، والمعلمة ذات القلب الطيب. لقد كانت نظرته تختلف عن نظرتهم، إذ استطاع أن يقيس في دواخلها عمق معاناتها ووحدتها، ويحدس طبيعة روحها المتصدّعة.

ارتدت معطفها الرمادي المخملي، وألقت نظرة أخيرة على المكان كأنها تشيّع بها حياتها مع سيباستيان، قبل أن تغادر الغرفة في صمت.

الممر.

المصعد.

بلا أدنى ندم.

في باريس، سبق لها أن اشتغلت كمتطوعة في مجالات مختلفة: المطاعم الخيرية، خدمات التمريض المجاني، مراكز الإيواء الاستعجالي. كما دعمت ضحايا التشرد والإدمان والدعارة، واعتبرت معاناتهم جزءاً من معاناتها الخاصة. وعلى أية حال، كان هذا هو العمل الوحيد الذي تحسن القيام به في حياتها: إغاثة كلّ غريق. لكن أليس هذا أنبل ما يمكن القيام به؟

إلى أين؟

في قرارة نفسها، كانت تؤمن دائماً بأنها لا بدّ أن ترزق يوماً ما بمولود من إيثان، وبأنّ الأمومة ستمكّنها من تحويل نار الشهوة إلى

دفء المحبّة. وهي تدرك الآن بأن ذلك لن يحصل أبداً، ومع ذلك تظلّ راغبة عن أيّ مولود من رجل آخر.

الهروب، لكن إلى أين؟

في بهو الفندق، جلست قبالة أحد الأجهزة المعلوماتية الموضوعة للخدمات الحرّة للنزلاء لربط التواصل مع موقعها البنكي. ببضع نقرات على لوحة التحكم، اطّلعت على رصيدها المالي بكشف حسابها الجاري.

تزامن خروجها إلى الشارع 44 مع عاصفة قويّة هوجاء كانت تكنس كلّ ما تجده في طريقها بالمدينة، وترجّ الأَسْقُف، مُغرقة في سيولها المجاري ومحطات المترو المقفرة. اقترح عليها البوّاب أن يطلب لها إحدى السيارات التي استأجرها الفندق تحسّباً لإضراب سائقي التاكسيات الصفراء. كانت على وشك أن تقبل الاقتراح لولا أن توقّف فجأة سائق تاكسي على بعد أمتار منها. تردّدت لحظة إذ تنبّهت للإشارات الضوئية الثلاث مشتعلة فوق سقف السيارة الصفراء العتيقة دلالة على كونها خارج الخدمة.

- هل أحملك آنستي؟ بادرها السائق وهو يخفض مستوى زجاج النافذة.

بدا لها زنجياً فارع القد، بجمجمة حليقة، ووجه بملامح مُطمْئنَة. جلست في المقعد الخلفي، وشدّت ناظريها، بمزيج من الحيرة والفضول، رسومُ الأطفال وأوراقُ «تاروت مارسيليا»، التي تملأ مقصورة السيارة، بينما ينبعث من المذياع الصوت الأجش لتوم وايتس وهو يردّد مقطعاً حزيناً من أغنية **قلب ليلة السبت**، مشيعاً جوّاً من الحنين والطمأنينة.

- مطار كينيدي. أشارت له وهي تضغط بجبهتها على زجاج النافذة البارد المغمور بزخات المطر المتهاطل على ليل المدينة.

*

مطار كينيدي
الساعة 3 و42 دقيقة

أدّت سيلين للسائق أجرته مع بقشيش إضافي، ثم دلفت إلى محطة المغادرة.

ظلّت لدقائق تطوف أرجاء بهو المطار مأخوذة بالرحابة والفراغ. على الآيبود، تردّدت صيحات المغنية بيورك، وصرخات الذئاب لفرقة راديوهيد، قبل أن تنطلق فجأة تلك الأغنية القديمة لجيلبير بيكو وكأنه يحدِّثها عن نفسها:

ماذا عسايَ أفعلُ الآن
وكل شيء بيننا قد انتهى
بعد أن تركت لي الأرضَ كلها
والأرضُ بغيبتك ما أضيقها.

تطلعت بعينيها إلى برنامج الرحلات على اللوحة الإلكترونية.

روما، لوس أنجلوس، أوتاوا، ميامي، دبي.

ترى إلى أيّ مكان يتحتم عليك شدّ الرحال للتشافي من الغياب؟

جوهنسبورغ، مورنترياال، سيدني، برازيليا، بيكين.

إلى أيّ وجهة عليك الهروب للتخلص من آلامك، من ظلك، ومن حياتك؟

في وكالة الخطوط الجوية الأميركية حجزت تذكرة سفر عادية باتجاه هونغ كونغ.

الطائرة ستقلع بعد ساعتين.

*

مانهاتن

فندق سوفيتل - الغرفة 2904

الساعة 3 و51 دقيقة

احمرّت عينا سيباستيان من فرط البكاء على رحيل سيلين، وهو يُمْعِنُ في المرآة العريضة بمقصورة الحمّام وقد كتب عليها بخط عريض بأحمر الشفاه.

عذراً

كان لهذا الرحيل وقعه المدمر على نفسيته، رغم أنه لم يتفاجأ به على الإطلاق.

قبل قليل، كان قد فطن بسيلين وهي تعدّ العدّة للرحيل، وواصل تظاهره بالنوم، إذ ظلّ واجماً متجمّداً في سريره، عاجزاً عن أية ردة فعل.

وشرَعَ يتساءل عمّا يمكنه أن يفعله الآن؟ كيف سيفسّر الأمر للعائلة وزملاء فريق الروكبي وزبناء المطعم؟

وبالتفكير المليّ في هذه القطيعة، تبدّى له أن لها جذوراً عميقة، وإن ارتأى تجاهلها منذ البداية. وعاد من جديد يفكر في كلّ الأنشطة التي كانت تنخرط سيلين فيها موازاة مع مهنتها: المطاعم الخيرية، العمل التطوعي في مراكز الطوارئ أو المستشفيات. لم يكن يفهم هذا الشكل من الاستثمار، ولا هذا الهوس الذي يحملها

دائماً على تسويد أوراق مذكرات بأكملها برؤوس أقلام وأفكار وانطباعات سرعان ما تلجأ للتشطيب عليها. ثم هذا المولود الذي لم يتوفّقا معاً في إنجابه، رغم التردّد على عيادات الأطباء والخضوع للفحوصات التي أكّدت كلها غيابَ العِلة البيولوجية وراء هذا الإخفاق. وفي كلّ المرات التي فاجأها في قلب الليل مسمرة أمام النافذة ساهمة بعيداً عنه بآلاف الكيلومترات، كان يتساءل عمّا أو عمّن يستأثر بتفكيرها تلك اللحظات. وفي تلك العشية، بحلول ذاك الشخص الغريب قبل بداية الحفل بدقائق، توجّس منه تهديداً حقيقياً، لأنه رأى في عينيه وهو يقابلها مسحة من الألم نفسه الذي طالما تبَدّى له بعينيها. وكان من البديهي، والحالة هاته، أن يسري بينهما تيّارٌ موصل، تيارٌ بارتداد قوي مثل صعقة كهربائية كافية، كآلة منشار، لسحق القلب عوض إنعاشه بخفق الحب. هكذا لم يجد بُدّاً من مداراة الموقف خشية تعريض نفسه للإهانة في أثناء مراسيم الحفل في حضرة المدعوين، مؤثِراً تأجيل تلقيها على هذا النحو في غرفة النوم بعيداً عن أعين الآخرين.

وفي الأشهر الأخيرة، تساءل غير ما مرّة حول ما إذا كانت سيلين مريضة، وتحدّث في الموضوع لطبيب صديق وجد في تشخيص حالتها أعراض الاكتئاب.

والواقع أنها كانت تعاني مرضاً أفظع من ذلك.

إنه مرض الحب.

*

مطار كينيدي

الساعة 4 و7 دقائق

في انتظار أن يحين وقت الرحلة، اقتنت من مكتبة في جهة

العبور جريدة **هيرالد تريبيون**، روايةً لهاروكي موراكامي، ونسخة من العدد الأخير من مجلة **باري ماتش** وعلى غلافها صورة لسيسيليا سيدة الإليزيه الجديدة.

وعلى واجهة الكتب الأكثر مبيعاً، في الجناح المخصّص لموضوع التنمية الذاتية، كان أحد المستخدمين منهمكاً في إعادة تنظيم الأعمال المعروضة، حيث قام بجمع نسخ الكتاب الأخير لإيثان ويتاكر في صناديق كارتونية وتفكيك اللوحة الإشهارية الكبيرة الحاملة لصورة هذا المعالج النفساني الشهير.

وعلى شاشة البلازما المثبتة أعلى الصناديق تصادف بثّ الموجز الإخباري مصحوباً بصور صادمة لرجل جاثٍ على ركبتيه بجوار جثة مضرّجة بالدماء، ومعها صوت مقدّمة أنباء ما بعد منتصف الليل تعرض تفسيراتٍ للحادث:

أقدمت فتاة مراهقة في الرابعة عشرة من عمرها هذا اليوم على وضع حدّ لحياتها في أثناء وجودها بعيادة المعالج النفساني الشهير إيثان ويتاكر، الذي ظهر في النيويورك تايمز هذا الصباح بوصفه المعالج النفساني الذي فتن أميركا، وهو الحادث الذي يضر اليوم بسمعته المهنية و...

وعند سماع اسم إيثان، رفعت سيلين عينيها إلى الشاشة في الوقت الذي توقفت مقدمة الأخبار عن مواصلة جملتها برهة، وضغطت بإصبعها مجسّة أذنها لاستيعاب ما يتناهى إلى سمعها. وفي الصورة: الظلام، موقف السيارات، الأضواء الوامضة لسيارات الإسعاف والشرطة، الشريط الأصفر المضروب حول مسرح الجريمة.

وبحسب آخر ما أفادنا به مراسلنا، فقد تمّ العثور قبل لحظات على جثة إيثان ويتاكر مرميّة في مرآب مشفى سانت جود، حيث كان يتلقى العلاج ساعات قبل مقتله. هل يتعلق الحادث بفعل انتقام، بتصفية حسابات أم بدافع إجرامي؟ هذا ما سوف تكشف عنه تحقيقات الشرطة في الأيام القليلة المقبلة. وفي انتظار ذلك. . .

- سيدتي؟

هَبّ البائع من مقعده فجأة حائراً لا يعرف ماذا يفعل بإزاء هذه الزبونة التي سقطت مغشياً عليها وسط متجره.

- سيدتي؟ ألستِ بخير؟ سيدتي؟

*

مشفى سانت جود

الساعة 4 و20 دقيقة

ركن كورتيس نفيل سيارته بمرآب المشفى، وأمارات الإرهاق بادية عليه. قصد مطعم إلفيس داينر، المهيّأ على شاكلة قاطرة حديدية أمام مدخل مركز الطوارئ، حيث تعوّد في الغالب أن يقصده في أثناء عمله الليلي من أجل تناول وجبة سريعة. في مثل هذه الساعة، يتردّد عادة على المكان بشكل أساسي العاملون في المداومة الليلية بالمشفى. اقترب كورتيس من الموظف لطلب همبرغر مع البطاطس المقلية وشرائح من اللحم المقلي.

كان الدكتور شينو ميتسوكي، بقلب القاعة، مستقيماً في جلسته على الكرسي أمام صحن من السلاطة وزبدية من الحساء.

كان هادئ الأعصاب.

- هل هذا المقعد فارغ؟

رفع ذو الملامح الآسيوية عينيه، متطلعاً إلى الزنجي العملاق ذي المنكبين العريضين، ليدعوه للجلوس بإشارة من رأسه.

وضع كورتيس صحنه أمامه وجلس على المقعد المكسو بفرو مخملي. لاحظ ميتسوكي عينه اليسرى المنحسرة والحروف L.O.V.E. و F.A.T.E. الموشومة على سلاميات أصابعه.

نظر كلاهما بعضهما إلى بعض في ثانية خاطفة.

ها قد التقى، هذا المساء، القدر والكارما معاً حول مائدة العشاء.

*

الساعة 4 و30 دقيقة

سربٌ من النوارس يحلق ويصيح في هذا الليل الجنائزي الكئيب.

قبالة جزيرة روزفلت، تنتصب على مداها عمارة قديمة: معهد الطب الشرعي بنيويورك.

أسفل العمارة توجد أقبية فسيحة.

في أحد هذه الأقبية، قاعة عارية بجدران من الزجاج المحجَّر. قاعة باردة، مغمورة بضوء خافت. قاعة توحي بوحشة المشفى والخوف والموت. قاعة في أقصى درجات العزلة والقلق الإنساني.

في هذه القاعة، حمّالتان فولاذيتان موضوعتان جنباً إلى جنب.

على الحمّالة الأولى تتمدّد جثة مشوّهة بثقوب الرصاص لرجل لم يتوفق أبداً في خيارات حياته، ومع ذلك يبقى جديراً بمعرفة أسباب مقتله.

وعلى الحمّالة الثانية جثمان مراهقة وقد تشظى جانب من

جمجمتها. وجهها شاحب، عليه مسحة من ازرقاق، بقسمات مشوّهة بفعل موت فظيع.

كانت تطلب المساعدة، لكن نداءها ظلّ بلا استجابة.

لقد تصادفا معاً هذا اليوم، وإن لم يتأتّ لهما أن اجتمعا من قبل.

تبدو أعينهم الكابية في حالة تأمل لعالم آخر.

عالم مجهول باعث على الخوف.

إلى حيث سنرحل جميعاً.

الجزء الثاني

مواجهة

12

اليوم الموالي...

الحياة مفاجأة كبرى. فَلِمَ لا تكون الموتُ مفاجأة أكبر؟

فلاديمير نابوكوف

مانهاتن
اليوم
الساعة 7 و59 دقيقة و58 ثانية
الساعة 7 و59 دقيقة و59 ثانية
الساعة 8 تماماً

فزة ذعر.

مَدّ إيثان يده بعينين مغمضتين يلتمس لبضع ثوانٍ سبيلاً لإيقاف رنين المنبه المتواصل.

بارتعاب، وهو يلهث محموماً، انتصب من سريره فجأة وأجال بصره من حوله. كان الهدوء يخيم على اليخت بينما شريط من شعاع ذهبي يتسلل متأرجحاً عبر نوافذه. أدرك أنه في بيته على ظهر مركبه!

من الاستحالة أن يبقى على قيد الحياة بثلاث رصاصات في جسده وارتطام بالأرض من على علوّ ثلاثين متراً! لقد كان في عداد الموتى!

راجع التاريخ المثبت على ساعته: السبت 31 أكتوبر.

التفت فألفاها ملفوفة في الحشايا شابة شقراء لا تزال ممدّدة على السرير بجانبه، بالبشرة البيضاء كالثلج نفسها، والخصلة البراقة نفسها، والنمشات المخطوطة على وجهها نفسها.

قفز من السرير مذعوراً، صعد السلم المؤدي إلى المعبر الأعلى.

الشمس، رياح المحيط، صراخ النوارس، طلائع نفحات الخريف، الأبراج العملاقة من الزجاج والغرانيت، حديقة الشتاء، المنتزه المشجّر حيث يمارس العداءون هوايتهم، البحر، المدينة، الجلبة.

الحياة!

خفق قلبه بشدة. وفي ثوانٍ، أحسّ بنشوة السعادة وتبدّد إحساسه بالرعب. مجرّد حلم. لم يكن إلّا حلماً. كل هذا لم يحدث إلّا في رأسه، ولم يكن إلّا من إخراج ذهنه؛ مجرد هذيان لرجل محبط للغاية أدمن مؤخراً على الكحول والكوكايين والمهدّئات دفعة واحدة.

تبّاً له من كابوس!

بقميص صيفيّ مبلّل بالعرق، وحنجرة متيبّسة وأجفان مسدلة، ارتمى على كرسي من الخشب، برعشة متغلغلة في أطرافه، ودموع منسابة على خديه. هنا الآن، في مهب الريح يستشعر أجمل إحساس بالعالم، الإحساس بالبقاء على قيد الحياة بعد كلّ هذه المحنة؛ وقد أتاح له هذا الوهم العذر أن يعيش سفراً شفافاً موجِعاً لأعماق ذاته، وأن يستعيد وعيه الذي حرّره من الكذب والخوف ومظاهر الزيف التي طالما استعبدت وجوده. ومن جديد عاد للحياة طعمُها،

وقداستها وغناها الثرّ، وما عاد من داعٍ لتبديدها دون أن يصنع منها شيئاً جديراً بالتقدير.

نزل السلم مرة أخرى لليخت لأخذ دوش سريع، وذهنه منشغل بهذه الأفكار. على هذا النحو، اختلق كلّ شيء: زفاف سيلين، انتحار المراهقة، مصادفته لشخوص رمزية -كالقدر والكارما- وحتى مشهد اغتياله. لكن ماذا يعني هذا؟ لقد قرأ فرويد، ومن خلاله يعرف أن الأحلام، وهي تتيح التنفيس عن الرغبات المكبوتة، تشكّل صَمّام أمان للتوازن النفسي. ومع ذلك، فإنّ الكابوس الذي عاناه كان أكبر من مجرد كوة مفتوحة على لاوعيه. لكن كيف يمكن لمجرد حلم أن يكون بكلّ هذه الواقعية والاكتمال والبناء، ويكون له هذا المفعول التطهيري للنفس الذي يتطلب سنوات عديدة من العلاج النفسي؟

بعودته إلى الغرفة، اقشعر بدنه لرؤية المرأة الشابة في سريره. تُرى ما الذي تفعله هنا لو لم تكن في الحقيقة إلّا حلماً؟ وبعد أن أمعن في التساؤل مراراً، انتهى إلى افتراض أنه صحبها معه ليلة أمس، وأن الكابوس الذي عاناه ما كان إلّا استحضاراً لذكرى ملتبسة لما عاشه ليلة الجمعة.

ارتدى لباسه بشكل آلي وهو في حيرة من أمره بين الشك واليقين. هذه المرة لن يرتدي بذلة فاخرة كما العادة، بل سيكتفي بسروال جينز بسيط، وقميص أسود مشدودٍ حتى الرقبة وسترة جلدية قديمة. وكما في حلمه، انتابه التردّد مرة أخرى في التصرف مع الفتاة الغريبة. هل كان عليه إيقاظها؟ كان تواقاً لسماعها وهو مرتاب في الوقت نفسه ممّا ستقوله، لأن ما لم يتغير في حيثيات الحلم والواقع هو شبه الغياب التام من ذاكرته لصور معايشاته لليلة أمس. لكن ما

الذي حصل مساء أمس كي لا يبقى بذاكرته أيّ أثر؟ وخوفاً من اكتشاف الأسوأ، فضّل من جديد عدم إيقاظها واكتفى بتناول محفظة أوراقه وإخراج المبلغ نفسه من الألفي دولار ليتركه لها على الطاولة، قبل أن يغادر اليخت على وجه السرعة.

*

- صباح الخير سيد ويتاكر. حيّاه حارس المرفأ عند مدخل المرأب الصغير.

- صباح الخير، فيليب.

- ماذا حدث لسيارتك؟ إنها في حالة سيئة.

- **سيارتي؟**

مرة أخرى، يدرك الواقع رؤاه الواهمة: سيارة المازيراتي مضغوطة ومخدوشة في المواقع نفسها التي تبدّت له في حلمه. ضبط إيثان المشهد بدقّة. هل يحمل كابوسه بعض العلامات المنذرة؟ لا، لم يسبق له أن آمن بهذا النوع من الأفكار. يتعلق الأمر هنا أيضاً باستحضار واقعة غامضة لحادث مروري حصل بالأمس، لا شيء أكثر. دخل السيارة، أدار مفتاح المحرك وتوجّه نحو مخرج المرأب.

انبعثت أنغام قيثارة جيمي هاندريكس ترجّ مذياع السيارة. أوقف إيثان القرص المدمج وأدار زرّ المؤشر إلى أن عثر على المحطة الإذاعية التي يبحث عنها:

الآلاف من سائقي سيارات الأجرة أضربوا عن العمل هذا الصباح في مانهاتن لثمانٍ وأربعين ساعة احتجاجاً على المشروع البلدي.

كان أمراً مربكاً حقاً؛ هذا الانطباع بتكرار المعايشة بتقنية

«الإعادة» كحال قرص مشروخ. من جهة أخرى، يتحدث الجميع منذ أيام عن هذا الإضراب، ممّا يجعل من وروده في أحلامه أمراً طبيعياً.

غادر المركز التجاري ليلج شارع برودواي ويتوقف بمحاذاة السيارات المركونة على الرصيف في ساحة تايمز سكوير. صادف عبور المجموعة نفسها من الطلبة اليابانيين وهم يصيحون في حالة انتشاء «ياتا» في وسط الشارع، والعمال نفسهم وهم يثبتون لوحة الزجاج على واجهة محلات فيرجن.

وضع بعض القطع النقدية في محصّلة آلة توزيع الصحف وسحب نسخة مطوية من **نيويورك تايمز** التي كانت صورته بارزة على صفحتها الأولى:

المعالج النفساني الذي فتن أميركا

تُرى لماذا لم يندهش من المفاجأة؟ قرأ الأسطر الأولى ليكتشف، بنوع من الانسياق، أنها هي نفسها كما طالعته في حلمه. حلم لم يكن في ظاهره حلماً واحداً، حيث كثيرٌ من الوقائع المستعادة والاسترجاعات التي تجعل منه أكثر من مجرد مصادفة.

فجأة أحسّ بألم غير معتاد -أشبه بتشنج عضلي- في يده اليمنى، سرعان ما تملّكته رجفة رعب وهو يتفحّص يده: لاحظ على السلاميتين الأوليين لكلّ من السبابة والوسطى ندوباً ظاهرة مع استشعار نوع من التصلّب فيهما. وهذا لم يترك له أدنى شكّ في خضوع يده لعملية إعادة زرع إصبعيه المبتورين، لكن متى حصل ذلك؟ ومِن قِبَلِ مَن؟ يبدو من اندمال الجرح أن ذلك وقع مؤخراً في الأسابيع القليلة الماضية. وبسبق إحساس مرعب، فتح سترته وهزّ

قميصه ليجد على مستوى صدره، في الموقع المحدد حيث أصابته الرصاصة الأولى رتقاً متورماً كأثر لجرح من جرّاء عملية جراحية حديثة العهد. كيف أمكن حدوث ذلك؟ وهو في غاية الارتباك، عاد مرة أخرى للتأكد من تاريخ اليوم، كانت الصحيفة هذه المرة مرجعه: السبت 31 أكتوبر 2007.

في غاية الذهول، عاد إلى سيارته، وظلّ للحظة في حالة انهيار، ممسكاً رأسه بين يديه، متسائلاً عمّا يقع له. منذ يقظته هذا الصباح وهو يحاول أن يطمئن لذاته ويقنع نفسه بأنّ كلّ ما عاناه كان محض هذيان في أثناء كابوس داهمه في الليل.

لكن الحقيقة التي كانت في طور التشكّل هي أكثر إثارة ورعباً.

وماذا لو كان بكلّ بساطة بصدد إعادة المعايشة في يقظته لما رآه في حلمه؟

13

الحياة بسرعة

كَرُمْحٍ مُرْتَدٍّ لصاحبه
يعود الحبّ إليَّ من أياميَ الخوالي
ومن شدة عشقنا
مجنونين كنا لا نبالي.

سيرج غانسبورغ

اليوم
السبت 31 أكتوبر 2007
الساعة 8 و40 دقيقة

وجّه إيثان مقود السيارة نحو الجنوب. والآن، لم يعُد باستطاعته استحضار ما حصل: لعلّ شيئاً ما أربك النسق العقلاني للعالم، وجعله في وضعية خارج ما هو شائع، ويبقى هو الوحيد على أتَمّ الوعي بها. رغماً عنه اجتاز حدّاً رمى به في واقع خارق. هل هي مسألة حظّ أم هي على العكس من ذلك معركة خاسرة مسبقاً؟

تذكر باستخفاف ذاك الشريط المصوّر مع بيل موراي، الذي اعتمده قبل عدة سنوات في حصة علاجية: قصة مقدّم فقرة الأرصاد الجوية المكتئب، حبيس حلقة زمنية محكوم فيها دائماً بأن يعيش إلى

الأبد رتابة اليوم نفسه. كان يحاول استعادة التفاصيل حين اهتزّ بجيبه هاتفه البلاك بيري. لقد كانت المنتجة بقناة «إن بي سي» قلقة من تأخّره عن الموعد. تعلَّل لها بالمرض واعتذر لها عن حضور البرنامج. حاولت عبثاً حمله على تغيير رأيه، لكنه سرعان ما أقفل الخطّ قاطعاً في وجهها كلّ سبيل لإقناعه. لقد برمج من الآن أولويات أخرى.

*

تسارع خفقانُ قلبه، وبدل أن يفهم ما يحصل له، وطدَ عزمه على ألّا يبقى مُنقاداً على هذا النحو؛ لأنه، بالتفكير ملياً في الموضوع، خلص إلى أنه لو عاود معايشة وقائع هذا اليوم، سينتهي به المطاف حتماً إلى الموت، ولا شيء غير الموت. أكيد أن هناك شخصاً ما في هذه المدينة يتربّص به للإجهاز عليه، وعليه أن يجد فرصة للنجاة هذه المرة فقط: إنه يعلم ما قد يحدث له، وليس له أيّ استعداد للإصابة مرة أخرى بثلاث رصاصات قاتلة. لكن للإفلات من هذا القدر المشؤوم، عليه قبل كلّ شيء كشف هوية قاتله. هل له أعداء؟ حاول القيام بإعداد ذهني للائحة الأشخاص الذين يفترض فيهم النية في إيذائه.

بدأ بالبحث في اللائحة النسوية: فرغم حداثة عهده بالشهرة في الأعوام الأخيرة، ضاعف مغامراته العاطفية، مع حرصه على دخول اللعبة بكلّ وضوح من البداية، حيث لم يكن يصاحب إلّا النساء العازفات عن الزواج، الباحثات مثله عن قضاء أوقات ممتعة فقط: المطاعم الفاخرة، علب الليل الصاخبة، اللعب مع الكبار، نهايات الأسبوع في جزيرة لونغ أيلند.

في اليوم الموالي، قد يتصلن أو لا يتصلن، يحجزن تذكرة

طائرة إلى ميلانو أو لندن، يغِبْن لأسابيع، بل أحياناً لعدة أشهر. هذه العلاقات تتفسخ عموماً من تلقاء ذاتها دونما فظاظة أو جفاء، ولهذا لم يخرج من التنقيب في ذكرياته الأخيرة بأية علاقة عابرة من هذا النوع يمكن أن تنتهي إلى فكرة قتل.

هكذا انتقل للبحث في مسار آخر: مسار «زملائه» المفترضين. هو على يقين بأنه حين أقبل كالعاصفة ليدخل عالم التنمية الذاتية، لم ينظر إليه الكُتاب والمحاضرون المنتمون إلى المجال نفسه بعين الرضا كان يشتغل أكثر من اللازم ليظفر بأكبر الحصص الممكنة من سوق التداول ومن مساحة البث الإعلامي. كان أكثر شباباً وعنفواناً، وأشدّ عناداً ومشاكسة، بكتبه التي تصنّف الأفضل وندواته التي تستأثر بالأهمية الأكبر. ومنذ وقت طويل، لم يتوقف أحد خصومه من المنافسين عن محاولة المسّ بسمعته باستعمال كلمات نابية في حقه بحضور رجال الصحافة، وتوجيه النقد إليه مع كلّ ظهور له في التلفزة، والاستعانة بعلاقاته في قطاع الإعلام للحيلولة دون استضافته في بعض البرامج المهمة. لكن هذه الحملة لم تستمرّ إلّا لبعض الوقت حيث سرعان ما توقفت وتبخّر مفعولها في الأوساط المهتمة. وعلى كلّ حال فهذا الشخص قد يكون نذلاً، لكنه بكلّ تأكيد ليس مجرماً

من هنا كان لزاماً عليه البحث في إمكانية أخرى: أجواء لعبة البوكر، وإن كان لا يصدق إطلاقاً أن تكون لها صلة بالموضوع. لقد كان يربح، بشكل متواصل، مَبالغ مهمة، وتسبَّب لبعض منافسيه من اللاعبين في خسارات بقيمة عشرات الآلاف من الدولارات، ولكنهم في نهاية الأمر هم أناس على الحظ نفسه من ثرائه، وبالتالي يقبلون دائماً بأن يخوضوا معه حصصاً مضبوطة من اللعبة بكلّ نزاهة ورحابة

صدر. فيما يخصّ ديونه المترتبة عن خساراته، فقد اعتاد دائماً تسويتها كاملة، إلى أن وقع له ما وقع مؤخراً مع أفراد من حلقة جياردينو. لقد ركبوا المغامرة حقاً في مجال خطير، ويمكن لهم بحكم ذلك أن يحاولوا ترهيبه كأن يَسِمُوا بعلامة ظاهرة يده الأليمة، لكن من المستبعد أن تكون لهم أدنى مصلحة في تصفيته إن كانت تحذوهم الرغبة في استرجاع ما لهم بذمته.

على هذا الأساس، لم يتبقَّ إلّا مسار واحد قابلٍ للتصديق حقاً: أحد مرضاه القدامى الذي يمكن أن يكون بصدد البحث عن الانتقام منه، وهو ما لم يكن من الاستحالة بمكان. حينما يكون عملك هو بالضبط معالجة أناس ليسوا على ما يرام نفسياً وذهنياً، يجب ألّا تنزعج من تلقي رسائل تهديد تنطوي على اتهامك بالوقوف وراء تدمير حياتهم. وإيثان تلقى مراراً هذا النوع من الرسائل، وكان يتلقى أغلبها مباشرة بعد كلّ ظهور له في التلفاز، لكنها إلى حدّ الآن ظلّت مجرد تهديدات مع وقف التنفيذ، ولم تكن مبرَّرة على الإطلاق. صحيح أن كتبه وندواته وخدماته المتنوعة محكومة بمنطق الصفقات، لكن الاستشارات الطبية كانت خاضعة لقانون مغاير. فهو لم يكن يحبّذ الإتجار في معاناة الناس، وكان حريصاً دائماً على أداء واجبه المهني على أفضل وجه ممكن.

وجد هذا المسار جديراً بتعميق البحث فيه، لكن ذلك يتطلب تناول العديد من الملفات المركونة في خزانته وتوفير الوقت اللازم لدراستها، وهو ما لا تسمح به كثرة انشغالاته وارتباطاته.

خفض إيثان سرعة السيارة، وأخذ في مساره اتجاه ضاحية الحي اللاتيني وول ستريت.

سيتصرف إذاً بشكل آخر. فمن بين كلّ الأشخاص الذين

صادفهم أول الصباح اثنان يبدوان على معرفة بأشياء يجهلها عن نفسه. اثنان لم يتفاجآ في الظاهر برؤيته: كورتيس نفيل وشينو ميتسوكي. وإذا لم يكن يعرف مكان وجود سائق التاكسي، فإنه يعرف عنوان المستشفى الذي يعمل به الجراح غريب الأطوار بملامحه الآسيوية.

استخدم الضوء الوامض لسيارته وأخذ الطريق الموصل للمرأب تحت الأرضي لمشفى سانت جود.

*

فندق سوفتيل، الشارع 44
الساعة 8 و45 دقيقة

أغلقت سيلين باب الغرفة بهدوء، كان من المنتظر، لولا تعكّر مزاجها، أن تستمتع فيما بعد بأوقات رائقة. منذ أربع ساعات وهي تتقلب في فراشها دون أن يغمض لها جفن. وممّا يزيد في انزعاجها عقد قرانها بعد ساعات. أقرب إلى الممسوسة، بدأت تتسكّع في الممرات الأشبه بمتاهة جيئة وذهاباً ثم سرعان ما توقفت بانتظار المصعد.

- مرحباً. كيف حالكِ اليوم؟ سألها سيد أنيق منفرج الأسارير يحمل لوازم الغولف عليها علامات نخبة من الأندية.

ردَّت عليه بابتسامة مصطنعة كأقصى ما يمكن أن تفعله هذا الصباح.

- أنت نازلة للأسفل، أليس كذلك؟ سألها وهو يضغط على زر الطابق الأرضي.

أذعنت للأمر وهي تتساءل لأي مكان من مانهاتن سيذهب هذا

الرجل لقذف كراته. ربما تمّ إنشاء ملعب للغولف بمنتزه سنترال بارك؟ وكيفما كان الأمر، لا شيء في هذه المدينة يعدّ مستحيلاً

على مرآة المصعد، بدت لها صورتها في أسوأ حال، بوجه متعب وعينين متهدجتين. بلمسة عدلت تسريحة شعرها، وسَوّت ياقة قميصها، محاولة مبادلة صورتها المنعكسة بابتسامة: لا بأس، من المفروض أن يكون هذا اليوم أزهى أيام عمرها، وإن كانت تستبد بها رغبة في البكاء.

انفتح باب المصعد على بهو فسيح بأرضية رخامية وحيطان من الخشب. أرائك من الجلد والقماش حول موقد ينبعث من ألسنة لهيبه نور خافت يداعب محتويات المكان. مرت سيلين بمكتب الاستقبال ودلفت مباشرة إلى مطعم الفندق لتناول الفطور.

قاعة جميلة، حميمية وأنيقة تحمل اسم غابي، وهو اسم عارضة أزياء باريسية لمعت بشكل لافت في نيويورك في العشرينيات من القرن الماضي، تسودها أجواء بطابعها الفرنسي المميز وصور أشهر رواد حركة الـ«آر ديكو» في سنوات الجنون: كوكو شانيل، إيغور سترافينسكي، جان كوكتو.

اختارت المرأة الشابة مكانها للجلوس بقلب القاعة. فهي في حاجة إلى أن تكون وحيدة من أجل أن تفكر بهدوء. أسرع النادل لتلبية طلبها بوضع الشاي ووعاء من الفطائر مع جريدة الصباح.

إن قرار الزواج في نيويورك مثل اللعب بالنار. هذا ما أدركته الآن. فكلما حلت بهذه المدينة، تقاطرت عليها ذكرياتها الموجعة مع إيثان كوابلٍ من السياط الموجعة. اعتقدت لفترة أنها تماثلت للشفاء من هذا الحب، غير أن حالتها لا تشي بذلك. **مع الزمن يمضي، كل شيء يمضي**، كما تقول الأغنية. وهي مع ذلك لم تنسَ

وجهه، ولم تنسَ صوته. وخلال السنوات الخمس الأخيرة، تابعت مساره المتصاعد. وبفضل شبكة الإنترنت، طلبت كتبه الأولى وشاهدت حلقات من البرامج التي استضافته، واستنتجت ألّا علاقة بين صورة الشخصية العامة التي صار عليها وصورة الفتى العاشق التي كان عليها؛ ولامست خلف الواجهة المشبعة بالجاه الاجتماعي ذلك الكائن المحبط الذي أخطأ سبيل السعادة. ودَّت لو تستطيع أحياناً أن تصدِّق أنه لا يزال يفكر فيها. بعد القطيعة بينهما، مرت بكلّ الحالات والمراحل: الأمل، الغيظ، الكراهية، اللامبالاة، النسيان، جذوة الحب. في الواقع، لم تستطع أن تتخلص من وهمها الهذياني الذي يجعلها تعتقد بأن إيثان لا يزال يكنّ لها مشاعر الحب كما كان في سالف عهدهما، وإن كانت على وعي بأنّ اعتقادها يكتسي أعراضاً مرضية، أقرب إلى جنون الغرام. إنها حالة فوق طاقتها، حالة ألم حملته بأعماق قلبها دون أن تكون على يقين برغبتها في التشافي منه. ورغم ذلك، فمع سيباستيان، وأصدقائه وزملائه استعادت التوازن الذي كانت في حاجة إليه، وبنت لنفسها حياة في أجواء من الثقة والأمان، لمست فيها أهمية حضورها وجدوى وجودها، وأحسّت فيها بأنه لا يزال أمامها متَّسع لتحقيق الكثير. حين تقدَّم سيباستيان لطلب يدها، لمست في نفسها القدرة على قلب الصفحة نهائياً؛ غير أنها كلّما اقترب موعد الزفاف استبدّت بها الشكوك وارتابت في صحة قرارها ووجاهته.

سحبت من حقيبة يدها ظرفاً ملفوفاً بشريط: دعوة لإيثان لحضور حفل زفافها، لا تزال تتردّد في إرسالها إليه.

في ماذا سيفيدك هذا؟ في مزيد من التنازلات أمامه؟ في خذلان من يحبونك؟ أية مجازفة أنت مقدمة عليها يا صغيرتي؟

تذكرت سيدة الجوار هذا الفيلم المؤثر لتروفو حيث دوبارديو وفاني أردان في علاقة حب فوضوية خارج الأعراف، علاقة حب مدمّرة انتهت بمأساة: إطلاق رصاصتين لوضع حدّ لحياتهما معاً. هذا ما تؤدي إليه الإثارة وجموح العاطفة والشهوة المتّقدة على الدوام.

في غمرة تردّدها اكتفت بأن وضعت الظرف على المائدة.

كان من عادتها في لحظات الارتياب أن تحتكم أكثر إلى الحدس منه إلى العقل. وفي فوضى الحياة، كانت تميل إلى العمل بهذه الفكرة القائلة بأن الحياة أحياناً تكون رحيمة بنا وتكشف لنا عن مؤشرات لتوجيهنا الوجهة الصحيحة. بالنسبة إلى البعض مثل هذه الأفكار لا تصدر إلّا عن «امرأة مسنّة» شاخت مع السنين. ربما، لكن العالم صار أكثر عقلانية وتحكماً بحيث لم يعُد يجد صعوبة في محاولة معاودة الإعجاب بمثل هذه القناعات.

رشفت جرعة من الشاي ومدَّت بصرها عبر الزجاج تنظر إلى المارّة بخطاهم المتوثّبة على الرصيف الخريفي لنيويورك. ثم أطرقت رأسها تتصفح الجريدة التي وضعها أمامها النادل قبل أن تطويها بطريقة آلية، لتطالعها على الصفحة الأولى صورة رجل أمام جسر بروكلين مع عنوان لافت:

المعالج النفساني الذي فتن أميركا

*

مشفى سانت جود

الساعة 9 ودقيقة

قاد المصعد إيثان من المرأب تحت الأرضي إلى مدخل المشفى، وهو عبارة عن مركز فحوص فائق الحداثة فتح أبوابه قبل

بضعة أشهر وسط تجاذب سياسي حول كلفة تمويله. تعرف إيثان بسرعة على الموقع الذي سقط فيه مغمياً عليه ذلك السبت 31 أكتوبر، بثيابه الملطخة بالدماء، ووجهه المليء بالكدمات ويده اليمنى مبتورة الأصبعين.

توجّه بخطى متردّدة نحو مكتب الاستقبال.

من أدراني ألّا يكون لهذا الطبيب وجود إلّا في ذهني المشوّش!

- أية خدمة سيدي؟ سألته المستخدمة الفارعة السمراء بتسريحة شعرها على «موضة اللبوءة» التي ظهرت في الثمانينيات.

- أبحث عن الدكتور ميتسوكي. ردّ عليها.

- ما اسمك من فضلك؟ سألته وهي تحاول أن تحدس قصده من الزيارة.

وقبل أن يردّ عليها إيثان، أسرعت بلا تحفظ في التحديد أكثر:

- أنت السيد شينويذ، أليس كذلك؟ جئت من أجل الحواسيب.

- إيبيه. أجل، أكّد لها إيثان. أعتقد أنني جئت قبل الموعد المحدّد.

- الدكتور بانتظارك بمكتبه سيدي، في الطابق السابع، القاعة 707.

بابتسامة أشارت له بالانصراف بعد أن فتحت في وجهه، بتقنية التحكّم عن بُعد، مصراعي الحاجز عند مدخل الطوابق.

أحياناً، لحسن الحظ، تكون بعض الأمور أكثر يُسراً ممّا نتوقع.

*

فندق سوفتيل
الساعة 9 و5 دقائق

خرج سيباستيان من الحمام والتفّ في فوطة شدّها حول جسده وهو يترنم:

زورا الصهباء
سريرك من عشب
وأنت تنامين في العراء

إنه يوم مشهود! بعد ساعات سيعقد قرانه. ارتدى سروالاً من قماش رفيع وسترة مخملية مقوّسة التلابيب. اختارت سيلين تناول فطورها بمفردها بدل أن تنام إلى الضحى لتبقى على السرير بجانبه، وعليها أمارات التوتر دون شك.

ظلّ لفترة على الشرفة يتأمل المدينة. عند قدميه تتمدّد ناطحات السحاب الزجاجية والفولاذية المتلألئة تحت الشمس. ولمسمعه يتناهى دبيبُ حركة المرور والصخب المعهود لمانهاتن. كان للمشهد وقع خاص في مزاجه. في البداية، ظلّ بالأحرى متحفّظاً بإزاء سيلين حين أخبرته بنيّتها في إقامة حفل الزفاف بنيويورك. من جهته، كان يفضل تنظيم مراسيم الزواج في حفل كبير في ريف تولوز التي يوجد بها بيت في ملكية والديه. كان الكثير من زملائه من كبار الطباخين وأصحاب المطاعم، قد ضاقوا ذرعاً بإكراهات الاقتصاد الفرنسي، واضطروا لفتح مطاعمهم في لندن، ونيويورك أو طوكيو. هو لم يكن متحمساً لهذه الفكرة، لأنه يحبّ فرنسا، ويحبّ نمط حياته فيها: حيث من عادته أن يستيقظ باكراً كلّ يوم، يشرب قهوته وهو يتصفح صحيفة **لوباريزيان**؛ بعدها يذهب للتسوق في «رانجيس» ليختار

أفضل المنتوجات الغذائية لمطعمه عساه يرى مشاعر الرضا في أعين زبنائه. وبين الفينة والأخرى، يقصد بصحبة أصدقائه الملعب الفرنسي لتشجيع فريقهم «باري سان جرمان». وفي غمرة كلّ ذلك، لا يفوته أن يتعهد بالعناية والرعاية والديه اللذين يتقدمان في السن بهدوء.

لكنه إرضاء لسيلين، كان على استعداد لتقبّل الكثير من الأشياء. كان قد التقاها أول مرة قبل ثلاث سنوات بمنتزه مونتسوري الذي دأب على ارتياده لممارسة رياضة المشي، إذ صادف في ذلك اليوم أن كانت في جولة مدرسية مع تلامذتها. ظلّ يرقبها لدقائق مأخوذاً بسحرها وجد أنّ كل شيء فيها ينمّ عن اللطف والوداعة: بسمتها، بشاشتها، معاملتها للصغار. وبعدها عرف كيف يرضيها، ويتحمّلها ويحميها، وإن ظلّ العنصر المقلق في حياتهما ذاك الطفل الذي لم يتوقّفا في إنجابه.

غادر سيباستيان الغرفة ووقف بانتظار المصعد.

- **كيفْ حالك اليوم؟** بادرته سيدة قصيرة القامة بارزة البطن ترتدي لباساً أصفر اللون. وقفت بدورها بباب المصعد مع كلابها الثلاثة من نوع «شيهواهوا» بقامتها الصغيرة وزغبها القصير وهي تحملها معاً في عربة أطفال

- **كيف حالك اليوم؟** رد عليها بلكنته الجنوب-الغربي الخفيفة.

دخلا المصعد باتجاه الطابق السفلي.

- **لا تخافي صغيراتي ماما تحبكن.** طمأنت المرأة كلابها العزيزة حيث شعرت باهتزاز المصعد.

هنا، قبالة المرآة خامره فجأة إحساسٌ بالفقدان. أحسّ بدوار وبرغبة في الغثيان. وفي جزء من الثانية، شيء ما طفا على سطح

الذاكرة وراوده انطباع مشمئزّ بسابق عهده بهذا الموقف. وبدا له مشهداً مألوفاً على نحو غريب، سبق أن عاشه في الماضي وإن عجز عن تحديده بالضبط: هذه المرأة بثوبها الفاقع، وصوتها الأغن، وكلابها الثلاثة المحضونة في العربة كأطفال رضع. من أين جاءه هذا الإحساس المقزّز بسابق عهده بالمشهد؟

ما أن انفتح مصراعا باب المصعد، حتى أسرع إلى المرحاض ليبلِّل وجهه بالماء البارد.

خفَّت حدّة الإحساس بالضيق وإن لم تتلاشَ بالمرة.

افتح عينيك.

شعر بارتجاج يهزّه من الأعماق.

انظر إلى الحقيقة قبالتك.

كان يحاول أن يقنع نفسه بأن حياته ليست عسيرة في شيء، مع أنّ الواقع خلاف ذلك، ويحاول في الوقت نفسه أن يقنع نفسه بأنّ كل شيء على ما يرام مع سيلين، مع أنّ كل ذلك يبقى في الحقيقة محض ادّعاء. لطالما سادت بينهما لحظات صمت، وباعدت بينهما مناطق ظلّ، وأفحمتهما أسئلة لم يجرؤا أبداً على طرحها خوفاً من معرفة أجوبتها.

إذا لم تفعل شيئاً ستضيع منك.

هذا ما ينكشف له اليوم بجلاء مهول.

كان يبحث جاهداً عن نوع من الاطمئنان، محاولاً أن يقنع نفسه بأنهما في ظلّ ارتباطهما ستأخذ حياتهما مع الزمن وتيرتها الطبيعية. فهو يتطلّع إلى الحب المعتدل، والحياة المتوازنة، ويعتبر إنشاء أسرة هدفه الأسمى، لأنّ الأطفال برأيه هم ضمان استمرارية العلاقة بين الزوجين. أما بالنسبة إلى سيلين، فالعلاقة الجامعة بين اثنين هي نوع

من بلوغ الذات، وبحُكم هذه القناعة فهي تتطلع للحب الجنوني المثير، وترى أنّ الامتلاء العاطفي بالنسبة إليها مجرّد مخدر لا يمكنها بأيّ حال من الأحوال أن تساهم في ترويجه.

وفي حالات كثيرة متزايدة، كانت تنفلت منه سيلين، وتنزوي في نوبات صمتها، وتغرق في غياباتها وأحلامها. وفي مثل هذه اللحظات، كان يذهب به ظنّه إلى الاعتقاد في وجود غريم في حياتهما، لا بد أن يكون رجلاً غير مرئي قابعاً في مناطق الظلّ بماضٍ لم يسائلها قط بشأنه.

ربما حان الوقت لهذه المساءلة...

مسح وجهه وتطلّع في المرآة فوجد أنه صار أكبر سناً بعشرة أعوام في عشر دقائق. خرج من غرفة الحمام وولجَ المطعم، يبحث عن سيلين ببصره لثوانٍ معدودة قبل أن يلمحها جالسة إلى مائدتها لوحدها، متوارية عن الأنظار خلف أصٍّ من الأعراش اليانعة الخضراء.

- هل أنت بخير؟ سألها وهو يجلس قبالتها.

- هل نمت جيداً؟

أطرق رأسه، طوى المنديل الموضوع أمامه ثم بادرها بعد تردّد:

- أعتقد أنه علينا أن نتحدث معاً.

قطّبت حاجبيها متفاجئة بنبرته الجادّة الرصينة وهي تنظر إليه باهتمام.

بدأ يتحدث بصوت واثق شيئاً ما.

- طيب، في اعتقادي علينا تسوية بعض الأمور قبل الزواج. لم يسبق أبداً أن طرحتُ عليك السؤال، لكن بودّي الآن أن أعرف.

توقف عن الحديث وعلامات الارتباك بادية عليه.

ظلّت تنظر إليه في صمت، ويدها مدسوسة تحت معطفها.

- أريد أن أعرف إن كان هناك رجل آخر في حياتك، يستأثر بتفكيرك ويملأ عليك مشاعرك.

سادت بينهما فترة صمت طويلة ودّ خلالها لو أن سيلين انفجرت ضحكاً، وتطمئنه قائلة: **كفى من كلّ هذه السخافات حبيبي! أنت تعرف ألّا وجود لغيرك في حياتي!**

لكن عوض أن تقول له هذا، ردّت عليه بهدوء:

- صحيح، هناك رجل غيرك في حياتي.

- آه. ومَن يكون؟

أطرقت ببصرها ودفعت نحوه بالجريدة الموضوعة على المائدة:

- هو ذا.

*

مشفى سانت جود
الساعة 9 و11 دقيقة

بعد عدة طرقات على باب المكتب دون ردّ، قرَّر إيثان أن يدخل دون إذن.

مكتب الدكتور شينو ميتسوكي عبارة عن قاعة صغيرة بسيطة شبه عارية من الأثاث، بالإمكان مشاهدة النهر منها عبر النافذة، ذات جدران مطلية ببياض طباشيري يخفّف من الألوان الداكنة لستار ممتد من الخيزران داخلها. وعلى الطاولة أصّ من نبتة القيقب الياباني بجذع مائل الأعراش على نحوٍ يعطي الانطباع بتفرّعه من الأرضية. ألقى إيثان بسترته على مسند كرسي صلب وجلس بانتظار الطبيب،

وبجانب الحاسوب إبريق شاي ساخن جاهز، سمع معه صوتاً يدعوه:

- صُبّ لك فنجان شاي.

التفت إيثان نحو مصدر الصوت، فوجد شينو ميتسوكي مواربا فتحة الباب وكأنه لم يتفاجأ بحضوره في مكتبه. إنه هو الرجل نفسه الذي عالجه: آسيوي متقدّم في السن، قصير القامة، بجسد ضامر متكدّس، ووجه بملامح هادئة، وشعر داكن قصير.

انتصب إيثان أمامه واقفاً بسرعة، كاشفاً له عن إصبعيه:

- أأنتَ الذي فعلت بي هذا؟ أليس كذلك؟

- ربما، رَدّ عليه الطبيب بحذر، وعلى أية حال كان عملاً متقناً.

- أنا أعيد الآن معايشة اليوم نفسه. صرخ إيثان. وأنا على يقين أنك على علم بكلّ ذلك.

- أنا لا أعلم شيئاً، رد عليه الدكتور بصوت هادىء.

- ليس من المفروض أن أكون الآن هنا، بل من المفروض أن أكون الآن في عداد الموتى. لقد أصابتني رصاصة في الرأس.

تناول شينو الإبريق وصبّ قدحين من مشروبه الساخن.

- مَن يدري؟ ربما أنت ميت بشكل آخر.

- كل هذا مجرد ترهات: إما أن نكون أمواتاً أو لا نكون!

ثم توقف شينو ليفكر لحظة قبل أن يسأله:

- هل تلعب لعبة التاروت؟

- أفضِّل لعبة البوكر.

- توجد في لعبة التاروت ورقة خاصة: الورقة الثالثة عشر، «ملغزة بلا اسم». تؤشر على خلاصة مرحلة، عودة إلى الأصل، هي ليست نهاية، وإنما ولادة من جديد.

- ماذا تريد أن تقول لي؟ سأله إيثان بعصبية.

- أحاول أن أفهمك بأنه من الضروري أحياناً أن تنقلب الصفحة ليكون بالإمكان كتابة شيء جديد في الصفحة الموالية.

- ألَا تكفّ عن التلفظ دائماً بهذه الجمل المنمّقة؟

- الموت هو الموجّه الأكبر. واصل شينو كلامه دون أن ينساق وراء استفزازه.

- الموجِّه الأكبر؟

- إننا نحيا كأننا لن نموت أبداً، بيْدَ أنه لتحقيق شيء ما في حياتنا، علينا أن نستحضر دائماً في أذهاننا حتمية موتنا.

- اسمع، يا عزيزي، حتى أنا أتبنى الخطاب نفسه مع مرضاي: التركيز على الأهم، الحياة وفق القيم الحقيقية، اتباع حياة منتظمة تفادياً للشعور بالندم ساعة الرحيل الأخير. هذه الأغنية المشروخة، هي مصدر رزقي، وأحفظها عن ظهر قلب.

- لا يكفي حفظها عن ظهر قلب، العبرة ليست في حفظها، بل في تطبيقها.

هزّ إيثان رأسه ثم قام من مقعده، لينتصب واقفاً أمام النافذة وهو في غاية الاضطراب، يعاني صداعاً يشقّ جمجمته ورعشة ترجّ أطرافه. كما أنّ إحساسه بتعذّر استيعابه ما وقع له وعجزه عن التحكم في الأشياء يفسد عليه الآن شعوره بالارتياح لبقائه على قيد الحياة بمحض معجزة. وقد جاء إلى هنا بحثاً عن أجوبة شافية لتساؤلاته، لكن من الظاهر أن الطبيب ليس مهيأ لإفادته بشيء.

ما عدا إذا...

التفت إيثان واندفع فجأة باتجاه شينو ميتسوكي، وقد استشاط غضباً، ليشدّ بخناقه ويحصره على زجاج النافذة:

- لقد بدأتَ تُرهقني ببوذيتك السوقية!

- أنت في غاية الغضب. قال له ميتسوكي معاتباً دونما شعور بالاستفزاز.

- ألا تفسِّر لي ما حصل؟ حثّه إيثان بنبرة حادة وحركة عنيفة.

- لا أدري، أحياناً يكون الموت مجرّد حدّ، حدّ فاصل بين نهاية حياة وبداية أخرى.

- أية حياة أخرى؟ انفجر إيثان مهدداً مرة أخرى وهو يضغط بقبضته على خناق الطبيب. أنا أقول لك بأني أعيد معايشة اليوم نفسه، أقول لك بأني سبق أن مُتّ.

- وماذا بعد؟ هل تظنّ أنّ المعاناة تتوقف مع الموت؟ سأله الآسيوي بهدوء على الرغم من شدة قبضته بخناقه. آسف، الأمر ليس بهذه البساطة. كلّ ما زرعته ستحصده عاجلاً أو آجلاً هذه هي القاعدة.

- دائماً هذه الكارما السخيفة! لكن يجب أن تعلم بأني مُسْتَهدَف، وبأن هناك مَن يسعى لتصفيتي، وعليك مساعدتي حتى تتيسّر لي مهمة العثور عليه.

- هه. أنت مَن سوف. يقتلني!

لثانية أخرى من الزمن، زاد إيثان من ضغطه على خناقه:

- وماذا بعد؟ اعتقدت أنك مهيأ لذلك، وأنك تحب الموت. إنه «الموجِّه الأكبر»، أليس كذلك؟ لقد فهمت الدرس جيداً!

ثم بحركة واحدة، أطلق خناقه حين تنبّه فجأة لخطورة ما هو مُقدِم عليه. التزم الرجلان بعدها الصمت لدقائق دون أن ينبس أي منهما لصاحبه بكلمة واحدة، حيث شرع شينو أثناءها في استعادة

أنفاسه وتعديل ياقته، بينما سرح إيثان ببصره نحو جسر بروكلين المتمدّد على النهر تحت الأشعة البرتقالية لشمس الخريف.

وهو يحسّ بنوع من الخجل، التقط سترته الملقاة على مسند المقعد وتوجّه نحو الباب.

إذا كان يتطلّع لأجوبة شافية لتساؤلاته، عليه أن يسعى إليها لوحده.

وفي الوقت الذي بدت له هذه القناعة، ارتأى شينو ميتسوكي أن يتفضّل عليه بالكشف عن مسلك في هذا الاتجاه:

- في هذا اليوم الذي تدعي أنك تعيد معايشته من جديد. أعتقد أنه سيتيح لك فرصة رائعة لاستعادة خياراتك الخاطئة في الماضي، خياراً بعد الآخر.

وتوقف شينو لحظة قبل أن يواصل توضيح فكرته:

- أظن أنها فرصة بالنسبة لك كي تتعرّف أخطاءك وتتقبّل فكرة عدم ارتكابها مرة أخرى بدل اللهاث وراء قاتلك المفترض.

فكَّر إيثان لحظة في هذا الاحتمال. كان قد أوشك على تجاوز عتبة الباب حين هتف به الطبيب:

- ماذا تعرف؟ أعتقد أن موتك هو ربما أفضل ما وقع لك منذ وقت طويل.

*

مطعم فندق سوفتيل
الساعة 9 و21 دقيقة

ثنى سيباستيان الجريدة بعد أن تصفّح بسرعة المقال المخصَّص لإيثان. لمع بعينيه بريق خافت حَدّثْ منه كثافة حاجبيه. تطلّع إلى سيلين مستشعراً صعوبة في الحديث إليها:

- أنتما معاً. منذ متى؟
- صادفته في باريس قبل ستّ سنوات.
- وكم استمرت علاقتكما؟
- حوالي السنة.

حوّل بصره عنها، ولم يعقب بشيء، فما كان منها إلّا أن واصلت كلامها:

- قبل ذلك بوقت طويل على ما أذكر، كان يحدوني الأمل دائماً في العثور على شخص ما ذات يوم.

هزّ سيباستيان كتفيه:

- شخص ما؟
- شخص ما يشبهني ويفهمني. شخص ما قد لا أشعر معه أبداً بأنني وحيدة.
- وماذا بعد؟
- وكان هو مَن عثر عليّ.

14

ما كنت أنتظر إلّا أنت

هكذا هنّ الفتيات، حتى وإنْ كنّ ذميمات، أو بالأحرى لو كنّ مغفلات، ما أن يصدر عنهن شيء باعث على الإعجاب حتى نسقط في حبائلهن أشباهَ عشاق، فلا نعود ندري أين نحن. الفتيات فوضى. وباستطاعتهن تحويلك إلى أبله لا يساوي شيئاً حقاً.

ج. د. سالنجر، **الحارس في حقل الشوفان**

باريس، مطار شارل-دو-غول
قبل ست سنوات
الاثنين 10 سبتمبر 2001
الساعة 7 صباحاً

قاعة الركاب.

يجلس إيثان، مسترخياً على أريكة، وساقاه مشبكتان فوق حقيبة السفر، بانتظار الطائرة التي ستقلّه إلى الولايات المتحدة. من الظاهر أن يكون يومه طويلاً شاقاً: بحكم التأخر الطارئ، لن تنطلق الرحلة إلّا في الساعة 10 و30 دقيقة، وستتوقف في دوبلان لفترة ممتدة قبل أن تواصل التحليق باتجاه نيويورك، ليكون الوصول كما هو منتظر في

الساعة 18 و20 دقيقة. رحلة مرهقة مقابل تذكرة سفر بسعر مخفّض عثر عليها معروضة في شبكة الإنترنت، المَنفَذ الوحيد لرصيده.

ففي سبتمبر، هذا الشهر من سنة 2001، كان إيثان لا يزال معالجاً مغموراً يعيش على التقشّف. قصد باريس ليقضي أسبوعاً في إطار أول عطلة حقيقية في حياته انتهزها لاستكشاف المتاحف والأحياء التي طالما حلم بزيارتها منذ عهد بعيد: اللوفر، أورساي، لورانجوري، جزيرة سانت لويس، مونمارتر.

نهض من الأريكة، تمطى متكاسلاً وهو ينظر إلى صورته المنعكسة على الواجهة الزجاجية لمتجر في السوق الحرة. مرتدياً جينزاً رثّاً، وسترة جلدية بالية وحذاء الكاوبوي، وجد نفسه بمظهر سيئ، وإن كان لباسه مريحاً وملائماً لأيام العطل. **تُرى ما الذي حملني على هذه البهرجة؟** تساءل مع نفسه هو الذي دأب منذ سنين على التنكّر لأصوله المتواضعة.

كانت الفترة الرئاسية لكلينتون في الولايات المتحدة توشك على الانتهاء. لاحظ إيثان حوله الكثيرين من أقرانه الذين أصبحوا أثرياء بين عشية وضحاها انطلاقاً من مشاريع أولية صغيرة. هو لم يكن بمثل هذه الفطنة التي تؤهِّله لانتهاز فرص الاغتناء في ظلّ العهد الاقتصادي المستجدّ. لكنه يحاول أن يقنع نفسه بضرورة ركوب القاطرة الموالية، لأن العائدات المتواضعة التي بدأ في جنيها في العيادة التي فتحها في هارلم بدأت تتزايد بفضل تزايد زبائنه واتساع دائرة صيته تدريجياً.

خطا بضع خطوات في بهو المطار. أثارته رائحة ما تفوح في الأجواء، عطر نهاية حقبة. استشعر على نحوٍ غامض بداية عهد جديد أكثر تهديداً دون شك من سابقه بانتظار أن ينطلق مع أي حدث.

يتوقع أيضاً أن يحالفه الحظ في سنوات 2000، حيث سيتمكن من التخلص بلباقة من وضعه الحالي. لا يعرف بعد كيف سيتحقق له ذلك ولا بفضل مَن، لكنه يعرف بأنه لن يتوانى عن انتهاز الفرصة حين تكون مؤاتية. ولاكتساب الشجاعة اللازمة لمواجهة يومه الشاق، قرَّر أن يتناول فطوره بأحد المقاهي المرصوفة على جنبات الممرات.

جلس على مقعده مباشرة على البار، وطلب فطيرة بالشوكولاتة، وقهوة بالحليب، وهو يجيل على القاعة نظرة حالمة. توقّف بصره لحظة على مضيفة طيران شابة، جالسة إلى مائدة بالقرب من الفتحات الزجاجية المشرفة على الطريق الإسفلتي. أنيقة، متحفظة، مستغرقة في قراءة كتاب يستحوذ كلّ اهتمامها.

كانت في البدء مجرد نظرة عابرة -فهو يفضل متابعة مشهد امرأة جميلة على متابعة حركة الطائرات في مدارجها- ثم وجد نفسه يطيل النظر بشكل تأملي. كانت الأشعة الأولى لشمس أواخر الصيف تداعب طيفها الواجم بلا حراك وتحوّله لأشبه بلوحة «فيرمير» إلى أن رفعت وجهها لتختلس إليه النظر بدورها. أحسّ منها بدفء مباغت حارّ أربَكَه ومَلَكَ عليه مشاعره. امرأة ذات وجه ملائكي ونظرة حانية، استبدّ به اتجاهها الإحساس بالإثارة والخفقان نفسه الذي استبد به في ساحة تايمز سكوير قبل تسع سنين، حين ترك جيمي وماريزا إلى غير رجعة. إنه يعرف اللحظات المفاتيح لوجوده، ويعرف أنه الآن بصدد إحدى هذه اللحظات الحاسمة في حياته.

مدفوعاً بقوة جارفة، ترجّل إيثان من مقعده وتوجه إلى طاولتها. إنها هنا، وحيدة في هذا العالم، على بعد خطوات منه. في أقل من عشر ثوان، سيباشر الحديث معها. لكن كيف السبيل لمراودة امرأة مثلها؟

تسع ثوانٍ.

في نيويورك، كانت تنحصر تحرشاته في أغلب الأحيان بفتيات نيو جيرسي المغفلات اللواتي يسهل عليه التغرير بهن في علب الليل مساءات السبت.

ثماني ثوانٍ.

اختلس النظر إلى غلاف الكتاب بين يديها لتبيُّن عنوانه: **كائن لا تُحتمل خفّته** لميلان كونديرا.

سبع ثوانٍ.

لم يسبق له أن قرأ كتاباً لكونديرا، حيث لم تكن قراءة كونديرا متداولة في حيه الفقير. جنوب بوسطن، ولا في الأوراش التي طالما اشتغل بها وفوق ذلك هو حديث العهد بالثقافة ولا تزال أمامه أشياء كثيرة عليه تداركها في هذا المجال.

ست ثوانٍ.

على الرغم من كل الجهود التي بذلها من أجل أن يصبح إنساناً آخر، يبقى لديه الانطباع بأن أصوله الشعبية المتدنية مخطوطة على جبينه وتلاحقه دائماً بالإحراج والمهانة.

خمس ثوان.

ما عاد يتحكّم في شيء، ولم يجد بداً من الانسياق وراء صَبوَته.

أربع ثوان.

لا يزال حائراً في كيفية مراودتها. سيكون عرضة لردّة فعل قوية، بكل تأكيد، أو ربما لصفعة مدوية. لكن هل لديه خيار آخر غير الذهاب إلى نهاية الشوط؟

ثلاث ثوان.

غريب أمره، لم يحصل معها أيّ شيء بعد، ومع ذلك يتملّكه الخوف من افتقادها.

ثانيتان.

أهذه هي صعقة الحب من أول نظرة؟ قبل أسابيع جاءه أحد مرضاه لِيُسِرَّ إليه تبرّمَه من وقوعه في حبائل امرأة في ريعان الشباب، فكان أن عاش قصة حب من طرف واحد رمى به في مهاوي الضيق والقلق. استمع إليه إيثان بكلّ اهتمام، وكله اقتناع بأنه لا يمكن أن يكون في يوم من الأيام ضحية قصة مماثلة.

ثانية.

ضجر من مظهر هندامه العابث، وشعره الطويل ولحيته المهملة منذ ثلاثة أيام. وطّد العزم على مُفاتحتها، لكنه يخشى أن يكون تصرّفه شبيهاً بتصرف العشاق اليافعين فيبدو أمامها بصورة مضحكة.

بُحْ لها بالحقيقة عساها تفهم.

- هل تؤمنين بالحب الكبير؟ سألها وهو يجلس أمامها دون تريث.

نظرت سيلين بمزيج من الاحتراز والفضول لهذا الشخص الذي سوّلت له نفسه الجلوس إلى مائدتها دون سابق استئذان. عموماً، كان دائماً من عادتها أن تصرف بعنف، ودون تمهّل، هذا النوع من المتحرّشين الصغار الذين لا يفتؤون يجربون حظهم معها فقط لإشباع استيهامهم بها كمضيفة طيران، غير أنها هذه المرّة تحسّ بجاذبية غير مألوفة لهذا الرجل الجالس أمامها على المائدة.

- الحب الكبير، هل تؤمنين به؟

- لا ردّت عليه وهي تمطّ شفتيها استخفافاً بالأمر.

- ولا حتى أنا. لم أكن أؤمن بالحب الكبير قبل ثلاث دقائق فقط.

تناولت من فنجانها رشفة، وظلّت غارقة في صمتها، محافظة على هدوئها، مُفسِحَة بذلك المجال أمامه لمتابعة الحديث.

- قبل ثلاث دقائق فقط، لم أكن أؤمن لا بوجود الروح التوأم، ولا بضرورة البحث عن النصف الآخر.

- هل أنت أميركي؟

- لا، أنا نيويوركي.

ارتسمت على وجهها ابتسامة:

- سأكون على متن رحلة باريس-نيويورك عند الساعة الثامنة ونصف تحديداً.

*

وقتها، انتهى لسمعها صوت يناديها:

- سيلين.

التفتت نحو مصدر الصوت، ولمحت عند مدخل المقهى مضيفَتَي طيران من الخطوط الفرنسية يستحثّانها على الإسراع بالإشارة إلى الساعة الحائطية.

- أنا قادمة! أجابتهما مبتسمة.

أغلقت الكتاب، ووضعت للنادل المبلغ المطلوب ثم همّت بترك المائدة بنخوة ولطافة.

- عليّ أن أغادر الآن!

- هل لكِ أن تقبلي دعوتي للعشاء بنيويورك هذا المساء؟ اقترح عليها إيثان وهو يصاحبها إلى خارج المقهى.

- أنت تحلم! لم يحدث بيننا حتى التعارف.

- سيكون العشاء مناسبة مؤاتية لنا للتعارف.

التحقت مسرعة بزميلتيها، تاركة إيثان خلفها ببضعة أمتار، ليصلها صوته بإلحاح:

- هيا، لا تتردّدي، فقبول دعوة العشاء لن يُلزمك بشيء.

تظاهرت سيلين بعدم سماعه، وهي تنضمّ إلى زميلتيها، إذ بادرت بالردّ عليه إحداهما ببشرتها السمراء اللامعة:

- أنا، على أية حال، ليس لديّ مانع. اسمي زوي.

ردّ عليها إيثان بابتسامة، وهو يتجاوزهن ليقف أمام سيلين:

- وماذا لو كنتُ رجل حياتك؟

تابعت الفتيات الثلاث ثرثرتهن باستخفاف لطيف بإزاء شخص بدا لهن غريب الأطوار.

- هيا، امنحيني فرصة! أنا لا أطلب أكثر من ميعاد!

- لو كنتَ رجل حياتي لما تصرفت على هذا النحو.

- ماذا تريدين مني أن أفعل؟

- لو كنت رجل حياتي لعرفتَ كيف تبهرني وتحرّك شعوري بدل أن تكون مثيراً للضحك بهذا الشكل.

- الضحك، بداية حسنة، أليس كذلك؟

- بلى، بادرت زوي، هيا، سيلين، امنحيه فرصة على الأقل!

دارت المحاورة والمضيفات الثلاث يدخلن الجناح المخصص للعاملين بالمطار ليبقى إيثان بمفرده خلفهن، وهنّ في غمرة من الضحك، يلوحن له مردِّدات بما يشبه لحناً جماعياً موقعاً:

- باي-باي.

*

لو كنت رجل حياتي لعرفت كيف تبهرني وتحرك شعوري.

ظلّ إيثان واجماً في مكانه، فهو رغم ثرثرته لم يظفر منها بشيء. لم يستطِع أن يخبرها حتى باسمه ووظيفته، ولم يفلح بالمرة في أن يُثير لديها الرغبة في معاودة رؤيته.

لقد بدا أمامها بصورة بهلوان مضحك، أو مهرّج خفيف الروح، وهو في عمقه مجرد بئيس ظريف أراد اللعب في ساحة الكبار دون أن تكون له القوة اللازمة.

بعد مناوراته المرهقة بلا طائل، وجد نفسه يتهاوى على مقعد بالقرب منه، ليظلّ فترة طويلة مغمض العينين بلا حراك.

حين استعاد وعيه كانت الساعة قد شارفت الثامنة والنصف، حيث انطلقت طائرة الخطوط الجوية الفرنسية للإقلاع، وعلى متنها المضيفة المعشوقة باتجاه مانهاتن.

والآن ماذا ستفعل؟

من المفروض أن تصل طائرة سيلين إلى نيويورك في الساعة العاشرة وأربعين دقيقة.

لا تزال أمامه ساعتان في انتظار رحلته، وهي أكثر من ذلك لن تكون رحلة مباشرة.

دعك من هذا الأمر. لا تحاول أن تلعب دور البطل، وعُد لمراودة عاهرات نيو جيرسي الصغيرات، فهن يقمن مقام الفرنسيات الجميلات اللواتي يقرأن روايات كونديرا.

ومثل حيوان يتربّص بفريسته، شرع يجيل عينيه في بهو المطار بحثاً عن علامة أو فكرة، ليتوقف بصره عند ملصق بلون كستنائي لافت.

الكونكورد: العالم بسرعة الصوت المضاعفة
باريس - نيويورك أسرع من ضوء الشمس!

لو كنت فعلاً رجل حياتي لعرفتَ كيف تبهرني وتثير مشاعري.

ما أن غادر جناح المسافرين، حتى توجّه مسرعاً ليرتمي على أول مندوب لشركة الطيران الفرنسية: فعلاً، هناك رحلة كونكورد مبرمجة هذا الصباح في الساعة العاشرة والنصف ليكون الوصول إلى مطار جون كينيدي في الثامنة و25 دقيقة. هكذا انبعث بأعماقه بصيص أمل، لكنه سرعان ما خبت جذوته بمجرد سماع كلفة الرحلة الباهظة:

- 5550 دولاراً.

طلب من الموظف أن يُعيد ذكر السعر، محدداً له رغبته في رحلة عادية في الدرجة الاقتصادية، فأكّد له أن التذكرة تظلّ بالثمن نفسه:

- 5550 دولاراً ثمن تذكرة سفر؟!؟

فكر لحظة في إمكانية حجز التذكرة، ما دام رصيده يبلغ في مجموعه 6300 دولار قضى شهوراً متتالية في توفيره لتسديد كلفة بطائق إشهارية لعيادته.

لكن من غير المعقول أن يستنزف كلّ حسابه البنكي في نزوة عابرة.

لو كنت رجل حياتي لعرفت كيف تبهرني وتثير مشاعري.

*

كانت قد حانت الساعة التاسعة والنصف حين جاءت مضيفة

طيران لترافقه إلى قاعة المسافرين بالجناح الخاص بركاب الكونكورد.

وجد الجميع في غاية الأدب واللباقة معه. إنه مبلغ 5550 دولاراً: ثمن الاعتبار. وضعت المضيفة أمامه طبقاً متنوعاً من الفطائر، إلى جانب خمر بوردو ونبيذ معتّق مع أنّ الوقت كان صباحاً بدا بهندامه المثير نشازاً بين رجال الأعمال، بأيديهم الكؤوس وهم منغمرون في الحديث عن إطلاق المشاريع وعقد الصفقات كما لو كانوا في ملعب للغولف. من خلال الزجاج، نظر باندهاش إلى جناح الطائرة وهيكلها الضيق وقد أحاط به فريق من الميكانيكيين من أجل الفحص والصيانة قبل الإقلاع.

كلّ ذلك والطائرة نصف خالية، وسط اتخاذ إجراءات الركوب بسرعة متناهية، والتحاق الركاب بمقاعدهم الجلدية الناصعة المصفوفة في نظام مزدوج على جانبي الممرّ الرئيس.

عند الساعة العاشرة والنصف، انتصب الشبح الفولاذي الأنيق الأسرع من الصوت على مدرج المطار، بينما على المدارج الأخرى تصطف الطائرات بمشقّة لتفسح له مجال الطيران. حينها أطلق الربان قائد الرحلة الأطنان السبعة عشر من ضغط النفاثات الأربع مع إطلاق الفرامل، ثم لم تلبث بعد التحرّك أن تزايدت السرعة بقوة، في غضون أقل من ثلاثين ثانية، كي ترتسم بعدها صورة طائر أبيض عملاق ينفلت من الأرض إلى الفضاء.

اندسّ إيثان في أريكته، وبدأ يفكّر في هذا السلوك الذي لم يسبق له أن أقدم على مثله في حياته. لقد حجز التذكرة في لحظة جنون طغت فيها الشهوة فجأة على العقل، وتبدو له الآن أنها كانت حماقة بلا معنى.

- أتشرب قليلاً من الشامبانيا سيدي؟ اقترحت عليه المضيفة.

تردّد لحظة في الردّ، كما لو أنه يشكّ في أن يكون له الحق في امتياز من هذا النوع.

- شامبانيا دوم برينيون روزيه سنة 1993، موضحة له المضيفة وهي تصبّ له كأساً.

أخذ رشفة منه، وجده شراباً لذيذاً بطعم الخوخ والحمضيات المخلّلة مع العسل. وبعدها مباشرة تمّ، مع كأس فودكا، توزيع الكافيار في شكل شريحتين من بيض الحفش مفصولتين بقطعة كرفس.

التفت إيثان، لمح خلفه سيدة مسنّة حجزت بجوارها مقعدين لكلبيها الجعيدين من نوع «كانيش»! في الساعة الحادية عشرة أعلن الربان القائد بأنّ الطائرة وصلت خط المراقبة العمودي دوفيل، على ارتفاع 9000 متر، وبأنه قد حان الوقت لاختراق جدار الصوت. بدأ مستخدمو الطائرة يستعدّون لتقديم وجبة الغذاء المعدّة من قبل الطباخ الفرنسي الكبير ألان دوكاس، وتوزيع مناديل من الكتّان وملاعق وشوكات وسكاكين من الفضة، مع مطويات صقيلة عليها قائمة الأطعمة مخطوطة في شكل مقاطع شعرية مثيرة للشهية تقترح للاختيار الكثير من المقبلات والأطباق الساخنة، مثل:

ترصيعات من سرطان البحر بروتون

مرق بالطماطم والفطريات

عصير لفت إغريقي

أو

هَبْر قاروس

مشائج البقل الزنبقي والكرفس الذائب

مرق أميركي من المرجانيات
هذا فضلاً عن نوعين من المرطبات الخرافية:
هلامية من الأناناس والفواكه الاستوائية
بنكهة الليمون والنعناع الطري
مع
كعكة بالشوكولاتة بطعم الموكا

أتاح إيثان لنفسه متعة رائقة في لحظة تدلّل، وبدأ يتذوق الأطعمة النيئة المدهشة التي تمّ إعدادها تباعاً خصيصاً لهذه الوجبة الخالصة الفاخرة.

الرحلة متواصلة الآن بسرعة الصوت المضاعفة، بوتيرة رصاصة بندقية. ارتفع صوت الربّان القائد معلناً بذلك أنّ الطائرة تحلق على ارتفاع قرابة 60000 قدم: 18000 متر من العلو، علو الستراتوسفير، مقابل 11000 متر بالنسبة إلى رحلة عادية. ألصق إيثان أنفه بالكوّة الزجاجية بجانبه. هنا، عند مدخل الفضاء، ننظر إلى السماء بشكل مختلف إنها تبدو بزرقتها الأرجوانية الكثيفة، وصفائها المدهش، بعيداً عن الاضطرابات الجوية البئيسة التي تزمجر في الأسفل. لكن يبقى الأكثر إثارة استدارة الأرض التي نتبيّنها بكلّ دقة. كانت الطائرة في هذه الأثناء تستعد للهبوط بمطار نيويورك، ليتسنى لهذه النفاثة الأسرع من الصوت أن تحطّ على مدارج المطار، بعد رحلة ممتعة استغرقت في الجو ثلاث ساعات وخمس وثلاثين دقيقة.

كانت الساعة تشير عند إقلاعها من باريس إلى العاشرة وثلاثين دقيقة.

ها هي تشير الآن عند وصولها إلى نيويورك إلى الثامنة وخمس وعشرين دقيقة.

لقد سابقت على متنها الزمن.
كل ذلك من أجل إغراء فتاة.

*

ينظر إيثان إلى ساعته.
طائرة سيلين لن تصل قبل ساعتين. بعد إتمام الإجراءات الجمركية، راح يتسكّع في المطار تزجية لوقت الانتظار، وارتأى أن يطّلع على حسابه البنكي ببطاقته الإلكترونية من صندوق الصرف الأوتوماتيكي. افترض أنه إذا كانت حساباته دقيقة، من المفروض أن يبقى برصيده مبلغ 750 دولاراً، غير أنّ آلة الصرف ترفض منحه أكثر من 600 دولار. في الجهة المقابلة، لفت انتباهه حلاق وهو يفتح محله وسط مركز التجميل في الجناح الخاص بالرحلات الدولية، وتأسّف لكونه متخصصاً في الحلاقة النسائية فقط. أمام إلحاح إيثان الكبير قبلت جيني، وهي فتاة من سيسايد هايتس في نيو جيرسي، الاهتمام به. مسلّحة بمقصّ وآلة لحلاقة الشعر، قدمت له تسريحة على غرار تسريحة دوغ روس في مسلسل طوارئ، بل إنها تعدّت ذلك إلى حدّ حلق لحيته، استكمالاً لمستلزمات أناقته.

الساعة 9 و45 دقيقة

دخل إيثان محل أومبوريو أرماني لشراء قميص أبيض، وبذلة رمادية داكنة وحذاء أسود ليبدو بمظهر مغاير لائق.

الساعة 10 و10 دقائق

لم يتبقَّ له بجيبه غير أربعين دولاراً، وعلى واجهة محلّ الحلواني انشدّ بصرُه لتوليفة رائعة: باقة من الورود مصاغة من الشوكولاتة وعجين اللوز، بألوان زاهية فيها الأحمر والوردي والأرجواني والأزرق والأبيض، ممّا يجعل أزهارها في مظهرها بيناعة أخاذة أكثر ممّا هي عليه في الطبيعة، وفي طعمها بنكهة شهية من خليط البندق والبرتقال واللوز المُسَكر وشوكولا الجياندوجا. وفي المجموع تبقى لذة تساوي 60 دولاراً.

فتّش جيوبه مرة أخرى: لم يتبقَّ له سوى 43 فرنكاً إضافية لم يجد الوقت الكافي لصرفها هناك. أعطاه موظف مكتب الصرف مقابلها 06 دولارات فقط. أخذ المبلغ الذي تجمّع لديه: 46 دولاراً، ودخل به المقشدة عساه يقنع صاحبها الإيطالي بقبوله ثمناً لباقته الزاهية، لكنه لم يُعِرْه اهتماماً. فعل كلّ ما بوسعه استدراراً لتعاطفه: قدَّم له بطاقته، اقترح عليه حصصاً علاجية بالمجان في عيادته، أخبره أنّ صندوق الصرف الآلي ابتلع خطأ بطاقته البنكية، وعده بالعودة إليه في اليوم الموالي لأداء ما سيبقى بذمته. كل ذلك دون جدوى: الباقة تساوي 60 دولاراً لا أقل ولا أكثر.

لم يبقَ لإيثان في النهاية إلّا أن يكشف له آخر أوراقه ويحكي له قصته مع المضيفة الفاتنة، ويذكر له كيف اضطرّ لحجز تذكرة الكونكورد من باريس ليصل قبلها إلى مانهاتن ويهيء لها المفاجأة، وكم يتمنى أن يقدّم لها بالمناسبة هذه الباقة الرائعة هدية لها عند لقائها. وما دام كلّ شيء ممكناً في نيويورك، مدينة المعجزات، فإن الحلواني لم يجد في الأخير بُدّاً من قبول الصفقة والتنازل له عن التحفة.

حوالي الساعة الحادية عشرة دخل طاقم الرحلة AF004 إلى المحطة، ووجد إيثان نفسه في لحظة يلغي كلّ الموانع والحسابات، ويُسقط كل الدفاعات والتوجّسات، ويتقدّم نحوها، بحركة بريئة ساذجة، حاملاً باقة أزاهره، وهو في كامل أناقته، حليق الوجه بتسريحة متقنة وبذلة جديدة.

كانت سيلين مُحاطة بزميلتها زوي وزميلين آخرين من مضيفي الطيران، متوجّهين جميعاً نحو باب الخروج، فاعترضها إيثان مادّاً إليها باقته من الحلويات:

- هكذا عليّ أن أفاجئك قبل أن أثير مشاعرك.

لم يصدر عن سيلين اتجاهه أيّ ردّ فعل، ممّا جعله يفطن في الحين أنها لم تتعرفه، وإلّا كيف لهذا الرجل أن يكون هو نفسه الذي صادفته هذا الصباح في باريس؟

ثم سرعان ما انتبهت لما قام به هذا الشخص وانتابها إحساس بالخوف. فبادرة من هذا النوع في حقّها من رجل مجهول لا تعرفه، تبدو لها «بادرة مفرطة»، مفرطة في قيمتها، مفرطة في جمالها، مفرطة في كلفتها. بادرة مُبالغ فيها للغاية إلى حدّ أنها تبدو معه مَرَضِيّة غير معقولة.

- أأنت أبله! قالت له وهي تحدجه بنظرة حادة، ثم أسرعت خطوها منصرفة في محاولة للإفلات منه، غير أنه ظلّ لصيقاً بها.

- أعتقد أنك تبحثين عن رجل يُبهرك.

- هل أنت مريض!

- هذه من أجلك، اقبليها مني هدية إليك. قال لها وهو يقدِّم لها باقته.

انتزعت منه الشوكولاتة غاضبة، عازمة على أن تقذف بها في وجهه، صارخة به وهي تسرع خطوها مرة أخرى نحو باب الخروج.

- ابتعد عن طريقي، وتوقف عن التحرّش بي.

وليظهر زميلاها أمامها بمظهر لائق مشرف، بادرا معاً لصدّه عن ملاحقتها، لكنه بدوره قام بدفعهما بقوة بعيداً عنه، ولحق بها خارج المحطة.

أخذت سيلين وزوي مكانهما في طابور الانتظار بموقف سيارات الأجرة، توقف إيثان بجانبهما، وتوجّه إلى سيلين:

- لم يكن بنيتي تخويفك أو مضايقتك.

- طيب، انصرف، لقد أخفقت!

- اسمي.

- لا شأن لي بك، ولا يهمني مَن تكون، ولا أريد أن أعرف عنك أي شيء!

- كان بودّي إرضاؤك فقط.

لكن المرأة الشابة استدارت، واندسّت بجانب زوي في سيارة الأجرة التي كانت على أهبة الانطلاق.

وبينما كانت السيارة تتحرك لمغادرة المطار، استطاع إيثان أن يقرأ على شفتيها آخر رسالة حرصت على توجيهها إليه:

- عـ لـ يـ ك عـ رض نـ فـ سـ ك عـ لـ ى طـ بـ يـ ب.

بعدها انطلقت السيارة مسرعة، وبقي إيثان وحيداً على الرصيف، ومن دون دولار واحد في جيبه ليعود إلى بيته، وهو يردّد كأنما يخاطب نفسه:

- كان بودّي إرضاؤك فقط.

15

كلمات حب

وأنا صبية صغيرة، كان الترف بالنسبة لي مقروناً بمعاطف من الفرو والفساتين الطويلة، والإقامات الباذخة على شاطئ البحر. ولاحقاً، كنت أعتقد أنّ الترف أنْ أحظى بحياتي كمثقفة. أما الآن، فإني أرى الترف في أن يحيا الإنسان من أجل هوى رجل أو هوى امرأة. إنه الحب.

آني إيرنو

مانهاتن، في اليوم الموالي
الثلاثاء 11 سبتمبر 2001
ساحة مركز التجارة العالمي
الساعة 8 و35 دقيقة

- ما عليك إلّا المجيء معي! اقترحت زوي على سيلين.

- لا معك ابنة عمك، ولا أريد أن أفسد عليكما لمّتكما الحميمة.

10 دقائق قبل الاصطدام

- إنها تشتغل حالياً في مكتب محاماة، وهي فخورة بذلك، خاصة وأن لها على ما يبدو مكتباً فاخراً في الطابق الخمسين من

ناطحة السحاب، ولك أن تتصوري معي منظر نيويورك من هذا الارتفاع.

وسط ساحة مركز التجارة العالمي، تطلعت الشابتان إلى قمة البرج الجنوبي، فمدّت سيلين لصديقتها آلة تصوير محدودة الاستعمال، مقترحِةً عليها:

- لا تنسي بالمناسبة أن تأخذي صوراً.

أخذت زوي منها آلة التصوير، دسّتها في حقيبة ظهرها، ثم دلفت من المدخل الفسيح للبرجين التوأمين.

9 دقائق قبل الاصطدام

بقيت سيلين بمفردها، فانتعلت حذاء التزلج وانطلقت تتجول عبر الواجهة البحرية، تحت سماء صافية وريح منعشة تهبّ بانسياب على الرأس الجنوبي للجزيرة.

8 دقائق

تزحلقت سيلين على طول الأرضية المغطاة بصفائح الغرانيت الممدودة كأنصاب تذكارية للحرب، ثم اتجهت نحو رصيف العبّارات، وبيدها مشروب من ستاربكس -لذيذ وغني بالسعرات الحرارية- وهو مزيج من الكارميلة المذابة والقشدة المخفوقة، وعلى رأسها سماعات جهازها الموسيقي. في هذه الفترة من سبتمبر 2001، لم تكن شركة «آبل» قد اخترعت «الآيبود» بعد، لذا كانت سيلين تستخدم الووكمان بالليزر وتنصت لألبوم ميشيل بيرجيه، متأثرة بالأخص بأغنيته **بضع كلمات حب**.

7 دقائق

وصلت أمام العبّارات التي تربط باتري بارك بجزيرة ستايتن،

المكان الأكثر حيوية واستقطاباً للسياح القادمين إليه من أجل الإبحار، وكذا العمال المتدفقين من الضواحي من أجل العمل.

6 دقائق

وسط جموع هواة المشي والدراجين والمتزحلقين على الأحذية المتدحرجة، صعدت الساحة المفضية لباتري بارك، طافت بالحصن الصغير لكاسل كلينتون، ثم توقفت لحظة أمام المانيولا المزهرة في حديقة هوب، الحديقة التي تمّ إنشاؤها إكراماً لضحايا داء فقدان المناعة.

5 دقائق

فكَّرت في ذلك الغامض المجهول الذي اضطرها لتدفعه بعيداً عنها بالأمس في المطار، وهو مَن حجز تذكرة على متن الكونكورد فقط لخلق المفاجأة استرضاء لها. صحيح أنّ تصرفه لم يخلُ من الاندفاع، لكنه كان مؤثراً وبطولياً، وبذلك خلق منها هذا الرجل أشبه ببطلة فيلم أو رواية في بضع دقائق.

4 دقائق

لأوّل وهلة في حضرته، شعرت بالخوف وعاملته بعنف، دون أن تعرف لماذا عاملته بكل هذه القسوة. ها هي الآن تحسّ بشدة الندم. مَا مِن رجل سبق له أن تجشم الصعاب وقام من أجلها بمثل ما قام به هذا الغامض الغريب. لا أحد على الإطلاق من بين كلّ الذين عرفتهم وخرجت بصحبتهم إلى حدّ الآن.

3 دقائق

وماذا لو كنت أنا رجل حياتك؟

لا بدّ أن ما قام به هو دليل قوة وثقة لن تتحصلا له بالصدفة.

لقد ضيعت في لحظة كل شيء. لم تكن تعرف حتى اسمه، وليس بيدها الآن أيّ خيط يمكن أن يقودها إليه.

يا لكِ من بلهاء!

دقيقتان

واصلت جولتها على ضفاف الهودسون، على طول الساحة المحاذية لمنتزه أوبر باي. إنها في هذه الصبيحة الجميلة من أيلول لا تشعر بالحزن بقدر ما تشعر بالغيظ. وللتخفيف من حالتها، لا بد لها من فكرة من أجل رؤيته. فمن المحتمل أن يضيع منها إلى الأبد في أيّ مدينة أخرى من مدن العالم إلا نيويورك.

كل شيء فيها ممكن!

دقيقة

بكل توازن على حذاء التزلج، زادت من سرعتها. في الأفق ينتصب تمثال الحرية وجزيرة إيليس. إنها تحب هذا المكان، تحب هذه المدينة، تحب الريح التي تداعب وجهها، تحب النوارس المحلقة في سمائها، وتحب السرعة التي تنتشي بها. وتعبيراً منها عن فرحتها، أفردت ذراعيها وأطلقت صيحة ابتهاج، مزهوّة بإحساسها الغامر بحريتها، وشعورها الدافق بجمالها. إنها في غاية السعادة، ما دام في مكان ما من هذه المدينة رجلٌ يترقبها ويفكر بها، رجل يعشقها ويشتهيها، رجل قادر على أن يسابق الزمن من أجل اللحاق بها.

0 دقيقة

هذا الصباح، كان لظلّ الموت أجنحة.

*

سيلين

لاحقاً، كلّ من سيستفسرني عمّا كنتُ أفعله «في اللحظة التي وقع فيها هذا»، سأحدثه عن جولتي بحذاء التزلج، عن باتري بارك، عن زوي، وعن الأغنية التي كنت أستمتع بها.

لكني في ذلك اليوم المشهود، حين حدث ذلك، كنتُ في الحقيقة أفكر فيك.

*

- أمّي، تعالي لتري ما يقع!

نفس اليوم

في مسكن صغير أنيق بالضاحية الباريسية

فانسان، في السابعة عشرة من عمره، أشعل التلفزيون مباشرة بعد عودته من الثانوية ليتفاجأ على الشاشة بأناس يرتمون من الطوابق في الفراغ، وسط مشاهد القصف، والرعب، والأدخنة السوداء، وسحابات الغبار، وهول الدمار.

- أمّي، تعالي لتري ما يقع! برجا المركز التجاري العالمي! يدمران عن آخرهما!

على وجه السرعة، اقتحمت الأم ماتيلد الصالون، وظلّت لثوانٍ طويلة واجمة أمام الشاشة، معتقدة في بادئ الأمر أن ما تراه مشاهد من فيلم أو خدعة سينمائية، وما أن استوعبت ما يقع حتى صاحت بفانسان فجأة:

- أختك! سيلين في نيويورك!

*

بعد ساعة

بأنفاس متقطعة وعينين حمراوين، يطرق توماس باب المسكن

نفسه. رجلٌ في عقده السادس، ببذلة سوداء، وقميص مفتوح من دون ربطة عنق وسوار من جلد الفيل. رجلٌ يجمع في طبعه بين التكتم والمباهاة. إنه يطرق الآن باب البيت الذي كان هو صاحبه، قبل أن يترك زوجته ماتيلد قبل عامين، بعد أربع وعشرين سنة متواصلة من الزواج.

لا تزال إجراءات الطلاق بينهما متعثرة متباطئة، وابناه لا يزالان يقاطعانه منذ أن علما بوجود أخ لهما غير شقيق في شهره الثامن عشر. صبي صغير أنجبه مع تاتيانا، إحدى البائعات بالمتجر الذي يشرف على تسييره، وهو محل كبير لبيع الألبسة الجاهزة بشارع هوسمان. تاتيانا: شابة من أوكرانيا في ربيعها العشرين ببشرة ناعمة وقدّ ممشوق ارتأى أن يبدأ معها حياة جديدة. التقاها وهو في سنه الثالثة والخمسين، بعشرين كيلو زائدة على وزنه الطبيعي، وثماني عشر درجة في ضغط الدم، ونسبة مقلقة من الكوليسترول، مع إحساس بالانزعاج من أمارات الشيخوخة البادية عليه. كان يشعر أنه من الصعب عليه التقدم في السن بالثقة اللازمة، وهو محاصَرٌ بالخوف من الوهن والموت. وتحت تأثير الشابة السلافية تغيّر كل شيء في حياته بين عشية وضحاها، إذ استبدل أقراص ليكسوميل المهدئة بأقراص الفياغرا المهيجة، وأكل اللحم المحفوظ بأكلة السوشي، ومشروب سان إميليون بمشروب كوكا لايت، وحصص القنص برياضة المشي، وسيارة المرسيدس العتيقة بآخر صرخة من ميني كوبر.

في الوقت الذي كان يشعر بتدني قيمته بعيني زوجته، عثر على جمال في ريعان الشباب على مقاس ذوقه، أيقظ في دواخله مشاعر المراهقة التي طالما اعتقد أنها اختفت من حياته إلى الأبد. لقد تنازل عن حياة الرفاهية منصاعاً لغريزة الحياة، ككهل عاشق وأب

شاب، ووجد سعادته في العودة للتجدّد: ها هو من جديد بصحبتها يداً في يد، ومن جديد يُبادلها قبلاً محمومة على الشفاه، ومن جديد يندس بجانبها على سرير وثير لا يكفّ عن الصرير.

في كلّ ذلك، لم يكن غافلاً عن شيء: فهو يعلم أنّ الخلاص من هذه الحياة يبقى أمراً مشكوكاً فيه، لكنه في الوقت نفسه يقبل بركوب المجازفة، ويراهن مستقبلاً على قرابة عشرة أعوام من السعادة، عشرة أعوام سيكون خلالها قادراً على مجاراة إيقاع حياة شريكته الجديدة، عشرة أعوام سيعيش خلالها عمره اعتماداً على ما تحصّل لديه من خبرة، حيث يكون سوار سواروفسكي كافياً لإقناعها بأن تغفر له وهنه الجسدي في هذا السنّ الدقيق.

ولا يخفى عنه أنّ الدماء الجديدة التي ضخّها في عروقه كلّفته كثيراً الكراهية المبرّرة لزوجته السابقة التي تتهمه بسرقة حياتها الهانئة القائمة على الثقة، وعدوانية ابنيه، واستخفاف بعض أصدقائه الذين يعيبون عليه مراهقته المتأخرة بينما يغبطونه في سرّهم غيرة وإعجاباً

كانت ابنته سيلين ضمن أفراد الأسرة الوحيدة التي حرصت على معاملته كسابق عهدها. صحيح أنها لم تستحسن بالضرورة ما أقدم عليه، لكنها لم تدخل معه في خلاف من أجل ذلك. إنها سيلين التي تتفهم نوازع القلب وسطوة الانفعال على العقل، سيلين التي يحبها، سيلين التي قد تكون في هذه اللحظة بالذات قد رحلت إلى العالم الآخر دون سابق استئذان.

*

فتحت له ماتيلد الباب وعيناها مغرورقتان بالدموع، فسألها بلا مقدمات:

- هل من جديد؟

- حاولتُ غير ما مرة الاتصال بالفندق التي تقيم فيه، لكن إلى حدّ الآن لا أحد يرد على الهاتف.

- وهاتفها المحمول؟

- هاتفها غير مرتبط بالشبكة الدولية، ولذلك هو غير مشغل في الولايات المتحدة، لكن.

لم تستطع ماتيلد أن تكمل عبارتها، إذ غلبتها دموعها وانخرطت في النحيب، فصاح بها:

- ماذا بك يا امرأة؟

- لقد تلقيت مكالمة من والدَي زميلتها زوي.

- وماذا أيضاً؟

- أخبراني أن ابنتهما كانت تعتزم زيارة ابنة عمها التي تعمل في المركز التجاري العالمي.

غير معقول. . . لماذا في هذا اليوم بالذات؟

- ويعتقدان أن سيلين كانت بصحبتها.

هذه المرة، أكد توماس صحة الواقعة. التحق بالصالون حيث كان فانسان مع رفائيل أخيه البكر الذي لم يعد مقيماً ببيت العائلة. آخر مرة كان قد رأى فيها ولديه، تفجَّرت بينهم مشاداة كلامية كادت أن تصل إلى حدّ التشابك بالأيدي. وعلى أية حال، كل شيء الآن قابل للتجاوز في ظلّ هذا الاجتماع المقدّس من أجل سيلين. قبَّلهما دون أن يجرِ أحد منهما على الممانعة. ودّ لو كان بيده فعل شيء، لكنه يشعر بالعجز التام، وليس بوسعه سوى الانتظار وتحمّل ثقل الساعات الموالية العصيبة. ظلّ الهاتف يرن كلّ دقيقتين: العائلة، الأصدقاء، كلهم يتساءلون في قلق إن كانت سيلين في نيويورك. كان

يجيبهم باقتضاب طالباً منهم التوقف عن الاتصال لتحرير الخط لاستقبال مكالمات واردة بالجديد من هناك.

ظلوا جميعهم رابضين أمام التلفاز بقلق متزايد كما لو كانوا يترقبون أن يُعرَضَ على الشاشة خبر محتمل عن موت سيلين، إذ يجري الحديث في هذه الأثناء عن مقتل الآلاف، دون أية إفادة عن وجود فرنسيين من بين القتلى. لكن كيف لا يكون فرنسيون ضمن الضحايا؟ وسمعوا لأول مرة كلمات سيعيش العالم انطلاقاً من هذا اليوم على إيقاعها على مدى العشرية الموالية: الحرب على الإرهاب، بن لادن، القاعدة.

تكوّمت ماتيلد مع ابنيها متلاحمين على الأريكة في حالة إرهاق، وكلّ منهم بين الحين والآخر يعبِّر عن سورة غضب أو نوبة قلق أو فسحة أمل، بينما اكتفى توماس باختلاس النظر إليهم من مجلسه في الطرف المقابل. غريبة هذه الهدنة غير المعلنة، وهذا التحفّظ المضمر عن الضغائن والأحقاد الدفينة، وهذا الإحساس بالعودة إلى دفء «الكنف العائلي». كيف انمحى بينهم في ساعات معدودة كلّ هذا الجفاء الذي تغلغل في قلوبهم من جراء الفراق؟! لم يعُد في المشهد سوى أبوين مستعدين للتضحية بكل شيء من أجل حياة ابنتهما، وأخوين ينهشهما القلق من أجل مصير أختهما.

لماذا يجب دائماً انتظار الأوقات العصيبة المقترنة بأخبار النعي والحوادث الجسام والأمراض العضال لنزع فتيل الصراعات والحروب؟

*

وأخيراً، في الثانية صباحاً، جاءت المكالمة الميؤوس منها.

كان هو من تلقّف السماعة. وحتى قبل أن تتلفّظ بكلمة واحدة

على الطرف الآخر من الخط، عرف أنها هي مَن تتصل: سيلين الصغيرة، تلك التي كان يحملها على كتفيه وهي في الثالثة من عمرها، تلك التي كان يرافقها إلى المدرسة أو حصة الرقص، تلك التي كان يساعدها في إنجاز فروضها المدرسية، تلك التي كان يواسيها في لحظة حزن أو قلق.

ما أن سمعها حتى شغّل مكبر الصوت، وبدأ صوتها يتردّد ليشيع في أرجاء الصالة جواً من الطمأنينة أقوى من حالة الانفراج. وهو يحدِّثها انتابه إحساس بالفرح كما لو كان يتلقى خبر مولدها من جديد، وتاق الجميع للحديث معها لولا أن غلبتهم مشاعر التأثر وأجهشوا بالبكاء. لقد أجرت المكالمة انطلاقاً من القنصلية الفرنسية، ولم يكن بالإمكان أن تتواصل طويلاً وقبل أن تقطع الخط بثوانٍ انطلقت عاصفة في حمأة الحب والتوق للحياة عاصفة من التصفيق والهتاف: كلنا نحبك يا سيلين، يا سيلين كلنا نحبك.

بمجرد أن وضع السماعة، حتى التحم الأربعة مع بعضهم في عناق صامت حار كما لم يحدث بينهم منذ فترة طويلة.

*

الساعة 3 صباحاً

التحق توماس بماتيلد في الشرفة.

كانت تدخن سيجارة. تلك سيجارتها الأولى بعد انقطاعها سنوات عن التدخين.

- أحتفظ دائماً بعلبة سجائر في المطبخ.

- تحسّباً للأوقات الصعبة؟

- تحسّباً لأوقات الحزن أو الفرح.

تناول بدوره سيجارة مارلبورو. وكان هو الآخر في حالة انقطاع

عن التدخين «رسمياً» منذ وقت طويل، لكن هذه الليلة ليست كباقي الليالي.

بالتقاء ناظريهما أخيراً، ارتسمت على شفتيهما ابتسامة فاترة، وشعّ بعينيهما الدامعتين بريق هادئ. ثم ما لبثا أن جلسا معاً يدخنان في جوّ بطعم لقائهما المفتقد. وبعد لحظة، قال لها:

- والآن سأنصرف.

ارتدى سترته، وقصد سيارته المركونة آخرَ الزقاق المبلط بالحصى، بينما وقفت هي تتابعه من شرفتها.

وما أن رمى بضع خطوات حتى التفت نحوها، وأشار إليها بتلويحة بيديه.

بعدها، تردّدت ماتيلد لحظة قبل أن تهتف له:

- اِلزم الحذر وأنت في طريق العودة.

*

مانهاتن، بعد ثلاثة أيام
الجمعة 14 سبتمبر 2001
الساعة 19 و50 دقيقة

طلب إيثان قطعة حلوى الـ«تشيز كيك» وإبريقاً من الشاي قبل أن يجلس في مكانه المألوف لمائدة صغيرة من الرخام بقلب القاعة.

يشبه مقهى زافارسكي، الموجود في وسط ويست سايد، مقاهي فيينا بدايات القرن العشرين، بديكوره العتيق، حيث الجدران مزينة بمرايا صقيلة ولوحات فنية مستنسخة لأعمال الفنان غوستاف كليمت. يُقبِل روّادها بشهية على ما يُقدّم لهم من أطباق الكعك باللوز، منصتين إلى عازف الكمان بقلب الصالة وهو يستعيد أجواء تلك الحقبة بمعزوفات من مقاطع لموزارت وباغانيني وسانت سايين.

صبّ إيثان من الإبريق فنجان شاي، أخذ منه رشفة وبصره ساهِمٌ عبر النافذة. مرّت إلى حدّ الساعة ثلاثة أيّام على الكارثة، وبدأت الحياة تستعيد وتيرتها بالتدريج. وفي الشارع، كما في كل أرجاء المدينة، سعت أسر المفقودين لتعليق آلاف الملصقات بآلاف الوجوه المغمورة التي لم يعد يظهر لها أثر منذ صبيحة الثلاثاء. وفي جنوب المدينة، كانت لا تزال النيران كامنة تحت الأنقاض مشيعة رائحة كريهة للمطاط المشتعل والجثث المحترقة. ومن دون توقف لا يزال رجال الإطفاء يواصلون عمليات التنقيب تحت الدمار على قتلى أو أحياء محتملين، لكن دون تسجيل أية حالة إنقاذ أو العثور على المفقودين منذ يوم الأربعاء.

من الجهة المقابلة على الرصيف، على سور صغير، لا يزال المارة يضعون باقات الأزهار ورسوم الأطفال والشموع إكراماً لذكرى المفقودين من ساكنة الحي. وإيثان يتابع من خلال النافذة المدَّ المتواصل من العابرين الذين يتوقفون أمام هذا النصب التذكاري المرتجل للاستغراق في لحظة خشوع لدقائق تأثراً بمصير الضحايا الذين لم يسبق لهم أن صادفوهم في الغالب ولو مرّة.

من جيبه الداخلي، سحب إيثان قلمه ومذكّرته لتدوين بيت شعري لييتس قرأه قبل لحظات ملصقاً على عمود بالقرب من ممرّ الراجلين: **أنا فقير، لم يبقَ لي غير أحلامي. أبسِطُها تحت قدميك. فامشي الهوينى، لأنك تمشين فوق أحلامي**. إنه مسلك جديد بدأ يشيع في كل مكان، إذ بدأ الناسُ يهتمون بنقل الأشعار وإلصاقها على واجهات المحلات وأعمدة النور ومواقف الحافلات. كل ذلك من أجل تخفيف الصدمة وإذكاء روح المواساة.

أخرج كتاباً من حقيبته. عبارة عن رواية اقتناها في الظهيرة في

أثناء استراحة الغذاء بعنوان **كائن لا تُحتَمَل خفّته** لميلان كونديرا. هو الكتاب نفسه الذي كانت تقرؤه بالمطار تلك الفتاة التي دمّرته. ورغم المعاملة المهينة التي قابلته بها لا يزال يتشبَّث بذكراها، وحتى في غمرة الغليان الذي شهده في الأيام الأخيرة ظلّ وجهها لا يفارق مخيلته أبداً.

ومع ذلك، منذ عودته من باريس لم تفرغ عيادته من الزوار، حيث إن آثار تدمير البرجين لم يسلم منها أحد، ولا بد أنّ لكلّ واحد فقيداً أو قتيلاً قضى تحت الدمار، والكثيرون منهم أحسّوا بالحاجة إلى المصاحبة النفسانية، في محاولة لاستعادة القدرة على مواصلة الحياة، تحت طائلة الخوف من تكرار المأساة، في أجواء من الارتياب والخلاف والنظر إلى العالم نظرة جديدة، موزعين بين الهروب من الواقع والتعطّش للحياة، وكلّ واحد منهم منشغل بكلمة «أحبك» أكثر من أيّ وقت مضى.

وهو؟

منذ عودته إلى نيويورك وهو يعاني من ثقل الوحدة، وإن كان يرفض الاعتراف بذلك فهو لا يفتأ يشعر بالنقص العاطفي. وللهروب لحظة من واقعه، يقلب صفحات روايته ويتوغّل أكثر في تفاصيلها ليقف منها على هذا المقطع:

إن الرجال المهووسين بمطاردة النساء يمكن تقسيمهم بسهولة إلى صنفين: أحدهما يبحث في كلّ النساء عن حلمه الخاص وتصوّره الذاتي للمرأة، والآخر مسكون برغبة امتلاك التنوع المطلق للعالم الأنثوي الموضوعي.

بغتة سمع صوت امرأة يسأله:

- هل هذا المقعد فارغ؟

حرّك رأسه بالإيجاب، دون أن يرفع عينيه ليتبيّن صاحبته، ظنّاً منه أنها إحدى زبونات المقهى تريد ببساطة سحب المقعد من مائدته إلى مائدة أخرى. ثم تفاجأ بوضع شيء أمامه: هدية من الشوكولاتة وعجين اللوز على شكل باقة ورد هائلة مرفقة ببطاقة زيارة. هي البطاقة نفسها التي تركها للحلواني بالمطار.

هكذا رفع عينيه و. سألته سيلين وهي تجلس قبالته:

- هل تؤمن بالحب الكبير؟

حدَّق فيها بنظرة حادة وهي تتابع:

- ولا أنا فقط قبل ثلاثة أيّام لم أكن أؤمن بذلك.

16

لا تسمح لي بالرحيل أبداً

من الأكيد أنني سأسبب لك ألماً.
ومن الأكيد أنك ستسببين لي ألماً

أنطوان دو سانت-أكزوبيري، **رسالة إلى ناتالي باليه**

الأيام السعيدة:
سبتمبر 2001 - أكتوبر 2002

إيثان

عادة ما يقع الحبّ دون سابق توقّع، تماماً كحادث كسر. يحدث في لحظة خاطفة، وبعدها لا وجود لأيّ شيء يُذكر. كلّ شيء يصير فجأة خارج الزمن، وخارج القاعدة، وبذلك ينتفي من الحياة كلّ إحساس بالخوف.

سيلين

فجأة ينضرم في حنايا القلب لهيب، فيستبدّ بالرأس دوار، ويتمدَّد في تجاويف البطن فراغ. إذّاك نحيا انعدام الجاذبية بقلب مرتجف وأفكار مشتتة **رأساً على عقب**.

إيثان

فجأة يدبّ في عروقك دم الحياة، وينبعث بصدرك نبضُ قلب جديد،

وتنبثق برأسك أفكارٌ في غاية الصفاء، لأنّ المرأة التي تحبّها قد حرّرتك من نفسك.

تستبدّ بك الآن شهوة لملمسها، لشفتيها، لعبير شعرها. ومن الآن كلّ المفاتيح صارت بيديها.

مفاتيح الجنة، ومفاتيح النار.

سيلين

من دونه الآن ليس بوسعكِ سوى الانتظار، لأنه يجعلكِ تَحيَيْنَ بسرعة، تحيَيْن بقوّة. ستسكرك حتماً هذه الصحبة التي ستتحوّل إلى تعلق به. لأنك في قرارة نفسك لم تتطلعي لغير ذلك: بوح القلب ودفق النجيع.

إيثان

في الخارج تعمّ الفوضى، والبرد، والرسائل الملغمة بالجمرة الخبيثة، واجتياح أفغانستان، وقطع رأس الصحافي دانييل بيرل. لكنك أنتَ لا تعيش في هذا العالم. لقد بنيتَ لنفسك ملاذك الخاص، ومملكتك الهادئة التي لا يسكنها غيرُ اثنين.

سيلين

كل شيء في ليالينا الأميركية يتحوّل إلى تقاسم بيننا وانقطاع عن العالم. رأسي المسنودُ إلى كتفه. شعرُنا المتشابك على الوسادة، الموسيقى المخنوقة في دم شرايينه. خفقان قلبي الممزوج بخفقات قلبه.

إيثان

يومان فقط تفصلنا عن رحلتها الجوية القادمة. كلّ مرة أرافقها إلى

المطار، يواجهني السؤال نفسه: مِنْ أين لي القدرة على انتظار عودتها بعد خمسة عشر يوماً كاملة؟

وأنا عائد إلى مانهاتن من المطار، لا أزال أتلذّذ طعم قبلتها على شفتي.

أتصفّح الكتاب الذي أهدتني لأتوقف عند جملة مسطورة بقلم الرصاص أضحكتني: **هل الحب هو الذي يحولنا إلى أغبياء، أم أن الأغبياء هم وحدهم من يسقطون في فخ الحب؟**

سيلين

كلّ مرة أتركه في نيويورك أبقى وحيدة ينهشني الفراغ. وفي مطار رواسي عند الوصول يستبد بي الحزن وفتور الحياة المتصاعد في البُعد عنه.

وفي المساء، أجدني فريسة للوحدة، فأستلقي في سريري، وأبسط من مخيلتي شاشة عملاقة لأكون أمامها المتفرجة الوحيدة على المشاهد المتعاقبة بلا نهاية من لقاءاتنا الحميمة.

إيثان

كنت بانتظارها في المطار، وما أن رأتني حتى ركضت مسرعة لملاقاتي. أحسستُ بجسدي في حالة انعتاق بيولوجي كانعتاق خليط هورموني من الفيرمون والأدرينالين. كان هذا أجمل ما عشته ماضياً، وما سوف أعيشه لاحقاً. أجمل ما في حياتي، أجمل حتى من لحظة استمتاع بمعزوفة حالمة لموزارت وأنا في مقعد بالصف الأمامي في حفل موسيقي باذخ.

سيلين

عطلة رأس السنة بنيويورك.

المدينة غاصة عن آخرها، وعلى الرغم من ذلك تبدو الحركة فيها شبه مشلولة بفعل البرد القارس. لأسبوع كامل لم نغادر الشقة التي يملكها إيثان بغرينتش فيلادج؛ وهي شقة صغيرة لا تتجاوز أربعين متراً مربّعاً من دفء السعادة كمساحة كافية لأرض حبنا وكان بإمكاننا أن نرقب من النافذة الأضواء الوامضة، وندف الثلج المتساقطة ومسحات الجليد على الواجهات الزجاجية، ونحن ننعم في الداخل بحرارة جسدينا المنغمة بحرارة أنفاسنا

مرّاتٍ أعددنا معاً مأدبة من الحلوى والحليب بالشوكولاتة.

تقاسمنا متعة القراءة والاستمتاع بالموسيقى بجوار الموقد.

كتبه في السيكولوجيا، وكتبي روايات باتريك موديانو.

معزوفاته المفضّلة بالساكسو، وألبوماتي الأثيرة لبول دافيد بونو.

إيثان

«لأني أحبك».

سيلين

في اليوم الموالي، كان أن باح لي أوّلَ مرّة بحبه. وفي اليوم نفسه قصدتُ محلاً صغيراً للوشم في إيست فيلادج، واستسلمت للأبر تنغرز في كتفي لتنقش بلمساتٍ خفيفة منمنمة من الأرابيسك، على شكل علامة هندية كان يستعملها أفراد إحدى القبائل القديمة تعبيراً عن جوهر الإحساس بالحب،

مقرونة بعبارة دالة: «تغلغل الحب بأعماقي إلى الأبد، وأصابني كالسّمّ الناقع بعدواك». هو الوشم نفسُه الذي سأظلّ أحمله على جسدي زاداً في سفري لمواجهة تصاريف الحياة حين تصير أقل هدوءاً ممّا هي عليه.

- هل تشعرين بالألم؟ سألني الواشم، وأنا أنظر للإبرة تضخّ حبرها تحت جلدي.

مؤلم ومهدّئ

مثل الحب تماماً.

الأيّام العسيرة

من أكتوبر 2002 إلى اليوم

إيثان

ما يخامرني الآن أكثرُ من مجرد حدس، إنه يقين، يقين مرعب غير متوقع: أنتَ تشكل خطراً على سيلين، لأنك تحمل الموت بداخلك. لقد اكتسحتك هذه القناعة بغتة والتصقت بك كلوثة لعينة، تتعقّبك في نومك وتهدّ جسدَك عن آخره بنوبات الصداع الفظيع الذي يشق عليك حدَّ الغثيان، وبتلك الرؤى المفزعة الجاثمة عليك وأنت في تمام العجز عن التخلص منها. هي ليست حالة اكتئاب، ولا هذيان أو نزوة شاذة، بل هي قوة خفية مجهولة، قاهرة مرعبة، لا يمكننا التساهل معها. إنها علامة وافدة من مكان ما لا نريد أن نقصده، صادرة عن شخص ما لا نريد أن نعرفه، بمثابة حالة طارئة ليس بوسعنا سوى الاستسلام لسطوتها دون محاولة استيعابها. إنها صوتٌ لا يفتأ يهمس بأعماقي بلا انقطاع: إذا كنتَ تريد الحياة لها، فارحل عنها.

سيلين

لن أشفى من هذا الحب. لقد سلبتني النور واليقين ونسغ الحياة. صارت أيامي فراغاً وحياتي موتاً. أنا الآن أحاول فقط أن أتظاهر بالتماسك، والقدرة على الابتسام والإنصات والردّ على الأسئلة. ومع الأيام لا أزال أنتظر منك إشارة أو علامة. أنتظر منك مساعدتي على الخلاص من هذه البؤرة السوداء التي تركتني متورِّطة فيها ومن كلّ ذلك أنتظر منك أن تكشف لي عن السبب الذي لا أزال أجهله إلى حدّ الآن.

ترى لماذا تخليت عني؟

إيثان

بقلب مهشّم، انحدرتُ على طول الشارع 5، منقاداً وسط مدّ جارف من جموع العابرين وجهاً غريباً عن الحياة. لأوّل مرة أحسّ أنّ طاقة المدينة تدمّرني، وأنها لا تحملني طوعاً، بل تدفعني قهراً. وإلى عهد قريب، كنت أظنّ بأني في معزلٍ عن الحب والمعاناة والعواطف الجيّاشة.

وواقع الأمر أني لم أكن في مأمن من كلّ ذلك.

سيلين

أمُرّ الآن بحدائق الإليزيه، وأنا أتجول بباريس في عزّ شهر نوفمبر، مغمورة بالحزن تحت زخات المطر، رغم المصابيح والأضواء التي يَجِدّ العمّال في تثبيتها استعداداً لاحتفالات رأس السنة. أمشي وسط المارة غير عابئة بالنظرات، ولا بالعشاق يداً في يد يتبادلون القبلات. أكيد عندما نخسر الحب نخسر معه كلّ شيء.

أنا في قلعة الوحدة.

أنا في عاصمة الألم.

يقفز إلى ذهني الآن مقطعٌ شعري يعود بي لذكرى من ذكرياتي في سنة 1992، حين كنتُ لا أزالُ تلميذة في قسم البكالوريا بثانوية بول إيلوار. ومعه تطفو على سطح أفكاري جملة راسخة لم يكن بمقدوري حينها أن أدرك لها قيمة أو مغزى، إلى أن صارت مع توالي السنين تملك عليّ كل مشاعري.

كنتُ أكثر قرباً منك إلى حدّ إحساسي بالبرد قربَ الآخرين.

17

فتاة من نيويورك

أن تكون مراهقاً، معناه أن تفطن إلى أنك أقلّ ارتياحاً ممّا ترسّخ بتأثير من الآخرين في اعتقادك؛ وأن الحياة بفعل ذلك، ليست بالضرورة هنيئة كما تصورتها في خيالك.

مارسيل روفو

مانهاتن اليوم
السبت 31 أكتوبر 2007
الساعة 9 و40 دقيقة

ضغطت ليزي على زر آلة التحكّم للرفع من صوت التلفاز. لم تصدّق عينيها : إيثان يتخلّف عن البرنامج التلفزي الذي كان مدعواً إليه، ويظهر بدلاً عنه ستيفن أوستن، عدوّه اللدود، وهو يجيب عن أسئلة الصحافية بقناة إن بي سي.

كان يتحدث على غرار الممثل كلارك غيبل بصوت وقور رصين، ونظرة قوية ثاقبة، متقمّصاً دور بطولة رخيصة، مستغلاً هالته في الإغواء رغم تقدّمه في السنّ.

لكن في مواجهة مَن؟

- لقد بالغت في الاستفزاز! عقبت ليزي.

بسترته الفاتحة وقميصه المشرع على صدره ولحيته الخفيفة، انبرى أوستن بمهارة مخادع موهوب في التبجّح بمزايا كتابه الأخير. لقد قضى عشرين عاماً في إدارة الأعمال؛ وبحكم تمرّسه في المجال بدا وهو يتحدّث عن خصمه أنه يحفظ أساليب التأثير عن ظهر قلب: صلفٌ مغرور، لم يؤمن أبداً بما يكتبه، وعلى شاشة التلفزيون يعمل جاهداً على إخفاء هذه الصورة. كان من الظاهر أن هذا الدونجوان الرخيص يكره إيثان باعتباره سبباً في تدني شعبيته. وفي الفترة الأخيرة لم يكفّ عن توجيه ضرباته التي كان أقواها في اعتقاده الإسراع في الحضور بدلاً عنه في هذا البرنامج الحواري الصباحي الذي يستأثر بنسبة مشاهدة جدّ لافتة!

استبدّ بليزي القلق لغياب مشغلها عن البرنامج: لا يمكن لإيثان أن يترك مكانه لأوستن إلّا لطارئ فادح.

حاولت الاتصال به، لكنها لم تكن تجد سوى المجيب الآلي.

غريب.

تُرى ما الذي حصل له حتى يتخلّف عن هذا البرنامج الذي يحظى بمتابعة عالية؟ هل مجرد استغراق في النوم؟ أم إفراط في الشرب؟ أم تمادٍ في سهرة انتهت بسوء العاقبة؟

وزادت توجّساتها أكثر إلى حدّ احتمال الأسوأ. مَن يدري أن يكون ضحية اعتداء، أو جرعة زائدة من مخدر قوي، أو إقدام على الانتحار.

منذ أسابيع، وليزي تستشعر بحدسها مأساة وشيكة الوقوع، وترى بوعيها أنّ حياة إيثان تنزلق يوماً بعد يوم نحو الهاوية. وممّا يبعث على حيرتها أنّ حالته لم تكن مجرد حالة إرهاق أو فتور، إذ من الظاهر أنه قد فقد حماسه ولم يعد يؤمن لا بنفسه ولا بأفكاره.

وبدأت تَراه، من موقع المتفرّجة العاجزة، وهو يسقط فريسة لنوبات اكتئاب حادّ، ويقطع كلّ الجسور المفضية للجانب المشرق في شخصيته. هكذا تركته يتقوقع في بقعته الجليدية العزلاء يعاني مرارة الألم والوحدة.

هذا ما كانت تفكّر فيه حين قطع عليها رنين الهاتف فجأة حبل تداعياتها، لتتبيّن رقم إيثان على شاشته. سارعت في الحال لالتقاط السماعة دون انتظار رنة تالية، فجاءها صوته ليقول لها كعادته:

- سأكون بالمكتب خلال دقيقة.

*

وما أن رأته حتى بادرته بالسؤال:

- ماذا وقع لك؟

- لن تصدقي لو أنني قلتُ لك أنني بُعثتُ من جديد.

- هل أنت سكران؟

هز إيثان كتفيه تجاهلاً، وقد لاحظ أن ليزي ليست بمزاج رائق:

- كنتُ أعرف مسبقاً أنكِ لن تصدقيني.

- تصور أني قلقت لأجلك كثيراً!

وتابعت وهي تشير إلى التلفاز:

- وماذا عن هذا البرنامج الذي تخلفتَ عن حضوره؟ أكيد أنّ وكيلك الإعلامي سيكون متذمراً للغاية.

نظر إيثان إلى الشاشة مبتسماً:

- لا أحد غير قابل للتعويض. لقد تركتُ مكاني لهذا العجوز أوستن الذي يتدبر الأمور بشكل جيد. إنه دائماً في حالة هجوم، دائماً على أهبة حرب!

- أيُسَليكَ هذا؟

- أجل، يسليني أن أراه في موقف هزلي فرجة للجميع.

- لقد تغيرتَ كثيراً. كنتَ رجلاً آخر، أو ربما لم أكن أنا أرى الأشياء بوضوح.

عادت إلى مقعدها خلف مكتبها، أطرقت رأسها تفرك عينيها، وقد بدا عليها التردّد قبل أن تقول له:

- أنصت إليّ. عليّ أن أقول لك شيئاً مهماً.

- لك أن تقولي ما تشائين، لكن قبل ذلك دعيني لحظة أكلمها

- من تقصد؟

- تلك الفتاة الجالسة بقاعة الانتظار.

ردّت عليه باندهاش:

- لا وجود لأحد بقاعة الانتظار. لقد طلبتَ مني عدم برمجة مواعد الزيارة هذا الصباح.

- بل هناك مراهقة بانتظاري تُدعى جيسي، أنا على علم بذلك لأني شاهدتُ هذه.

اتجه مباشرة إلى قاعة الانتظار، فتح بابها بقوة ليفاجأ بأنها فارغة.

مستحيل. . . إذا كان هذا اليوم يوماً مستعاداً، فمن المفروض أن تكون جيسي هنا.

رأت ليزي في هذا التصرف من إيثان علامة منذرة بالأسوأ، فلم تتردّد في جمع بعض أغراضها لتدسّها في حقيبة يدها، وتهمّ بالمغادرة، قبل أن تتوقف فجأة عند عتبة الباب ملتفتة إليه:

- سأبقى مدى الأيام مدينة لك بكلّ شيء. لو لم أصادفك في حياتي لبقيتُ إلى حدّ الآن مجرد عاملة نظافة تعاني من البدانة وتداري بؤس أطفالها في مدرسة عفنة.

قطّب إيثان حاجبيه مشيراً إليها بحركة من يديه بضرورة البقاء. لكن ليزي صدّته بلهجة حادة حاسمة:

- كنتَ تطلب مني القيام بكل شيء، وما ترددتُ يوماً في تنفيذ شيء أمرتني به، أو ترددتُ في الذهاب إلى مكان وجَّهتني إليه. كنتُ أفعل ذلك امتثالاً لك بوصفك شخصاً مميزاً موهوباً يحظى بثقة الآخرين. لكنك الآن للأسف بصدد تبديد هده الموهبة عبثاً صرتَ منذ فترة بملامح إنسان ضائع: ما عدتُ قادرة على فهمك، ولا عاد بوسعي مدّ يد العون إليك. لذا أنا الآن أترك لك الاختيار: إما أن تتماسك لنواصل طريقنا معاً، أو تبقى على ضياعك وكلّ منّا في طريق. وفي انتظار أن تتخذ القرار، سآخذ هذا اليوم عطلة.

وبعدها، صفقت الباب خلفها وتركته لوحده.

*

خلال ثوانٍ لم تصدر عن إيثان أية ردّة فعل، مصدوماً بانسحاب ليزي وغياب جيسي. وعلى نحو بافلوفي مشروط بالعادة، أشعل سيجارة لتنشيط تفكيره وتقوية تركيزه. في البداية، وجد أن وقائع يومه تتكرّر بشكل مطابق لما سبق أن عاشه ورآه من قبل: المرأة النائمة في سريره، سيارته المخدوشة، المقالة المنشورة بالجريدة، حركات الناس في تايمز سكوير. لكن بدأ مسار الوقائع ينحرف عن سكَّته المرسومة سلفاً: لماذا لم تأتِ جيسي لمقابلته؟ استحضر إيثان في ذهنه نظرية الفوضى الشائعة في مجال السينما والرواية، إذ يكفي سبب بسيط لتحويل الأمور إلى نتائج غير متوقعة من شأنها تكسير أفق انتظار المتلقي، ومن خلال هذه النظرية استحضر أيضاً صيغة بنيامين فرانكلين التي حفظها صغيراً وهو تلميذ في المدرسة:

بسبب المسمار، خسرنا الحديد.
بسبب الحديد، خسرنا الحصان.
بسبب الحصان، خسرنا الفارس.
بسبب الفارس، خسرنا المعركة.
بسبب المعركة، خسرنا الحرب.
بسبب الحرب، خسرنا الحرية.
كل هذا خسرناه بسبب مسمار.

لماذا تخلّفت جيسي عن المجيء إلى عيادته طلباً للمساعدة؟ تُرى ما الذي صدر عنه في بداية يومه خارج المسار المرسوم كما عاشه حتى يتغيّر مجرى الأحداث بهذا الشكل؟ أغمض عينيه، وبدأ يستعيد ذهنياً بعضاً من محاوراته معها في أول لقاء بينهما. **كنتُ أعتقد أن مهنتك هي مساعدة الناس/ الحياة تكون أحياناً جائرة قذرة/ أنت من جئتُ خصيصاً لمقابلته/ كم وددتُ لو أنك قبلتَ بمساعدتي/ أريد أن أتخلص من خوفي إلى الأبد/ مِمَّ أنتِ خائفة؟/ من كلّ شيء/ قبل قليل فقط على شاشة التلفزيزن كنتَ تبدو في غاية اللطف والوداعة/ . . .**

كنتَ تبدو في غاية اللطف على شاشة التلفزيون. نعم، هذا ما تغيّر. في المرة الأولى كان عليها أن تشاهد البرنامج الذي لم يحضره هذا الصباح، وهو ما أقنعها بضرورة المجيء إلى عيادته. حاول إعادة تركيب السيناريو من جديد: مراهقة في أسوأ حال، على استعداد للانتحار، سَمِعَت به من خلال وسائل الإعلام، وعثرت على عنوان عيادته في شبكة الإنترنت، تتردّد في الصعود ثم تأخذ قرارها بعد مشاهدته مباشرة في البرنامج التلفزي، لو تسلسلت

الوقائع على هذا النحو، لن تكون جيسي بعيدة من هنا. إنها من دون شك في فضاء عمومي مجهز بشاشة موصولة بقناة إن بي سي.

من الأكيد أنها في مقهى قريب.

اندفع على الفور متوثباً خارج العمارة. من المعتاد نهاية الأسبوع أن يكون هذا الجزء من حي الأعمال المشرف على الميناء في طور الانتعاش تدريجياً. إنها نيويورك كما تظهر في البطاقات البريدية، حيث ناطحات السحاب المتكدّسة بجوار بعضها، والمنظورات المتراكبة والتموّجات الفضيّة المتلألئة تحت خيوط الشمس المشعّة.

أدار إيثان ظهره للشمس بشكل عفوي، وتوغل في المنطقة، حيث تشقّ الأزقة الضيقة قنوات مرور للعابرين وسط دغل من العمارات المدعّمة بالإسمنت والفولاذ والزجاج.

نظريّاً، عليه أن يقتحم كلّ مبنى يبدو له، عن قرب أو بعد، على شكل مقهى: ستاربكس في وول ستريت، مطعم سوشي، حانة فندق، محل وجبات في شارع فليتشر. كان قد بدأ يشعر بالتعب، وارتأى التوقف عن رحلة البحث حين لمح لافتة وامضة. مقهى ستورم: على اللافتة الشعار نفسه الذي لاحظه يزيّن المنديل الورقي الذي تركته جيسي ملقى بقاعة الانتظار.

ها قد عثر عليها أخيراً في هذا المقهى في شارع فرونت، جالسة إلى مائدة بقرب النافذة. نظر إليها من خلال الزجاج ولم يستطع إخفاء تأثره. كانت لا تزال حيّة. دائماً هي الفتاة الهشة الفتية نفسها ببشرتها الشقراء لا تزال حيّة. ظلّ لدقائق يرقبها بقلب مفعم باطمئنان لم يكن يتوقعه، بعد أن عاش ساعات من الحداد عليها لينعم برؤيتها حية مرة أخرى. طيفها المرتعش، على بعد أمتار منه،

محا في لمح البصر كلّ الصور التي ترسبت في ذهنه: طلقة النار، الدم، الرعب، ويدها بيده في آخر لحظة من احتضارها. هي ذي حيّة، لكنها شاردة، قاتمة متقوقعة بعينين ساهمتين في الفراغ، بعيداً عن العالم والحياة. ويظهر على المائدة، بجانب كأس ماء، مقال نيويورك تايمز مقطّعاً أمامها على شكل قصاصة بعنوان بارز:

المعالج النفساني الذي فتن أميركا

عقد العزم على ألّا يكتفي بأن يكون شاهد عيان على مأساة معلنة، ودفع باب المقهى مندفعاً إلى الداخل، وفي قرارة نفسه إصرارٌ ليؤكد، بدل التباهي بكونه فاتن أميركا، على المجيء إلى هنا خصيصاً لمحاولة إنقاذ فتاة شابة من حتفها المحتوم.

- سلاماً جيسي، هل تسمحين لي بالجلوس؟

مندهشة، رفعت الفتاة بصرها إلى الرجل الواقف أمامها. لم يتمهّل في الجلوس دون إذن منها، واضعاً على المائدة صينية بها فنجانا قهوة، وكأسا عصير برتقال وعلبة كعكٍ متنوعة.

هذا لأجلك. أراهن على أنك جائعة.

- هل. هل تعرفني؟

ردّ عليها وهو يشير إلى مقال الجريدة أمامها:

- إذا عرفتِ مَن أكون، يمكنني أنا أيضاً أن أعرف من تكونين.

نظرَت إليه بتوجّس وحيرة، وقد بدا عليها العزم على الدخول في هذه المواجهة التي تخيّلتها غير ما مرة.

لاحظ إيثان لباسها المدعوك وشعرها المتّسخ المنفوش، ولم يفته أن يلاحظ أظافرها المقضومة وآثار الإرهاق المحفورة على

وجهها. كان من الظاهر أنها لم تقضِ الليلة الفارطة في سريرها، والراجح أنها لم يغمض لها جفنٌ بالمرة.

وبنظرة خاطفة، لمح حقيبة يدها الورديّة الشاحبة من نوع إيستباك على المقعد بجانبها، الحقيبة نفسها التي من المفروض أن يكون بها السلاح العازمة على استعماله من أجل وضع حدّ لحياتها.

- بلغني أنكِ تودّين مقابلتي. أليس كذلك؟

- كيف عرفتَ ذلك؟

أحسَّت حشرجة بحلقها، وحاولت على سبيل المداراة تغيير نبرة صوتها المشحون حزناً أكثر منه تمرداً. إلّا أنه بادرها:

- أنصتي. أعرف حجم الألم الذي تعانين. ومقدار الخوف الذي تكابدين، وأعلم أنك ترين الحياة غير جديرة بأن تُعاش.

حاولت أن تتكلم، ولم تُسعفها شفتاها المرتجفتان في الحديث، فواصل إيثان:

- ومع ذلك، مهما بلغت بك مشاعر القلق وتزايدت معاناتك، لا يجب أن تنسي ألّا شيء في الحياة سهل المأخذ، وألّا وجود لمشكلة دون حلّها الأنسب.

- أهذا الكلام المنمّق هو الوصفة التي تقدِّمها لمرضاك؟

- لا، بل هذا ما أؤمن به في حياتي فعلاً

نظر إلى عينيها، فطالعه بريق فضّي متماوج من حدقتيها الواسعتين:

- أعرف أنك في هذه الآونة تقعين أحياناً فريسة لخوفك من الحياة أكثر من خوفك من الموت. وأعلم أنك في سبيل الخلاص من هذه المعاناة تلجئين في الغالب أكثر فأكثر لخيالك. لكن ما يغيب عنك أنّ خيالك الآن هو بصدد تدميرك.

ظلّت جيسي حريصة على متابعة حديثه، وهي واجمة في مكانها بجمود مثل تمثال من حجر:

- لا يجب أن تصيخي السمع لهذا الصوت المتردّد بداخلك بمديح الموت وكأنه الحلّ الوحيد أمامك. عليك بشجاعة المقاومة بدل الاستسلام للهزيمة. فالموت ليس الحلّ الأنسب للخوف والمعاناة.

- كيف لكَ أن تعرف ذلك؟

أخرج إيثان علبة السجائر وألقى بها على الطاولة:

- لأني سقطتُ قبلك في معاناة مماثلة.

لم تفهم جيسي بالمرة قصده، غير أنّ عبارته الأخيرة قادتها لطرح سؤالٍ مُوالٍ:

- هل فعلاً وقعتَ في مثل ما أنا فيه؟

- ماذا؟

- هل سبق أن فكرتَ في الموت؟

افترت شفتاه عن ابتسامة لطيفة، وهزّ رأسه وهو يستشعر رعشة باردة في أطرافه، لم يجد لمداراتها غير سيجارة ثبّتها بين شفتيه، وَعَبّ منها نفساً كما لو كانت مشتعلة:

- بالفعل سبق أن حصل لي ذلك.

*

- انظري، ماما، ها أنا ألعب دور هندي من الهنود الحمر: ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، وووووو!

- توقف عن هذه الحماقة، روبي، واصعد إلى السيارة.

- ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، وووووو!

مانهاتن، وسط المدينة
أمام المركز التجاري وولفود
الساعة 11 و4 دقائق

ميريديث، بين ذراعيها رضيعٌ لا يكفّ عن الصراخ، وهي تحاول وضع أكياس مليئة بالأطعمة في الصندوق الخلفي لسيارتها تويوتا ذات اللون المشمشي، بينما صبيّ صغير بلباس هندي يحوم حولها مقلداً رقصة محارب من الهنود الحمر:

- ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، ووووووو!

- روبي، لقد أمرتك أن تتوقف عن الإزعاج وتصعد للجلوس بالسيارة!

لم يتجاوز بعد الخامسة من عمره، ويبدو لها أنه قد صار طفلاً فوق الاحتمال، وهي لم تعُد تملك أية سلطة عليه، وما يزيد من ضيقها أنّ الرضيع بدوره لا يتوقف عن الصراخ منذ. ولادته قبل خمسة أشهر. من يومها لم تنعم ولو بليلة راحة، ولم تشهد فترة هدنة في حياتها. تُرى من أين لها كل هذه الطاقة على التحمّل؟ كيف أنها لم تفقد صوتها من كثرة تشكيها للقريب والبعيد؟

تمايلت ميريديث بحمولتها من الأكياس، فانفلتت فجأة من إحدى العلب تشكيلة من كبسولات عصير التفاح -كانت قد فتحتها قبل قليل لتهدئة روبي بواحدة منها- فاندلقت على الأرض ملطّخة برشاشها المضغوط حذاءيها الجلديين وجوربها اللصيق.

- **تبّاً! تبّاً!**

- ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، ووووووو! أنا من الهنود الحمممررررر!

وفوق ذلك، عليها أن تتمالك نفسها وتتظاهر بإعجابها بما

يفعل، وتحافظ على صورتها في دور الأم الصغيرة للأسرة في أثناء غياب زوجها آلان لممارسة رياضته النهرية مع أصدقائه. وإذا كان هذا صحيحاً! كيف لها أن تتأكد أنه لم يأخذ ذلك ذريعة للذهاب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بصحبة سكرتيرته، تلك المومس الشابة الوافدة من منطقة بروتاني، التي لا تكفّ عن رشقه برسائلها الإلكترونية المثيرة، حتى عندما يكون موجوداً في البيت. لكن لا يجب أن تستمر الأمور على هذه الحال. لقد أنجبت منه الصبيّ الثاني إرضاءً له، لرغبته في إنشاء أسرة كبيرة. وإذا كانت تلك رغبته، فعليه التفرّغ بدوره لأطفاله بدل تصابيه مع فتاة في ربيعها الثاني والعشرين.

*

كان إيثان يتحدّث معبِّراً بحركات من يديه ليبدو أكثر إقناعاً:

- ما يجب أن تؤمني به في قرارة نفسك هو كون الحياة مجازفة ومخاطرة.

- مخاطرة؟ تساءلت جيسي.

ظلّت تنصت إليه باهتمام، بسحنتها الشاحبة ونظرتها الغامضة، وهو يحدّثها برحابة صدر وتعاطف بيّن.

- مخاطرة مقرونة دائماً بالخوف من الفشل والألم والضياع.

فكّرت لحظة في عبارته الأخيرة حريصة على متابعته وهو يتحدّث بنبرته الواثقة:

- أعتقد أنّ سعادة الإنسان تتوقف على سابق معاناة، ولا سبيل للظفر بالسعادة إلّا بهذه المعاناة في مغالبة الحياة.

- من السهل أن نقول هذا. عقبت عليه وهي تهزّ كتفيها تشكيكاً في كلامه.

- نعم، من السهل أن نقول هذا، لكنها قناعة صحيحة.

- وماذا عنك أنت؟ هل أنت حقاً سعيد؟

تفادياً لهذا السؤال المربك، حاول التملّص من الردّ المباشر، تهيّباً من التورّط في هذه اللعبة المكشوفة، فقال لها وهو ينظر في عينيها:

- الحقائق لا تُقاس على هذا المنوال.

بدت مزهوّة بإفحامها له وهي تردّ عليه بلهجة متهكّمة:

- أترى؟ أنت نفسُك عاجز عن تطبيق إرشاداتك الجميلة، هذا رغم أنك تملك كلّ شيء على ما أتصور: المال والشهرة والنساء..

- الأمر أكثر تعقيداً ممّا تتصورين.

- تُرى ماذا ينقصك؟

تنبه إلى أنها بدأت تأخذ بزمام المناقشة، فبادرها:

- لكن، ما الأهم من كلّ هذا بكل صدق؟

- ما الأهم؟

- ما رأيك أنتِ؟

لم تجب عن السؤال، تركته عالقاً، وكأنها تراه لا يستدعي بالضرورة جواباً قابلاً للصياغة في كلمات. ولأول مرة ترتسم على وجهها ملامح انفراج وهي تمدّ يدها لتناول بسكوتة بعد غطسها في فنجان قهوتها.

*

- وو، ووو، ووو، ووو، ووو، ووووو! أنا من الهنود الحمر.

- روبي، أنت لا تُحتمل! هل تفهم؟ أنت لا تحتمل!

كانت ميريديث تقود سيارتها بمزاج عَكِر. وهي تتساءل لماذا تعاني حالة اكتئاب هذا الصباح؟ وتبدو لها حياتها فشلاً أكيداً، مشوباً بسلسلة من المنغصات الصغيرة الكامنة وراء خيبتها الفادحة.

- ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، ووووووو!

وماذا عن عملها؟ روتيني حدّ الضجر، ومن دون روح إبداع.

إذاً، لماذا لم تمتلكي الشجاعة الكافية لفعل شيء آخر غير هذه المهنة المقرفة الرتيبة؟

وماذا عن زوجها؟ حين كانت لا تزال في ريعان شبابها لم تكن تملك الجرأة على مراودة الرجال الذين يثيرون حقاً إعجابها، واكتفت من بينهم بهذا الشخص الثقيل الذي من الظاهر أنه يخونها بكلّ صلافة.

إذاً، لماذا لم تمتلكي الشجاعة الكافية لهجرانه إلى غير رجعة؟

وماذا عن طفليها؟ أكيد أنها تحبهما، وإن كانا يستنفذان منها كل طاقتها.

إذاً، لماذا لا تكفين عن التبرم منهما؟ وإلّا ما كان عليك إنجابهما.

لا لقد كانت مجنونة! كيف فكرت في أمر مماثل؟ وبصرف النظر عنها هي بالذات، لا وجود لأم على الإطلاق يمكن أن تفكر على هذا النحو. وفوق ذلك، هي لا تجد مقالات حول هذا الموضوع في المجلات. فهناك مواضيع مثل جنسانية لعب الأطفال، والرعشة الجنسية ومبادلة الشريك الجنسي، كلها يتمّ الحديث عنها كلّ أسبوع، لكنها لا تجد أبداً مقالاً معنوناً مثلاً: «لديّ في البيت عفريتان».

وفي الواقع، على كلّ الأحوال، يبقيان صبيين متعبين بالنسبة لها فالرضيع لا يتوقف عن البكاء طول اليوم، والبكر لا يكفّ عن الإزعاج خارج نطاق السيطرة، وعليها دائماً أن تغيّر للصغير حفاضاته كلما تبلّلت، وتساعد الكبير في ارتداء ملابسه كلما استيقظ، وبين هذا وذاك، عليها كل مرة أن تغني نشيداً بجوار أرجوحة الأول أملاً في تهدئة روعه، وتحكي للثاني قصة بالقرب من سرير نومه، وفي الوقت نفسه، هي مَن عليها اصطحابهما على التوالي لروض الأطفال، ودار الحضانة، والمدرسة، وحديقة الألعاب، وأنشطة الطفولة، وحفلات أعياد الميلاد، وزيارة بيت الأجداد، وعيادة طبيب الأطفال.

وبفعل هذا الضغط اليومي، لا تجد الوقت على الإطلاق للتفرغ لنفسها، أو للترفيه عن ذاتها، أو التسوق الاستهلاكي، أو التنزه للتخفيف من إكراهات الحياة، أو حتى للأشغال المنزلية التي عليها القيام بها بابتسامة رضا. منذ وقت طويل لم تنعم بمتعة قراءة رواية كما في سابق عهدها، حتى أنها اقتنت مؤخراً الإصدارات الجديدة لفيليب روث وخالد حسيني، دون أن يسعفها الوقت لمجرد تصفحها. وفي السينما، رأت ملصقاً لآخر أفلام كرونبرغ، ولم تجد الفرصة بالمرة لحضور عرضه.

- ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، وووووو! أنا من الهنود الحمر.

لم يعُد لي من الطاقة ما يكفي لتهدئته.

تبحث ميريديث في صندوق لوحة القيادة عن أسطوانة من الموسيقى الكلاسيكية: ألحان هاندل مغناة من قبل ماجدالينا كوزينا. متعة جميلة ومهدئة للأعصاب في الآن نفسه. كانت على أهبة تشغيل

القرص حين أشهر روبي أمام عينيها قرص فيلمه المفضل مُلِحّاً على تشغيله.

- أريد مشاهدة فيلم **قراصنة الكاراييب!**

- أبداً. علينا الإنصات الآن إلى موسيقى ماما.

وكعادته دائماً كلما رُفِضَ له طلب، رفع الصبيّ عقيرته بالصراخ والصياح:

- أريد **قراصنة الكاراييب!** أريد **قراصنة الكاراييب!** أريد **قراصنة الكاراييييب!**

*

- في التلفزيون تبدو أقل إرهاقاً ممّا تبدو عليه الآن. لاحظَت عليه جيسي.

- هذا يؤكد أنه ليس علينا أن نصدِّق كل ما نراه في التلفزيون.

- الكلام نفسه الذي تقوله لي ماما دائماً!

- إذاً في ما يخصّ هذه النقطة هي على حقّ.

ظلّت مسمّرة عينيها على وجه إيثان، وهي ترفع فنجان قهوتها لأخذ رشفة خفيفة مُوَجّهة له السؤال:

- هل لديك أطفال؟

- هل فعلاً لديك النية في الالتحاق بسلك الشرطة؟

- جديّاً، هل لديك أطفالٌ أم لا؟

- لا

- لماذا؟

- لأن ذلك لم يحصل بكلّ بساطة. هذا كل ما في الأمر.

ظلّت شاخصة ببصرها لحظة دون أن يرفرف لها رمش، ثم لم تلبث أن أشاحت بوجهها دون أن تنبس ببنت شفة.

- وأنتِ، بخلافي، لديك والِدان، ولا بد أن يكونا الآن في غاية الانزعاج لأجلك.

- والداي، أكيد أنك لا تعرفهما! إنهما عاجزان حتى عن تدبّر أمرهما، عاجزان عن فعل أي شيء في حياتهما!

- دعي عنك ذلك، أنا متأكد من مدى حبك لهما.

- من الظاهر أنك لا تفهم شيئاً على الإطلاق.

- نحن كلنا، حين نكون صغاراً، نعتقد أن آباءنا لا يتّصفون إلّا بالخصال الجميلة، لذلك نحبهم الحبَّ الأعمى. وحين نصير يافعين، تنتابنا مشاعر الكراهية اتجاههم لأننا نكتشف فجأة أنهم ليسوا بصورة الكمال التي ترسّبت في تصوّرنا عنهم، ممّا يجعلهم في نظرنا سبباً في إحباطنا. لكن في فترة لاحقة ننتهي إلى تقبل نواقصهم حين نكتشف بدورنا نواقصنا، وبهذا نعثر على دليل رشدنا.

*

كانت ميريديث قد دخلت شارع فرونت حين سألها روبي:

- ماما. هل ستشترين لي الآيفون؟

- هه؟

- اشتري لي الآيفون! اشتري لي الآيفون! اشتري لي الآيفون!

- ليس من داعٍ قطعاً لأن يكون لك هاتف محمول في سنّ السادسة.

- لكن بابا قال لي أنه بإمكاني أن يكون لي هاتف من هذا النوع!

- لا يهمني إطلاقاً ما قال لك والدك.

- اشتري لي.

- إذا تماديتَ في حماقتك، ستتلقى صفعة على وجهك. أفَهمت؟

- إذا ضربتني، سأخبر معلمتي لتدخلك السجن!

لن أردّ عليه، ولن أسقط في لعبته.

فتحت ميريديث زجاج النافذة لتتنسّم قليلاً من الهواء الرطب، وأخذت نفساً عميقاً لتهدئة مزاجها. إنها لا تزال العاشرة صباحاً، ومع ذلك بدأ الإرهاق يأخذ منها مأخذه. إنها في حاجةِ إلى انتهاز عطلة نهاية الأسبوع لتجديد نشاطها واستعادة قليل من صفاء المزاج. وتخيلت نفسها في رغد من نعيم بصالون التدليك، ممدّدة على بطنها بين يدي المدلكة تفكّ بقوة كل عقد التوتر التي تؤلمها بكتفيها وعنقها، وهي ترتشف بين الفينة والأخرى جرعات منعشة من الشامبانيا بالكاراميلا على أصداء خافتة من موسيقى هادئة.

- ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، وووووو! أنا الهندي!

أفاقت ميريديث من حلمها مرتعبة، وعادت من جديد إلى أرض الواقع.

*

- وأنتِ، يا جيسي، ماذا ينقصك في حياتك؟

- ينقصني الأهم، مثلك تماماً.

أعجب إيثان بردّها حتى وإن بدا له جواباً غير ملموس.

- هل بوسعي مساعدتك؟

لم يغِبْ عن باله أبداً السلاح الذي بحوزتها، المسدس نفسه الذي سبق لها أن استعملته في وضع حدّ لحياتها وهي في عمر الزهور. لكنه مصرٌّ هذه المرة بكلّ عناد على ألّا يترك مجالاً لعبث الأقدار بها.

هزّت جيسي كتفيها دلالة على عدم الاكتراث، وأزاحت خصلة عن جبينها ثم أشاحت عنه بوجهها.

لاحظ إيثان أنها طيلة الوقت الذي قضاه في محاورتها لم تفتر شفتاها عن بسمة واحدة، ممّا يشي بعمق معاناتها وسوء وضعها. كان يسعى لملامسة ألمها لتحويله إلى ألمه الخاص، ويكون بذلك قادراً على امتصاصه بالكامل تخفيفاً عنها. وكي يصل إلى خلاصها عليه أن يعثر على مفتاح كلّ هذا الحزن الذي يستبدّ بها في مثل هذا العمر، وهو يعلم مسبقاً أنّ النفس الإنسانية ليس من السهل سبر أغوارها لفكّ شفرة أعماقها، كما يعلم أنه من النادر في فترة المراهقة أن يشكّل أيّ حادث صادم منطلقاً للعبور لمرحلة التنفيذ، لكن مجرد حبة رمل في بعض الأحيان -خيبة أمل، خوف غير مبرر، قطيعة عابرة- قد تكفي لتحريف المسار نحو حافة الانتحار.

كانت جيسي لا تزال ساهمة عبر الزجاج، كما لو كانت تحت تأثير تنويم مغناطيسي قوي، وبصرها مشدود نحو مشرّد ممدّد في غفوة عند مدخل العمارة المقابلة. ربما تفكر في الوقت الذي تبَقّى لتدخل الشرطة للقيام بإجلائه: خمس دقائق؟ عشر دقائق؟ ربع ساعة على أكبر تقدير. وسرعان ما التفتت نحو إيثان لتسأله:

- كم تساوي الساعة التي بمعصمك؟

بحركة عفوية، جذب إيثان كمَّ قميصه لإخفاء ساعته، وهو يردّ عليها بانزعاج ظاهر:

- لا أدري. كلّ ما أذكر أني دفعتُ لاقتنائها مبلغاً كبيراً.

- 5000 دولار؟

- تقريباً.

إنه يعلم في الواقع أنها تساوي 18000 دولار، وهي من نوع

سبق أن رآه في صورة إشهارية بمطوية صقيلة لإحدى شركات الطيران، وقام باقتنائها فور هبوط الطائرة بالمطار. إنها تحفة فاخرة كان يرى مثلها ترفاً حقيقياً، قبل أن يصير بإمكانه تلبية أية رغبة في الحال مهما كانت كلفتها.

- أرى أن تبرّعك بساعتك سيكون كافياً لأداء قيمة السكن لهذا الرجل لعام بأكمله.

هزّ كتفيه مداراة منه للضيق الذي شعر به جرّاء مقترحها المستفزّ.

- الأمر ليس بهذه البساطة كما ترين. حين يكون المرء في مثل سنك، يرى العالم دائماً مقسماً بين فقراء مساكين من جهة، وأغنياء جشعين من جهة ثانية. اكبري قليلاً، واذهبي إلى المدرسة لتتلقي دروساً في الاقتصاد. هل تساءلت عمّا تفعلينه أنت بالذات لأجل هؤلاء الذين يعيشون تحت وطأة المعاناة؟

- لم أفعل لأجلهم الشيء الكثير. ردّت عليه مركِّزة بصرها في قعر فنجانها.

انتابه شعور بالامتعاض لمجاراتها في هذا الموضوع، وسرعان ما عنّت له فكرة للتخلص من تضايقه.

فكّ ساعته من معصمه، ووضعها أمامها على المائدة. إنها للسفر بطابعها الكلاسيكي الأنيق، مسبوكة من الذهب الأبيض الخالص، بحزام نادر من جلد التمساح.

- خذيها، هي لك إن شئت، ولعلمك ستكفيك قيمتها في تسديد كلفة ثلاث سنوات بدل سنة واحدة من إيجار مسكن لإيوائه.

ارتسمت على وجهها ملامح الاستغراب.

- هل أعتبرها هبة منك؟

- على سبيل المقايضة.

ارتخت بحركة خفيفة إلى الخلف على الأريكة.

- مقابل ماذا؟

- مقابل المسدس الذي تخبّئين في حقيبتك.

تطلّعت إليه في ذهول.

- كيف عرفت أني.

بدا عليها الخوف، ووقفت من مكانها متوجّسة تريد الانصراف.

- انتظري! بإمكانك أن تثقي بي.

- لا! لا يمكنني أن أثق بك، أنت تكذب عليّ في كل ما تقول.

- أقسم أني لم أكذب عليك ولو مرة واحدة على الإطلاق.

- أعلم أنك كذبت على الأقل مرة واحدة!

التقطت حقيبتها، ثبّتتها على ظهرها وهمّت بمغادرة القاعة.

ارتمى عليها بسرعة، ونزع بلطف عنها الحقيبة.

- أنا أفعل هذا لأجلك، لعلي أساعدك في تفادي ارتكاب أية حماقة!

وعلى نحوٍ غير متوقع، تركت له الحقيبة ودلفت مهرولة بعيداً عنه.

بوصولها عند باب المقهى، أدخلت يدها في جيب وزرتها، وسحبت المسدس وهي تحدجه بنظرة هازئة مشوبة بابتسامة فاترة:

- أهذا ما تبحث عنه؟

ثم لم تلبث أن توارت بالمرة عن ناظريه.

بئس التقدير!

لم يكن المسدس بحقيبة ظهرها، وإنما كان بجيب وزرتها.

اندفع إيثان خارج المقهى جادّاً في مطاردتها. لمحها على بعد أمتار منه على الرصيف. التفتت نحوه، ثم زادت من وتيرة السباق في محاولة للإفلات منه. وفي اللحظة التي همّت بعبور الشارع صرخ بها:

- انتبهي!

*

- انظري ماما، أنا الهنديّ: ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، وووووو!

تناولتْ ميريديث قطعة شوكولاتة كانت تخبئها أسفل لوحة القيادة.

دعي عنك هذه القذارة.

هي لم تتخلّص من سمنتها التي زادت في أثناء فترة الحمل، وأكثر من ذلك أنها لا تتوقف عن الأكل كلّ الوقت، إذ صارت تجد فيه وسيلة وهمية لاستعادة هدوئها النفسي.

- ماما!

التفتت إليه منزعجة، وصرخت في وجهه:

- يكفي روبي، لقد فهمت، أنت الهندي، أنت الهندي!

- ماما، الفتاة!! إنها تقطع الشارع!! انتبهي!!!

18

حياتي السريّة

علينا دائماً أن نرى بعضنا كما لو كنا سنموت
غداً، فما يقتلنا هو الاعتقاد بأنّ الزمن لا
يزال بما يكفي أمامنا.

إلزا تريوليه

- انتبهي!

كانت الصدمة عنيفة.

صدمت بسيارتها الفتاة دون أن تفلح في الضغط على الفرامل في اللحظة المناسبة لتطوّحَ بها في الهواء قبل أن ترتطم بالواجهة الأمامية لشاحنة كانت تسير في الاتجاه المعاكس.

توقفت حركة المرور من تلقاء ذاتها، وخيّم الصمتُ للحظة على الشارع قبل أن يظهر وسط الحشد ما يهدئ من روع الحضور.

في الحال، تحلّق المارة حول جسد الفتاة الملقاة على الأرض. وبحركة موحّدة، همّ عدد منهم بإشهار هواتفهم المحمولة، بعضهم لأخذ صور صادمة، وبعضهم الآخر للاتصال بالرقم 911.

مصعوقَيْنِ، وقفا معاً، إيثان وميريديث، بالقرب من جيسي الممدّدة وسط الشارع فاقدة وعيها بعينين مغمضتين ووجه قاتم.

وصلت سيارة الإسعاف في دقائق، وعلى متنها طاقمها الطبي

المكوّن من طبيبة وممرض ومسعف، حيث تحلّقوا جميعُهم حول جسد الفتاة للقيام بالإسعافات الأولية. كان على رأس هذه الجوقة الطبية طبيبة شابّة من المُلَوّنين -في فترة تدريب في قسم الطوارئ- سرعان ما هتفت بمرافقيها:

«هيا، لنبدأ التدليك الصدري، ريكو، بيتي، افتحا أزرار قميصها، هيا تحركا بسرعة يا صبيان!» عملية تدخّل طالما شاهدناها على الشاشة محتفظين منها بانطباع كون الواقع هو الذي يستنسخ الخيال، وليس العكس. **«مؤشر غلاسكو 3، لا حسّ بالمرة لنبض الفخذ، تبّاً، إنها تضيع بين أيدينا، هيا، مزيداً من الجهد، إنها تضيع!»** والشرطيان الموجودان بعين المكان يجهدان أنفسهما في حصر تدفق «المشاهدين» عند الحدّ المسموح به لمتابعة هذه الحلقة الشيقة من سلسلة **طوارئ** على المباشر. **«هيا، والآن ننتقل لتهييء المجال، وكشف العروق في الحال. ريكو، ادهن «الجل»، لا يا ريكو، لا، ليس بهذا الشكل، اللعنة. أكيد لا جدوى ممّا في رأسك الصغير! انتبه للموصلات الكهربائية! وأنتَ بيتي، أطلعني على تخطيط القلب. قرّبه أكثر، لا أرى سوى خربشات مضببة على الشاشة! هل تتعمّد ذلك أم ماذا؟ هيّا، ناولني اللوحة بسرعة. اجعلها أمامي في وضع مباشر على 200 جول! والآن، انتبه، لنقُم بعملية صعق!»** وبينما كانت جيسي تنحدر على حافة الموت، جثا إيثان بالقرب منها على ركبتيه، وسحب المسدس من جيب وزرتها في غفلة من الشرطة. **«هيا، راقب النبض، أنا أواصل التدليك الصدري. ثبّت المصل على الشريان، واحقن ميليغراماً من الأدرينالين مع محلولين من الكوردارون. هيّا، أسرع ريكو ولا تبقَ فاغراً فاك هكذا كالأبله!»**.

ظلّت الطبيبة الشابة تضغط بكف يديها على صدر جيسي بمعدل ما يقارب المائة كبسة في الدقيقة الواحدة. «**هيا! هيا! هيا! عملية صعق أخرى من جديد. 200 جول. أفسحوا المكان!**».

على مقربة من المشهد، كانت ميريديث تنتحب بمرارة في حالة أقرب إلى الهيستيريا، وهي تستطلع حجم الأضرار لتدرك حجم الفداحة التي ارتكبتها.

- لا ذنبَ لكِ فيما وقع يا ماما. إنه خطأ الفتاة. هي التي كانت تعبر الشارع دون انتباه.

فعلاً، صعقة كهربائية أخرى نجحت هذه المرة في ارتخاء الألياف العضلية للصدر بعد طول تشنج، مما أتاح تواصل خفقان القلب وجريان الدم بشكل طبيعي.

حينها توجّه ريكو إلى الطبيبة بابتسامة عريضة:

- تماماً، الآن كلّ شيء يسير على ما يرام!

فردّت عليه بشكل مستفز:

- وماذا بعد؟ هل تودّ أن نقدّم لك ميدالية؟

ثم شدّت طوقاً حول عنق الفتاة.

- هيّا، خذوها الآن وأعلِموا المشفى!

على ماذا يتوقف الموت أحياناً. مجرد بضع ثوانٍ من عدم الانتباه وتقع الواقعة. وعلى ماذا تتوقف الحياة أحياناً. مجرّد صعقة كهربائية ويواصل القلب مساره.

بكلّ حرص، قام ريكو وبيتي بتمديد جيسي على السرير المحمول وإدخالها إلى سيارة الإسعاف.

- لأيٍّ مشفى ستتوجهون بها؟ سأل إيثان.

رَدّ عليه بيتي وهو يدير مفتاح المحرك:

- إلى مشفى سانت جود غير بعيد من هنا.

أول ما كان على إيثان القيام به هو الذهاب لأخذ سيارته للحاق بطاقم الإسعاف، لكن ما أن شرع الحشد يتفرق حتى لاحظ سيارة أجرة مركونة على الرصيف المقابل.

إلى مقدّمتها يستند زنجي بقدّه الفارع وعينه المنكمشة، يدخن سيجارة ويرمقه باهتمام. قصده إيثان وبادره بلهجة زاجرة.

*

- يا إلهي. أية لعبة قذرة تلعب معي؟

- لعبة الحياة والقدر. ردّ سائق التاكسي.

بدأت حركة المرور تتواصل تدريجياً.

- هل أوصلك؟ اقترح عليه كورتيس نفيل وهو يفتح له باب سيارته العتيقة من نوع «شيكر».

- أُغرُبْ عن وجهي!

- هيا اصعد معي، سنكون بالمشفى في غضون خمس دقائق.

- أنت لا تخيفني. خاطبه إيثان وهو يعتدل في جلسته على المقعد الخلفي.

- أعرف أنك لا تخاف من أيٍّ كان إلّا من ذاتك.

أخذ إيثان ملاحظته بعين الاعتبار دون نفي منه أو تأكيد لمدى مطابقتها للحقيقة.

انطلق كورتيس بسرعة دونما اكتراث بتحديد السرعة كما يقتضيه قانون السير، وكأنّ القواعد لا تطاله.

- كنتَ تعتقد أنه بإمكانك إنقاذ حياتها بسحب المسدس منها أليس كذلك؟

- لقد أنقذتها بالفعل.

انحنى كورتيس لتخفيض صوت الشريط المنبعث من مذياعه المتقادم على إيقاع البلوز.

- هناك شيء عليك أن تستوعبه جيداً السيد ويتاكر: تصوّر أنك حتى لو عشت مليون مرة في اليوم لن تنجح أبداً في إنقاذ حياتها.

- لأن موتها مقدّر سلفاً. أهذا ما تعنيه؟

- أرى أن عليك التسليم بالقدر؛ فسيرورة الأشياء خارج إرادتنا، ومن يُجهِد نفسه في تغيير مسارها كمن يصارع طواحين الهواء.

- ومع ذلك، ألا ترى بأني بصدد تأكيد العكس؟

تملّص كورتيس من الردّ على السؤال، مكتفياً بإبداء ملاحظته:

- مصدر تعاسة الناس اعتقادهم اليائس في إمكانية التصرف في أمور تتجاوز في الغالب قدراتهم.

- لا تزال دائماً تحتفظ بالقائمة نفسها من الأقوال النمطية المأثورة. تُرى من أين تصيَّدت هذه المقولة؟

- من كتاب قرأته مؤخراً. ردّ عليه كورتيس وهو يمدّ يده لسحب كتاب مجلّد من صندوق لوحة القيادة.

ثم فتحه على صفحة مطوية وهو يواصل السياقة.

- ما رأيك في هذه القولة: «**ليس لنا في الواقع من اختيار سوى تقبّل ما كتبته لنا الأقدار**»، **وأيضاً عن هذه القولة**: «**إن الإمكانية الوحيدة التي تبقى بوسعنا اتجاه أقدارنا هي طريقة ردود أفعالنا على المصائب التي تؤلمنا**».

قاطعه إيثان الذي يحفظ الكثير من هذه الأقوال عن ظهر قلب ليختم: وهذه أيضاً: «**إنّ تعلم الحياة لا يتأتى إلّا باكتساب الحرية، واكتساب الحرية لا يتأتى إلا بتقبل الأشياء كما تقع**».

حينذاك مدّ إليه الكتاب، فطالعته صورته بالذات على الغلاف بأسنانه الناصعة البيضاء، وعينيه الزرقاوين ووجهه المعدّل بلمسات تجميلية بارعة من الفوتوشوب.

ثم قال له وهو يتوقف بجانب من موقف السيارات بالمشفى.

- أنت تعرف هذه الحقيقة قبلاً، وإلّا لما عرضتها في كتبك. هذه قناعتك دون شك، لكن مبادئك في الحياة شيء آخر. أليس كذلك؟

*

نزل إيثان من التاكسي وصفق خلفه الباب دون تعقيب.

دخل بهو قسم المستعجلات الذي بدأ يستكشفه كما تعرَّفه من قبل، ومعه يتعرف أيضاً موظفة الاستقبال بشعرها المُسَرّح على شكل عُفرَة «لبوءة»، وهو يستفسرها بشأن الشابة التي جاءت بها سيارة الإسعاف على إثر تعرّضها لحادثة سير مروعة.

قادته باتجاه القسم متعدّد التخصّصات، حيث كان شينو ميتسوكي يستعدّ لدخول غرفة العمليات دون أن ينتبه لوجود إيثان. وبدا أنه ليس لديه الوقت لاستيضاحه حول وضع الفتاة التي كانت توجد في حالة جدّ حرجة: كسر في الفخذ، وتصدّع في الورك، واندغام في الضلوع، وتمزق في الأمعاء.

- ومع ذلك، ما أن بادره بالتحية حتى أطلعه على وضعها باقتضاب: أشك على الخصوص في إصابتها بارتجاج دماغي، مع تكوّن ورم دموي، واحتمال تعرضها لأوديما أو نزيف. هذا دون الحديث عن رضوض على مستوى النخاع الشوكي للعمود الفقري.

كانت تحضُر إيثان عدة أسئلة يودّ طرحها على الطبيب لولا أنه أسرع في ولوج غرفة العمليات، فلم يملك إلّا أن تهاوى على مقعد

بالقرب منه بقلب منقبض وأعماق منغصة، ماسكاً رأسه بين يديه، وكلّه ارتياب من تعقد العملية ولا حتى جدوى وجوده الآن في المشفى.

وانتابه شعور فظيع بالإرهاق وتعكر المزاج، خاصة وأن إفادات ميتسوكي تقلّل من حظوظها في النجاة والبقاء على قيد الحياة بسبب كثرة المضاعفات المحتملة. أغمض عينيه لحظة لتتقافز في الحال إلى ذهنه صورة جيسي على كرسي متحرك بعينين كابيتين وفم على جانبيه سيل لزج من اللعاب.

بضربة من قبضة يده، تيسر له كوب من القهوة من آلة المشروبات التي بالقرب من مقعده. بدا له أن الاحتمال الثاني فيما يخص حظها المتبقي من الحياة ليس أكثر من أمل خادع. وبدأ ينكشف له أنّ سبيله المفضي إلى مفترق الطرق هو نفسه الذي يتكرر الآن بشكل مطابق، ومهما حاول سيظلّ محكوماً بمعاودة معايشة المآسي نفسها التي عاشها في ذلك اليوم اللعين.

التقط حقيبة جيسي الملقاة على الأرض عند قدميه، وهي من نوع إيستباك باللون الوردي الباهت، مزّينة بالكثير من الملصقات المشاغبة والكتابات المتمرّدة المخطوطة بالحبر. تردّد لبضع ثوانٍ قبل أن يفتح الجيب الجانبي الصغير ليجد به «ميني آيبود» من الجيل الأول الذي يمكن أن نعثر عليه على موقع «إيباي» بأقل من 40 دولاراً. كان شحن البطارية على وشك النفاد، غير أنّ ذلك لم يمنعه من الاطّلاع على محتواه، ليتفاجأ بما وجد: أهم العناوين والألبومات الأسطورية الناجحة في فترة الثمانينيات وبداية التسعينيات: **تعالي كما أنت** لنرفانا، **ها أنا أضل عن ديني** لآر-إي-إم، تريسي شابمان، وكذلك الألبوم الشهير الذي سجّله إيريك كلابتون أشهراً قليلة بعد رحيل ابنه. هذا فضلاً عن أشياء أخرى

قديمة أيضاً: ليد زيب، ليونارد كوهين، أوتيس ردينغ، وأجمل أغاني بوب ديلان. وكلها باقة تمثل أقوى الموجات الموسيقية التي طبعت فترة شبابه، ويستغرب أن يعثر عليها اليوم مخزَّنة في ذاكرة الهاتف المحمول لصبية في ربيعها الرابع عشر.

تابع استكشافه بفتح الحقيبة، ليجد بداخلها سجلّ يومياتها، وعلى غلافه الجلدي الصلب عبارة **حياتي السريّة**. زادت حيرته، وحاول فتحه، لكن دفتيه كانتا مشدودتين إلى بعضهما بقفل من حديد. راودته فكرة كَسْرِهِ إشباعاً لفضوله لولا الحدود الملزِمَة باحترام الحميمية، خاصة وأنه هو نفسه طالما كره تطفّل الغرباء على حياته السرية.

وجد أيضاً ثلاث نسخ من كتاب الجيب بأوراق مصفرة: ديوان شعر لإيميلي ديكينسون، ورواية **حارس حقل الشوفان** لسالينجر، ثم **الحب في زمن الكوليرا** لغارسيا ماركيز.

هذه الكتب. كان قد يقتنيها هو أيضاً في فترة مراهقته، في الوقت الذي أسعفه اكتشاف متعة قراءة الأدب، الوقت الذي أدركه شغف التعاطي لهوايات أخرى غير البيسبول أو مشاهدة قناة الإم-تي-في؛ الوقت الذي ملأه الإحساس على نحو ما بأنه لن يكون وحيداً أبداً.

تناول الرواية، وبدأ يتصفحها إلى أن عثر في صفحتها الأخيرة على اسم مخطوطٍ بكلّ عناية، ما أن وقعت عيناه عليه حتى أحسّ بالدم يتجمّد في عروقه، فوجم في مكانه كما لو أن شيئاً ما قد توقف بداخله وهو يستشعر نبضات قلبه المكتومة تتسارع بكلّ قوة داخل صدره.

ذاك الاسم كان اسمه.

19

ندوب الروح

في النهاية، الحياة ليست سوى حكاية مثيرة، مجرد بحث نقوم به كل يوم عن ذواتنا لاستجلاء مناطق الظل فيها.

جان-كريستوف غرانجيه

هذا الاسم، كان اسمه.

هذه الكتب والأسطوانات كانت له.

حتى المسدس الذي كان بيدها -من نوع كولت 1911 بمقبض من الصدف الثمين- كان هو نفسه الذي ربحه في لعبة البوكر حين كان في التاسعة عشرة من عمره. لا تزال ذكراه حاضرة بجلاء: كان ذلك في حصة فاز بها في مواجهة سين دينارو، بضربة حظ صغيرة في الحي الإيطالي ببوسطن. وما دام لا يحب الأسلحة، فقد ارتأى التخلّص منه بينما ارتأى جيمي الاحتفاظ به لنفسه.

واصل إيثان بحثه في الحقيبة لاستكشاف بقية محتواها: علبة بسكويت من نوع أوريو لم يتبقَّ منها إلّا الفتات، ومحفظة لأدوات الزينة وعلبة هيلو كيتي. فتح حافظة أوراقها، فوجدها فارغة إلّا من صورة بلونٍ حائل، صورة عائلية باهتة لطفلة صغيرة شقراء بين والديها، وهي ملفوفة بالكامل في ردائها الصوفي في سنها الرابع أو

الخامس تعانق مبتسمة رجل الثلج بقامة أطول من قامتها، بينما سيدة شابة تنظر مباشرة إلى عدسة التصوير بنظرة مشُوبة بالتحدي، وبجانبها رجل صلب يغمرها بنظرة حانية.

جيسي، ماريزا وجيمي.

هذه الفتاة المراهقة التي جاءته طلباً للمساعدة قبل أن تقدم على وضع حدّ لحياتها هي ابنة ماريزا وجيمي!

التصقت عينا إيثان بالصورة بين يديه المرتجفتين، وتذكر ماريزا حين هجرها قبل خمسة عشر عاماً، وهما على عتبة الزواج. تركها عالقة، فلم تجد بداً من التماس العزاء في صديقه الوفي جيمي الذي لم يتردّد بدوره في التعبير عن وفاء الصداقة بالزواج بها لينجبا هذه الصبية الجميلة!

هو أمر لم يكن مفاجئاً في العمق.

مراراً ساورته الفكرة في السنوات الأخيرة. وعلى كل حال، هذا ما يفسِّر وجود جيمي في نيويورك وظهوره في شريط كاميرا المراقبة مؤخراً.

جيمي مَن كان عليه أن يذرع مانهاتن بحثاً عن ابنته. لقد اختفت جيسي، هذا أمر واقع. مشهد مبتذل بشكل محزن في حياة مراهقة على خلاف مع والديها.

ولكن لماذا جاءت جيسي تبحث عنه بالضبط؟ لماذا تنصت لأغانيه المفضّلة، وتفضّل قراءة كتبه المنشورة وتحتفظ بقصاصات المقالات التي تتحدث عنه؟ ما الدور الذي لعبه والداها في كلّ هذا؟

*

أعاد كلّ الأغراض إلى الحقيبة وقام من مقعده. لم يكن بوسعه غير وسيلة وحيدة لاستجلاء تفاصيل هذه القصة: أن يذهب لمقابلة

ماريزا في بوسطن. غادر المستشفى بعد أن ترك اسمه ورقم هاتفه لدى موظفة الاستقبال مع كلمة تركها للدكتور ميتسوكي ليبقى معه على اتصال من أجل الاطمئنان على سير العملية. وبحكم وجوده على مقربة من مكتبه، قصد موقف السيارات تحت الأرضي بعمارته لأخذ سيارته المازيراتي.

بإحساس مضطرب، وضع الصورة على لوحة القيادة، أدار مفتاح المحرك ثم انطلق بسرعة عبر العقبة الإسمنتية المفضية إلى خارج الموقف، وعيناه على الصورة أكثر ممّا هي على الطريق. لاحظ في خلفيتها أرجوحة مشدودة لشجرة، فتعرّف المكان بسهولة. إنه حديقة بيت والدَي جيمي بضاحية بوسطن الجنوبية حيث قضى طفولته. وهناك بالذات.

- آهههههههههه!

ضغط بقوة على دواسة الفرامل عند مدخل شارع ساوث، وفي لحظة انفلتت منه زمام القيادة: لقد دهست سيارته العجلة الخلفية لأحد الدراجين.

غير معقول!

فكّ عنه حزام السلامة وخرج بسرعة من السيارة لإسعاف ضحيته، فإذا به فتى قام على التوّ بكلّ خفة ورشاقة.

- أتمنى ألّا يكون قد أصابك مكروه.

- لا أبداً، يا رجل، لا داعي للخوف لأجلي! أنا لست مخلوقاً من سكّر!

هكذا أشرف مرة أخرى على الكارثة. إن لحظة من عدم انتباه تبقى كافية لقتل إنسان. كل شيء في هذه المدينة يسير بسرعة خاطفة، والناس كلهم في حركة دائبة لا تتوقف: المارة، سيارات

الأجرة، الحافلات، الدراجات. مدينة بلا رحمة، غالبية الساكنة أشبه بمحاربين ومصارعين في حالة استنفار لحظة بلحظة.

- هل أنت بخير؟ ألحّ عليه إيثان.

- بخير، أؤكّد لك، لا داعي للخوف لأجلي!

كان الدراج الشاب ساعي بريد. سرعان ما شرع في تفحّص دراجته إيذاناً بالانصراف، فمدّ إليه إيثان ورقة نقدية من فئة مائة دولار.

- لعلّ عطباً أصاب عجلتك، قد يساعدك هذا المبلغ في إصلاحها. وهي ذي بطاقة زيارتي، يمكنك الاتصال بي في حالة ما إذا حصلت لك مضاعفات على إثر السقطة التي تعرّضت لها.

تناول الساعي منه البطاقة والورقة النقدية ودسّها في جيبه، قبل أن تظهر فجأة على وجهه علامات الاندهاش:

- هيه! أنت مَن كنت تتحدث في التلفزيون، المعالج النفسي، أليس كذلك؟

هزّ إيثان رأسه بالإيجاب.

- أختي مهتمة كثيراً بأعمالك.

أمي قرأت كلّ كتبك/ ابنتي معجبة بندواتك/ سكرتيرتي تجمع كلّ أقراصك المصورة/ زوجتي تقضي كلّ لياليها معك، أو بالأحرى مع مؤلفاتك. هذا هو نوع الخطاب الذي يتبنّاه اتجاهه الرجال. اعتقاداً منهم أنه لا يكتب إلّا للنساء.

- والمثير أني أصعد دائماً إلى مكتبك! وبحوزتي كلّ مرة مراسلة على عنوانك.

فتش في حقيبة المراسلات، ثم مدّ لإيثان ظرفاً من ورق شفيف، بلون لوزي مشدود بشريط صقيل.

دعوة لحضور حفل زفاف سيلين..

ثم لم يلبث أن سأله الشاب:

- لعلي أجد بحوزتك كتاباً توقع عليه إهداء باسم.

- باسم أختك. أليس كذلك؟

- نعم، واسمها تريشا.

وجد إيثان في صندوق سيارته نسخة من كتابه الأخير، مرفقاً بالملف الإعلامي الذي أعدّته ليزي بالأمس خصيصاً للبرنامج التلفزي، ثم التفت إليه ليسأله وهو يشير للدعوة:

- هذه الرسالة، ذهبت لتبحث عنها أين؟

- عند بواب الفندق الفرنسي، على الرقم 44، بين 5 و.

- وسوفتيل؟

- تماماً

وقّع إيثان كتابه، وانصرف ساعي البريد ممتناً له اللطف والهدية.

بعدها، بقي لوحده، توقف في الممر الثاني بجانب ممرّ السيارات المركونة على الرصيف وأشعل أضواء التوقف. كان عليه أن يجد الوقت الكافي للتفكير، وهو يضع أمامه صورة جيسي ودعوة زفاف سيلين. نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى وقت الظهيرة. لو تحرّك الآن باتجاه بوسطن لن يكون بإمكانه العودة إلى مانهاتن قبل التاسعة. إذاً عليه الاختيار بين الذهاب لرؤية سيلين أو رؤية ماريزا. وإذا صحّ أن يوماً واحداً هو كلّ ما تبقى من أيام عمره، تُرى لأيّ منهما سيخصّصه؟ لسيلين من دون شك. قرَّر أن يتحفظ مؤقتاً على إحساسه المرعب بأنه يشكِّل عليها خطراً كما بدا له أمس. سيتبين له هذا في الأيام المقبلة إذا كان مقدراً له فعلاً أن يظلّ على قيد الحياة في الأيام المقبلة. وعلى كلّ حال ليست له في هذه الآونة إلّا أولوية واحدة: الذهاب لرؤيتها. فما زال بإمكانه أن يلحق بها بالفندق الذي

تنزل به في أقل من ربع ساعة. هذه المرة، يملؤه الإحساس بما يكفي من القوة والشوق بأنه سينغمر من دون شك في قصة حب جديدة.

بعد كل هذه الأعوام التي عاشها بعيداً عنها، وكل هذه الروح المتبقية من زمنه الضائع في معاركه الوهمية، ها هو يمرّ الآن **بالأهم** من كل ما سبق، والأهم في هذه اللحظة بين يديه، وهو عازم كل العزم على عدم التفريط فيه هذه المرة.

عاد وأدار محرك السيارة متجهاً نحو ميدتاون.

عندما تقدِّم لك الحياة فرصة ثانية، من الحماقة أن تفرّط بها.

*

ومع ذلك، لا تزال تستأثر باهتمامه مشكِّلة تلك الصورة، حيث تبدو هذه الصبية بلونها الأشقر وعينيها اللامعتين بلا أدنى شبه يجمعها لا بماريزا ولا جيمي. صورة تتجسّد في معاناة وهشاشة هذه الشابة المراهقة، كما تتجسد في سنها المابين الرابعة عشرة والخامسة عشرة.

أغلق إيثان زجاج سيارته، إذ أحس بنوبة برد مباغتة ودفق أدمُعٍ تجري على خديه رغماً عنه.

استخدم جهاز الجي-بي-إس واتجه نحو جسر تريبورو ليأخذ طريقه إلى مدينة بوسطن.

لقد حاول إلى حدّ الساعة إخفاء الحقيقة عن نفسه. فقبل يوم واحد لم يكن يعلم بوجود جيسي، لكن في العمق، ألم يتوقع كلّ شيء من الثانية الأولى، ومن النظرة الأولى التي تبادلاها؟

ها هو الآن، كل شيء يبدو له بديهياً واضحاً، جيسي لم تكن ابنة جيمي.

إنها ابنته.

20

جيمي

من لم يعُد لك صديقاً، فهو ما كان لك أبداً صديقاً.

أرسطو

قبل خمسة عشر عاماً

اسمي جيمي كافاليتي، وأبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة.

في شهر أكتوبر من سنة 1992، كنت أسير على أرصفة تايمز سكوير وسط الهتاف، والموسيقى، وروائح الهوت دوغ. إلى جنبي تسير ماريزا، خطيبة إيثان، أفضل أصدقائي الذي تركناه خلفناَ ببضعة أمتار. كان بِنِيَّتِنا أن ننظم له هذا المساء حفلاً بمناسبة عيد ميلاده. ولخلق المفاجأة، جاءت ماريزا لملاقاتنا مباشرة بعد انتهائها من العمل، لنركب جميعنا سيارتنا الموستانغ العتيقة.

لاحقاً، بعد الزوال، حجزتُ مائدة في مطعم روستبيز لضمان مقاعدنا من أجل الاستمتاع بوجبتنا الأثيرة: همبرغر بالأناناس وشرائح اللحم المقرمشة.

التفتّ إلى صديقي:

- أوه! إيثان! أسرع!

أشار إليّ بعدم الانزعاج لأجله. كان المارة مندمجين في حشد

ملتحم كموجة يصعب الفكاك من تيارها الجارف. على الرصيف ألعاب سيرك جوّال: ساحر بإشارة تمويهية منه تختفي الأرانب عن الأبصار، وقزم يعرض ثعباناً حياً طوله متر ونصف، بينما تنبعث من مكبّر الصوت لدى بائع الهوت دوغ العجوز أغنية إلفيس: **الآن أو أبداً**.

بالنسبة إلى الهدية، لم يستقر رأيي بعد على ما يمكن أن أقتنيه له. لو كان عيد ميلادي لفضَّلت آخر ألبوم لريد هوت شيلي بيبر، لكن لا أظن أنّ هدية مثل هاته قد تروق له. ربما قد يرضيه في المقابل اشتراك في **نيويورك تايمز**، لولا أنه باهظ الثمن. هكذا قررت أن أقصد مكتبة لاختيار كتاب حول سير وتاريخ رؤساء الولايات المتحدة.

والواقع أنّ إيثان كان شغوفاً بالقراءة، حتى أنّ العمال معنا في المشغل كانوا يلقبونه «المثقف»، وفي الوقت نفسه يسعدون بفترات الاستراحة التي ينعمون بها أو المكافآت المالية التي يظفرون بها بفضل كفاءته التفاوضية مع رئيس العمال. ويبدو لي شخصاً ذكياً للغاية، إذ يرى أشياء لا يراها الآخرون عادة، لذا فهو يقرأ لأنه ذكي وهو ذكي لأنه يقرأ. وما أحب فيه أكثر حرصه على توظيف كل المعارف التي يجدها في الكتب بشكل ملموس في حياته. فمن أجل الربح في لعبة البوكر يلجأ للكتب المختصة المليئة بالصيغ الرياضية المستعصية على الفهم. وأعتقد أن عدداً كبيراً من الناس يُقبل على اقتناء هذه الكتب، لكن كثيراً منهم لا يقرؤها، وقليلاً منهم جداً مَن يفهمها حقاً، في حين أنّ إيثان يستوعبها كلها ممّا يعود علينا بمبالغ لا بأس بها من المال حين نلعب الرهان، مساء كلّ سبت، في القاعات الخلفية لبعض المطاعم. وبفضل ذلك كان بوسعنا شراء

سيارة الموستانغ، وحجز مقاعدنا لمتابعة مباريات فريق ريد سوكس مرة كل أسبوعين.

غالباً ما كان يرافقني في عطلة نهاية الأسبوع للملعب، ثم نحتسي قنينات من الجعة مع الأصدقاء، ونأكل بيتزا، ثم نجول قليلاً في كوينسي ماركت. أعرف أنه كان يفضّل قضاء ما بعد الزوال في المكتبة البلدية، لكنه أحياناً كان يبقى برفقتي إرضاء لي، وهكذا كان عليّ أنا الآخر التظاهر بالرغبة للذهاب إلى المكتبة البلدية إرضاء له. لقد كان يعلم أنها ليست رغبتي الحقيقية، وأنا بدوري أعلم بأنه يعلم بأني أعلم. وحتى ولو بدا هذا أمراً معقداً، فإنه في عمقه في غاية البساطة ما دام يسمى صداقة.

إنّ ماريزا وإيثان يشكلان ثنائياً محترماً. لقد كانت ماريزا «قنبلة» ثانويتنا القديمة. بدأت تخرج أول الأمر برفقة ستيف مارينو نجم فريق كرة القدم، ثم لم يلبث إيثان في العام الأخير أن أفلح في استدراجها للخروج معه، على الرغم من كونه أقصر قامة، وأقل وسامة وأضعف بنية من ستيف. لكن كما قال لي يوماً: «إنه الدليل أحياناً على أنّ بمقدور الذكاء هزم القوة». وماريزا فتاة رائعة، ذكية وإن ليست على قدر إيثان من الذكاء. لها ذكاء وظيفي يمكّنها من تدبّر اليومي على نحوٍ موفق. قد تتصف أحياناً بنوع من الصلابة والصلافة لكنها برغم ذلك تصل دائماً لتحقيق هدفها المنشود. ذات يوم فاجأتها وهي في محادثة مع صديقة تبرِّر لها بأن خروجها مع إيثان هو بالنسبة لها «رهان على المستقبل»، ولم أستوعب حينها جيداً ما سمعتُ.

بدأ النهار يميل نحو الغروب. كنا قد وصلنا للإشارات الضوئية نهاية الشارع 50. توقفتُ مع ماريزا بانتظار مرور مَدّ من السيارات.

التفتنا معاً لنرى إيثان خلفنا لنستحثّه للّحاق بنا. لم نتبيّنه بين حشود العابرين، وبقينا بانتظاره لدقائق طويلة، وسط سحابات غازات المركبات، والشاشات المشعة والاختناق المروري وصفارات الشرطة.

بقينا هناك إلى أن سلّمنا بأن إيثان قد اختفى وسط الزحام.

*

مانهاتن
أكتوبر 1992
السادسة صباحاً

قضيتُ الليل كله في البحث عنه: في المطاعم، والمحلات التجارية، والحانات التي كنّا نرتادها. اتصلت هاتفياً بوالدي لأعرف إن ترك لي رسالة صوتية على مجيب الهاتف المنزلي. الأكثر من ذلك قصدت مركز الشرطة لكنهم استهانوا بالأمر ولم يعيروه اهتماماً. ظلّت ماريزا بالقرب من الموستانغ على أمل أن يعود بباسطة للموقف الذي ركنّا فيها السيارة لو أنه وجد صعوبة في العثور علينا. بقينا على هذه الحال حتى طلوع الشمس، ولم نجد بُدّاً في الأخير من مغادرة نيويورك في الصباح الباكر تحت الأشعة الوردية الشاحبة للفجر المطلّ على مانهاتن بجلال باهر.

في طريق العودة، لاحظتُ أنّ ماريزا تتصرّف على نحوٍ أثار استغرابي. فبينما كنت أنا شديد القلق، بدت هي مستسلمة أكثر منها منزعجة، بشكل يعطي الانطباع بتقبّلها اختفاء خطيبها كما لو كان أمراً عادياً أو قدراً مقضياً. في حين كنت من جانبي أتوقع الأسوأ؛ حادثة سير، اعتداء، اختطاف. وبغتة، التفتَت إليّ وقالت:

- عليك أن تفهم شيئاً.

- ماذا؟

- صديقك، هل سبق أن تصوّرته بهذا الشكل؟

- ماذا تقصدين؟

- ألا تفهم أنه قرَّر الاختفاء بالمرة؟ ألا تفهم أنه لم يعُد يرغب في أيّ شيء يربطه بنا؟ ألا تفهم أنه لم يعُد له شأن بعلاقتنا؟

- أنت تهذين.

- أكيد أننا لن نراه بعد الآن يا جيمي، أراهن على ذلك بقطع يدي.

- لكن كيف تقولين هذا عن الرجل الذي اخترته شريك حياتك؟

وهي تتهيأ لمواصلة الحديث، انفرطت الدموع من عينيها فجأة، وكانت تلك بالنسبة لي أوّل مرة أراها تبكي. استغرق بكاؤها لحظة قبل أن تتناول منديلاً من جيبها لتكفكف دمعها وسيلان أنفها ثم تتابع المكاشفة:

هذا السيناريو رأيته مرات في كوابيسي. كنت دائماً أتوقع رحيله في يوم ما، حتى صرتُ أتمنى أن يحدث ذلك في أقرب وقت ممكن عساني أستريح من توجساتي من رحيله.

بعدها ركنت إلى الصمت، ولم نتبادل كلمة واحدة طيلة طريق العودة، إلى أن أشرفنا على بوسطن حيث سألتها:

- على كلّ حال، ما المفاجأة التي كنت تعدّين له؟

- هه؟ ماذا؟

- ما الهدية التي كنت تودّين تقديمها له في ختام المأدبة؟

التفتت إليّ. انعكست على وجهها أشعة الشمس بلون برتقالي

مشعّ فبدت على ضوئها كمنحوتة فنية جميلة. وظلّت صامتة لثوانٍ معدودة قبل أن تجيب:

- إني حامل.

*

نوفمبر 1992 - أبريل 1993

في الأسابيع الموالية عدتُ مراراً إلى نيويورك، وانخرطتُ في رحلة البحث عن صديقي إيثان. سألتُ عنه كلّ الذين من الممكن أن يصادفوه: عمّال المحطة، سائقو الحافلات، رجال الشرطة. كما فتشت عنه في المستشفيات، ومراكز البوليس، ومستودع الأموات، ومراكز إيواء المشردين، وعمال محطات الخدمات.

لم أصدق حكاية ماريزا. كيف لإيثان أن يرحل إلى الأبد دون أن يحدّثني في الموضوع، أوِ دون أن يترك لي رسالة، أو يوحي لي بإشارة. قبل ستّ سنوات، بعد موت والديه تباعاً بفاصل بضعة أشهر، جاء ليعيش كواحد منّا في بيت والدي، واعتبرته مثل أخٍ لم تلده أمّي.

بطبيعة الحال، مراراً كنت أقول لنفسي إنه يهدر وقته معنا، ومن الخسارة أن يغادر مقاعد الدراسة مبكراً وتَضيعَ إمكانية الذهاب إلى الجامعة، ومع ذلك بحكم أنانيتي، كنت أشعر بسعادة كبيرة في اللقاء به كلّ يوم. صحيح أنه كان شخصاً متكتماً، ويحدث أحياناً أن يبقى نصف ساعة كاملة ساهم الطرف، شارد الذهن. تُراه أين يكون في هذه اللحظات؟ وفي مَن يفكّر؟

في غضون أسابيع، ظللتُ أطّلع على رسائله البنكية التي تصل باسمه على عنوان بيت أسرتي، وفاجأني كشف حسابه بمبلغ لا بأس به: 30,000 دولار. كان ذلك ريعه بكلّ تأكيد من حصص البوكر

التي يلعبها بمفرده. كما تفاجأت من خلال كشفه البنكي بمعاملات شراء وتسوّق قام بها في فيلاديلفيا، وواشنطن، ثم لأسابيع متتالية في شيكاغو. وكان بإمكاني اقتفاء أثره لولا أنه للأسف قام بإغلاق حسابه بأيام قليلة فقط بعد عطلة رأس السنة.

وأخيراً، عثرت عمّا يمكن أن يقودني إليه في ربيع 1993 حين كنتُ أبحث عنه في محيط ثانويتنا القديمة. ذلك أنّ كلية في ولاية سياتل طلبت من الثانوية تحويل ملفه المدرسي إلى مكاتبها من أجل تسجيله للالتحاق بمقاعدها الدراسية.

ومن دون أن أخبر لا أسرتي ولا ماريزا، سحبت مبلغاً من دفتر التوفير من أجل الحصول على شقّة للسكن، وحجزت تذكرة سفر عبر الطائرة باتجاه سياتل. وصلت إلى مرفق الكلية، وانحشرت وسط الحشد الطلابي بحثاً عنه. في تلك الفترة، كانت موضة «غرانج» في أوجها، ولم يكن حينها من الضروري الاهتمام بأناقة الهندام.

وجدته أخيراً في حديقة الجامعة، منغمراً في مناقشة مع طلبة آخرين جالسين في ركن معشوشب أخضر. وما أن لمحني قادماً إليه من بعيد حتى نهض متوجّهاً إليّ قبل أن أصل إليه وسط مجموعته.

- ماذا جئتَ تفعل هنا جيمي!

لم يعُد إيثان كما عهدته من قبل. صار نحيفاً، بشعر قصير، يرتدي سترة وقميصاً وسروالاً من الجينز.

- ماذا حصل لك؟

- لن تفهم. أجابني وهو يهز رأسه.

- اشرح لي الأمر على الأقل!

- ماذا تريد مني أن أشرح لك. تبّاً! كنت أشعر بالاختناق هناك! وأكاد أفقد عقلي من ضغط العمل والاشتغال مع أناس لم

يسبق لهم أن قرؤوا كتاباً، ليس لهم أيّ اهتمام ولا يملكون أي قسط من الثقافة. كنت أحتضر من غير أمل في المستقبل، بلا طموح ولا أحلام!

- وفي الأخير فكرت في.

- أَفِقْ، جيمي! عليك أن تعطي لحياتك معنى. لا تكن لطيفاً مع الناس أكثر ممّا ينبغي. فكِّر في نفسك قبل أن تفكر في الآخرين.

استغربتُ أنه لم يسألني البَتّة لا عن أخبار ماريزا ولا أحوال والدي. لقد شطب بجرة قلم علينا وعلى كل ما له صلة بحياته.

ومع ذلك قبل أن ينصرف طلب مني:

- قدّم لي تبريراً واحداً يُقنعني بالعودة من جديد.

كدتُ أن أقول له: **ماريزا حامل. ستصبح أباً لصبية سترى النور في الأسبوع القادم.** لعله يقتنع بأن يعود، ولعله لن يعود.

غير أني في الأخير عملت بالنصيحة التي أسداها إليّ: أن أفكر في نفسي قبل أن أفكر في الآخرين.

ثم فكرت في ماريزا أكثر من قبل في سرّي.

لم أقُل له شيئاً وانسحبت في صمت.

وأنا على متن الطائرة في طريق العودة إلى بوسطن، بدأتُ أفكر في اختيار اسم جميل يليق بابنتي.

اسم لطفلتي المنتظرة.

21

ماريزا

هكذا نواصل المسير، مثل زوارق في نهر الحياة، نغالب التيّار المرتد بنا إلى الماضي باستمرار.

فرانسيس سكوت فيتزجيرالد

اليوم
ضاحية بوسطن الجنوبية
الساعة الرابعة بعد الزوال

قطع إيثان مسافة 350 كيلومتراً من دون توقف على الإطلاق.

رَكَنَ سيارته بجانب الرصيف عند تقاطع شارعَي هوب وجوي: شارع الأمل وشارع الفرج.

قال لنفسه وهو يصفق الباب خلفه: **دائماً الأماكن الأكثر سوءاً تحمل الأسماء الأكثر تفاؤلاً.**

كانت السماء خفيضة رمادية. بعصبية، أشعل السيجارة، جذب لأعلى عنقه ياقة سترته اتقاء للريح، وانطلق راجلاً في الشارع الذي طالما ذرعه في شبابه.

وجد المكان أكثر تردياً من الصورة المنطبعة في ذاكرته، إذ طيلة خمسة عشر عاماً، لم يستفد الحي من أية عملية تجديد أو أدنى

عملية تحسين، وتظهر عليه آثار أزمة القرض العقاري، كما تعكسها حدائقه المهملة وواجهاته المتصدعة ونوافذه المرتجة. على الرصيف تعرض خردة للبيع من آلات الغسيل المتقادمة، وقطع الأثاث الخشبية والأواني المزخرفة الملفوفة في علب من الكرتون: بقايا هازئة بحياة يومية على إيقاع هجرات متسارعة.

لم تُخَلْخِل أزمة العقار البورصات العالمية إلّا خلال هذا الصيف، لكن بوادر الأزمة ظهرت هنا قبل ذلك، ومنذ ثلاث سنوات لم تضع أوزارها، إذ توالت الهجرات، ليتحوّل الحي تدريجياً إلى مملكة من الفراغ والخرائب التي يتخذها تجار المخدرات ورجال العصابات مرتعاً لهم.

وما دامت الأزمة في بدئها، فهي لم تمَسس إلّا العمال الفقراء، ولا أحد تأسّى لضحاياها من هؤلاء، لكن مجرد ما أن مسّت آثارها سوق وول ستريت حتى ارتج لها العالم بأسره مرتعباً من امتدادها خارج الحدود.

أمر معتاد.

دهسَ إيثان عقب سيجارته، وأشعل أخرى وهو يخترق حشود العابرين. وتمنى لو كان بإمكانه الآن الجلوس في أية حانة لكأس ويسكي أو جرعة فودكا.

هنا، الوجه المتخفي لأميركا: الوجه الذي يكتسي قتامة سحنات العمال الفقراء، الوجه العالق دائماً على رصيف الطوارئ، الوجه الذي نادراً ما نراه في الأفلام الهوليوودية، الوجه الذي يلعب الرهان على الحلم الأميركي بأرقام رابحة على الدوام.

هو نفسه الوجه الذي طالما سعى للهروب منه.

توقف لثوانٍ أمام البيت القديم الذي كان يكتريه والداه، وعليه

لوحة معلقة مكتوب عليها: **فات الأوان، لا نحاس ولا مرجل**. في إشعار موجّه للصوص المنازل المهجورة بأن هناك مَن سبقهم من الزملاء لنهب تجهيزاته. توالت برأسه الذكريات في صور مشوشة متداخلة.

ولمداراة تأثره، تابع سيره على طول الرصيف. تناهت إلى سمعه أصوات كلاب حادة المزاج يرتفع نباحها من وراء الأسيجة. وفي فسحة مبلطة تآكل إسفلتها لَمَحَ قرابة عشرة فتيان بقامات فارعة يلعبون كرة السلة بالقرب من مكبِّر صوت واهن تنبعث منه أغانٍ من الراب «بلينغ بلينغ».

على مبعدة منهم فتاة زنجية وحيدة جالسة على سور صغير بصدد رقن نص على حاسوب محمول متقادم، بشعر مسترسل مفتول على نمط الراستا، وبلوزة بيضاء منحسرة وقميص مزور عن ماركة رالف لورين، ذات نظرة واثقة وميل ظاهر للانعزال. اختلس إيثان نظرة للكتاب الذي تشتغل عليه: الـ«**قلب صياد وحيد**» لكارسن ماكولرز. هذه الفتاة عادت به إلى نفسه قبل عشرين سنة خلت.

تجاوز ملتقى بارك ستريت. لمح رجلاً مُسِناً يسقي حديقته، ألقى في وجه إيثان تحية مشفوعة بابتسامة درداء: العجوز ميتشل لا يزال على قيد الحياة! لقد عرفه قبل خمسة عشر عاماً وهو هرم. ومن المفارقة أنه الوحيد الذي لا يزال على حاله دون أن يطرأ عليه أي تغيير.

أخيراً، لم تعد تفصل إيثان عن البيت رقم 120 إلّا قرابة عشرة أمتار: بيت والدَي جيمي حيث قضى سنواته الست الأخيرة من حياته في بوسطن.

وسط رقعة معشوشبة، لا يزال ينتصب علم أميركي على شكل

مزق حائلة الألوان، وعلى الشرفة تقف امراة تنشر أرديتها المبللة على حبل الغسيل، بينما ينبعث من المذياع صوت سبرينغستين الأجش:

كنت ضائع الملامح...

*

في أزقة فيلادلفيا

كان الجو ثقيلاً، مشبعاً بالرطوبة، موحياً بطلائع مطر قادم. بدا إيثان شارد الذهن، حيث ماريزا تصفف ملاقط الغسيل على حبل من النايلون، وهي تفكر في ابنتها جيسي التي لم يظهر لها أثر منذ البارحة، وفي زوجها جيمي الذي خرج للبحث عنها في نيويورك، وفي مستخدم البنك الذي جاءها هذا الصباح معلناً قرار مؤسسة القرض العقاري الحجز الوشيك على بيتها. كان عليها ألّا تفكر مع جيمي في شرائه مباشرة بعد موت والديه، حين قام مالكوه بعرضه للبيع. كان عليهما الرحيل بعيداً من هنا، لولا أنّ جيمي أصرّ على البقاء! صحيح أنهما كانا حينها في أحسن حال، غير أنهما منذ ستة أشهر انقطعا عن أداء الأقساط البنكية. ومثل الكثير من الأسر سقطا في فخّ الحجز. وبشكل ساذج، وافقا على أداء قرضهما البالغ 250,000 دولار بأقساط على مدى خمسة وعشرين عاماً مع تحويله من نسبة ثابتة إلى نسبة متحوّلة. في الآونة الأولى، تمكنا بفضل ذلك من توفير بضع مئات من الدولارات كلّ شهر، عمدا إلى توظيفها على الفور في مقاولة البناء التي أنشأها جيمي. ثم سرعان ما ارتفعت نسبة القرض، حيث قفزت بقيمة الأقساط الشهرية إلى مستوى يفوق قدراتهما المالية. اضطرت ماريزا للعمل ساعات إضافية في الفندق الذي تشتغل فيه، واضطر جيمي لتسريح العاملين اللذين يشتغلان

معه، ووطدت ماريزا العزم على أن تَكِدَّ في العمل وتحرص على التوفير لتأمين كلفة تدريس ابنتها.

عناء بلا طائل.

قصدت البنك في محاولة منها لإعادة جدولة تقسيط الدفع، لكن من دون جدوى، تمّت إحالة ملفها إلى مكتب الضبط، ومن ثم إلى جهازٍ آخر من أجهزة القرض العقاري. وبفقدانها الأمل في تسوية الوضع، لجأت إلى محامٍ، لكنها لم تربح غير فواتير إضافية. كل هذا لأنها لم تنتبه إلى مضمون التوجيهات المطبوعة بأحرف جدّ دقيقة أسفل العقد.

في الأشهر الأخيرة صارت مسكونة بالرعب: جيمي يبذل أكثر ممّا يقوى عليه في عمله، وبفعل الإرهاق صار سريع الغضب، وجيسي بدورها تمرّ بمرحلة صعبة، وبيت الأسرة مهدّد بالحجز لعرضه للبيع في المزاد العلني مقابل مبلغ زهيد. لكنها منذ البارحة حلَّ بقلبها القلق محلّ الرعب حين تفاجأت بابنتها.

انجلت صورتها الآن في ذهنه وهو يفكّر بها. وتسمَّر بركنٍ في الشارع وهو يرنو إليها من بعيد. لقد انقطع عهدها به منذ خمسة عشر عاماً، ولم تتوقف عن تتبّع أحواله مدى الأيام.

كل ذلك وهي مرتاعة من أمره.

*

وميض متعرّج شقّ الأفق، أعقبه على الفور صوتِ الرعد بقصف يصمّ الآذان. دفع إيثان الباب الصغير وتقدَّم إلى الممر منادياً بنبرة مرتابة:

- ماريزا!

تطلَّع إلى خطيبته القديمة بنظرة فيها مزيج من الشفقة والتردّد.

كانت في مثل سنه -ثمانية وثلاثين عاماً- وإن بدت أكبر منه ببضع سنوات، بقدّها المقوّس قليلاً وبعض التجاعيد المحفورة على وجهها قبل الأوان. وكما لو أنها قرأت أفكاره، قالت له:

- أعرف ما تفكر فيه. أنت أيضاً لم تعد شاباً في العشرين. ولأكنْ صادقة معك، فأنت تبدو الآن أمامي أكبر سناً ممّا تبدو عليه في التلفزيون.

من جديد، زاد قصف الرعد مُعَمِّقاً شعورهما بعدم الارتياح.

- وجودك هنا معناه أنك رأيت جيمي، أليس كذلك؟

كانت تجد صعوبة في إخفاء قلقها. ردّ عليها بهدوء:

- لا، لم ألتقِ جيمي، بل التقيت جيسي.

- هل جئتني بها؟

استعاد صوتها بعضاً من نبرة الأمل. غير أن إيثان حرّك بالنفي رأسه متأسفاً.

- إذاً أين هي؟

تردد بانفعال قبل أن يجيب:

- لا أعلم شيئاً

لم يتوسّم في نفسه الشجاعة لإشعارها بأنّ ابنتها توجد بين الحياة والموت، وحيدة على سرير غرفة العمليات بأحد المستشفيات، خاصة وأنه متشبث بالأمل في تحسّن حالتها، مرجحاً أن يكون وضعها أقل سوءاً ممّا يخشاه وأن تنتهي الأمور إلى الانفراج.

ثم سألها:

- ما السبب وراء اختفائها؟

- هذه أمور لا تعنيك. أجابته ماريزا.

أخيراً انطلقت العاصفة، ومعها هطول أمطار قوية مصحوبة بالبرق والرعود.

- لِمَ لَمْ تكاشفيني حينذاك في الأمر؟ سألها وهو يلتحق بها تحت الشرفة.

وحين لم تُبدِ له جواباً، عاود مساءلتها بنبرة حادة نسبياً:

- لِمَ لم تقولي أنك كنت حاملاً؟

ركَّزت عينيها في عينيه:

- لأنك لم تُتح لي الفرصة لذلك.

- لا، ماريزا، ما أسهل أن تحمِّليني المسؤولية!

- اسمع إيثان، أعرف أن تلك الصبية لم تكن ترغب فيها و.

قاطعها:

- ربما لم أكن أرغب فيها، لكن على كلّ حال أنا والدها ومن حقّي أن أعرف!

توالت البروق راسمة على وجه السماء خطوطاً ضوئية متعرّجة، ثم تناءى صوت الرعد فجأة مخلفاً وراءه جواً ثقيلاً ضاغطاً. فركت ماريزا عينيها من فرط التعب:

- لا يا إيثان، ربما كنت وراء إنجابها، لكنك لست بحكم ذلك أباً لها.

- على العكس!

- جيمي هو مَن تعهد بتربيتها لأربع عشرة سنة كاملة. وأنت، ماذا فعلت؟ أنت لم تطعمها من جوع، ولم تهدهدها للنوم، أو تؤمنها من خوف.

أمسكها من ذراعها ورجّها بعنف:

- كيف تريدين مني الاهتمام بها؟ وأنا لم أكن إطلاقاً على علم بوجودها!

زاد من الضغط بقوة أكبر على ذراعها، فصرخت ملء وجهه:

- هيا، اضربني! على أية حال، هذا كلّ ما تعرف القيام به: إلحاق الأذى بالآخرين!

- رغم ذلك، فجيسي حين ضاقت بالمشاكل لم تجد باباً غير بابي لتطرقه!

أسرعت إلى داخل البيت، جلس هو على الأدراج يلتقط أنفاسه.

تراه ماذا كان يأمل من وراء هذه العودة؟ هل كان ينتظر منها أن تضمّه بكل قوة بين ذراعيها؟ كان ذلك بلا حساب مع معاودة الإحساس الذي كان يستشعره في ذلك العهد، والذي تعاظم مع مرور السنين.

*

- قبل أربعة أو خمسة أعوام، جاءت سيدة تبحث عنا.

قفز إيثان من مكانه. كانت ماريزا قد عادت إلى سطح البيت. من الظاهر أنها استعادت هدوءها وتخفي شيئاً وراء ظهرها.

- سيدة فرنسية، أخبرتني باسمها غير أني نسيته.

سيلين.

إنها سيلين، التي لم تكن تعرف عن ماضيه الشيء الكثير، وجاءت تقتفي أثره حتى بوسطن! لم يشكّ في ذلك أبداً.

- عمّا جاءت تبحث عنه؟ سألها وهو يحاول إخفاء مشاعره.

- لم أحاول أن أعرف أكثر ممّا ينبغي. ربما كانت تريد

«فهمك»، هذا ما أسرَّت لي به. وما فهمته أنا من ذلك أنك تخليت عنها هي الأخرى دون سابق إشعار كما هي عادتك.

- وماذا حكيتِ لها؟

- الحقيقة.

- حقيقتك أنت؟

- ربما، لكن ما فاجأني أكثر.

- ماذا؟

- لقد تركت لدي الانطباع بأنها مع ذلك ظلّت متشبّثة بك.

أطرق إيثان رأسه، أشعل سيجارة وتركها تتآكل احتراقاً على مهل، ساهماً في الفراغ، قبالة جدار من الغيوم السوداء التي تحجب الأفق.

- على أيّ حال، بودي أن أعيد لك هذه الوديعة!

التفت إيثان ليتلقى ملء صدره المشرع القذيفة التي صوّبتها ماريزا باتجاهه. كانت عبارة عن حقيبة رياضية من جلد رديء متآكل، مزينة بشعار انمحى نصفه من علامة «جو» عن لوس أنجلس، في عام 1984.

- ما هذه؟

- ما عليك إلّا فتحها.

فتحها، فإذا بها مليئة عن آخرها بالأوراق النقدية، حزمات من فئة الخمسين والمائة دولار.

- هذا لكَ، إنه المال الذي كنت ترسله لجيمي منذ عشر سنوات. معادل تحويلك الشهري على حسابه: 800 دولار شهرياً في البداية، ثم 2000 دولار حينما بدأت تظهر في التلفزيون.

وضع إيثان الحقيبة على المائدة البلاستيكية، بينما تابعت ماريزا:

- بإمكانك عدّ المبلغ، ستجده غير منقوص بالتمام والكمال: 148000 دولار بالضبط. أهذا ما يساوي قيمة إحساسك بوخز الضمير؟ أهذا ما يساعدك على النوم؟ ماذا كنت تعتقد؟ أننا كنا بانتظار صدقتك كي نعيش؟

حاول تهدئتها. لكنه لم يفلح.

- أيسليك أن تلعب دور السامري الطيب؟

- كنت أريد فقط مدَّ يد العون إليكم.

- لم يكن من داعٍ لمساعدتنا! لقد قرّرت الرحيل، وما كان عليك أن تعود يا عزيزي. كان عليك أن تهدم بيننا كل الجسور! لكن لم تكن لديك الشجاعة الكافية.

- وها أنا كما تراني، في هذه اللحظة، غارقة في حياة التقشف، مثقلة بالديون ومهدّدة بضياع بيتي، ومع ذلك أفضِّل الموت على قبول صدقاتك!

وفي غمرة غضبها، فتحت الحقيبة وأفرغتها بعصبية، فانسربت منها مئات الأوراق النقدية وتطايرت بهبة ريح في الهواء مثل سرب من الطيور البرية الفزعة.

- إذا كنت تريد فعل شيء من أجلي فما عليك سوى أن تُعيد لي ابنتي وزوجي. هذا كل ما أطلبه منك يا إيثان.

*

فجأة، اشتدّ هبوب الريح مع هطول المطر على صوت نباحٍ قادمٍ من بعيد.

مفحماً بكلامها القاسي، نزل إيثان الأدراج بسرعة، وانطلق مهرولاً في الاتجاه المعاكس لشارع هوب إلى أن وصل إلى سيارته.

كانت تصله هتافات لاعبي كرة السلة بعد أن تركوا الملعب وسط العاصفة، وانطلقوا يتراكضون كالمجانين خلف الأوراق النقدية المتطايرة بعبث الريح كأوراق أشجار ميتة.

حينها، كانت الفتاة بحاسوبها المحمول تحتمي بسقف موقف الحافلة من الرياح الهوجاء والأمطار الغزيرة، ضامّة الكتاب إلى صدرها، وعلى غلافه تظهر صورة بالأسود والأبيض: سنوات الأربعينيات، شابة مقصية، وحيدة وسوداوية.

النعمة الهشّة للكاتبة كارسن ماكولرز.

22

أضواء المدينة

هناك نجوم ميتة لا تزال مضيئة،
لأن بريقها سقط في فخ الزمن.
دون دوليلو

اليوم
الساعة 20 و45 دقيقة
عبر الطريق السيار لولاية نيويورك

كان قد مرّ وقت غير يسير من الليل.

باندفاع وتوتر، انطلق يقود سيارته باتجاه مانهاتن، رافعاً تدريجياً من وتيرة سرعته. كل دقيقتين، يلقي نظرة على شاشة هاتفه المحمول بانتظار رسالة مطمئنة من شينو ميتسوكي عن الحالة الصحية لجيسي. كان قبل ثلاث ساعات قد تلقى بهذا الشأن نصاً مقتضباً: **الحالة مستقرة - العملية متواصلة**. حاول الاتصال بالمستشفى وهو في الطريق، ولم يتلقَّ من الطبيب أيَّ رد.

هو لا يزال متأثراً بالمواجهة التي جمعته بماريزا، لقد حمّلته كلّ أوزار الزمن، وصبَّت عليه جام غضبها وحقدها وإحباطها، إلى حدّ أنها أنكرت عليه حق أبوّته لابنتهما جيسي. لكنه مع ذلك، أفلح في تغيير وجهة نظرها. صحيح أنه كما قالت له لم يكن بجانبها

خلال الخمس عشرة سنة التي عاشتها مع جيسي، غير أنه اليوم مستعدّ لإيلائها الرعاية اللازمة وتعويضها عن كلّ سنوات غيابه، فما زال الوقت مناسباً لتدارك ما فات، شريطة أن يظلّا معاً على قيد الحياة هذا اليوم المجنون.

استطلع الطريق خلفه في المرآة، وخفض من سرعته قبل أن ينحرف يساراً باتجاه المخرج نحو طريق ساوميلز باركواي السريع. وما دام مقياس الوقود يومض على لوحة القيادة، فقد ارتأى أن يتوقف بمحطة البنزين. وما أن انبرى مستخدم المحطة لتقديم الخدمة المطلوبة، حتى خرج من سيارته المازيراتي ودلف إلى دورة المياه ليعمِّد وجهه بقليل من الماء. منذ لحظة، بدأ يتردّد بذهنه تساؤل ملحّ: تُرى ماذا كان بإمكانه أن يفعل قبل خمسة عشر عاماً لو أنّ جيمي أخبره بحمل ماريزا؟ هل كان من الممكن أن يعود في الحال إلى بوسطن للاضطلاع بدور الأب المسؤول أم يبقى بسياتل لمواصلة حياته الجديدة هناك؟

تفرس طويلاً وجهه في المرآة المعلقة أعلى المغسلة كما لو كان الجواب مخطوطاً بين ثنايا تجاعيده أو بريق عينيه أو فرجة شفتيه. لكنه في الحقيقة لم يكن ليظفر بشيء. قطعاً ليس بإمكانه الآن أن يُعيد كتابة التاريخ افتراضياً. تُرى مَن يقدر أن يكشف بكلّ يقين عمّا يمكن أن يكون عليه تصرفه في ظروف أخرى؟ لا أحد.

لم ينته لإجابة مقنعة عن تساؤله. غادر دورة المياه، ووقف أمام آلة توزيع المشروبات الساخنة وسرّب داخل صندوقها قطعة نقدية. كانت المحطة مزينة بألوان عيد الهالوين، وأشرطة وزينة برتقالية اللون، ويقطينات تبدو ثقوبها كوجه بشري بعينين مضيئتين، هذا فضلاً عن قبعات الساحرات، وأقنعة الرعب على شاكلة أقنعة فيلم

صرخة. وبجانب المجلات المعروضة هناك مجموعة من آخر أجزاء هاري بوتر تتمدّد على رفّ بأكمله لتسرق الأضواء حتى من الكاتب الشهير ستيفن كينغ. أخذ إيثان مشروبه الساخن من الكابوتشينو ورشف منه جرعة قبل أن يتركه ويخرج تحت جنح الظلام. لم يكن يستعجله إلّا أمر واحد: الالتحاق بأقصى سرعة ممكنة بالمستشفى الذي ترقد به ابنته جيسي ليكون بجانبها في محنتها. أشعل سيجارة أخرى - **غداً، سأقلع عن التدخين. هذا إذا بقيت على قيد الحياة، سأقلع عن التدخين، أقسم على ذلك.**

بدخوله مانهاتن، بدت تظهر على السيارة أمارات عطل وارد: الصوت نفسه الصادر عن الفنيل المتراخي كما حصل في المرة السابقة. لم يتفاجأ إيثان: ما دام يعرف أنه يعيد من جديد معايشة اليوم نفسه، فإنه لم يقلق لأمر المازيراتي وهي تتعرض للأعطاب والخيبات نفسها. كل شيء كان محسوباً، لقد أسعفه الحظ في أن تقوده إلى بوسطن ذهاباً وإياباً. وما دام موجوداً أقرب إلى مسكنه مقارنة مع المشفى، فقد ودّ أن يسعفه الحظ مرة أخرى في الوصول إلى يخته قبل أن تسلِّم سيارته الروح وتتوقف نهائياً، وإذا تمّ له ذلك سيركنها في موقف المرفأ ويأخذ بدلاً عنها دراجته النارية المتروكة بمرأب صغير بقلب الموقف.

*

- الجو ليس حاراً، هه؟

كان إيثان قد خرج للتو من سيارته مطمئناً لتمكّنه من الوصول، حين التفت لمصدر الصوت.

بغتة، تلقى على مستوى بطنه قبضة قوية سحقت كبده وتقطعت لها أنفاسه. وتلتها قبضة ثانية على مستوى وجهه تصدَّع لها ذقنه

فسقط على إثرها أرضاً العملاقان بوجهيهما المربعين ونظاراتهما السوداء وعدوانية «سربير» حارس جهنم، جذباه وأوقفاه ليتحكما به بشكل أفضل.

تباً عصابة جياردينو! لقد نسيت هؤلاء بالمرة!

في الظاهر، لم يكن العكس حقيقة.

رغم برودة الطقس، لم يكن «الجلاد» مرة أخرى يرتدي قميصاً تحت سترته الطويلة. وعوض أن يقدم نفسه، بادرَه بقبضة موجعة لتجاويف بطنه، وقال له مطأطئاً رأسه:

- الآنسة جياردينو تنتظر المال منذ خمسة عشر يوماً.

- يكفي من هذه الأسطوانة المشروخة!

بدأ الغضب على وجه المرتزق من تقطيب حاجبيه، دون أن يفهم مغزى الردّ. وليخفي اضطرابه جمع قبضته وبادره:

- ستدفع الثمن دماً!

وقبل أن ينهال عليه بوابل من الضربات باحترافيته المعهودة.

- سترى مخاطك رعافاً لوقت طويل!

من الضربات الأولى، خارت قواه. كانت آثار العدوان السابق لا تزال بادية على جسده. لكن هذه الدقة غابت عن جلاده الذي تضاعفت حدّته، فأن يُوسِعَه لكماً كان أهون عليه أن يجد يديه مشدودتين لقدميه عاجزاً عن الحركة تحت ثقل هذين العملاقين اللذين يقومان على أكمل وجه بدور الملزمة والمسحقة في حضرة قائدها.

لكن الأمور صارت فجأة أكثر تعقيداً بظهور شخص آخر كان

مختبئاً بين السيارات في الظلام، إذ انقضّ على الجلاد ووجّه له ضربة موجعة.

هكذا اندلعت معركة أخرى. ولدعم قائدهما أطلقا في وقت واحد خناق إيثان وتركاه يتهاوى على الأرضية المبلطة منهاراً، بفم مدمى، وأجفان متورمة وجسد متهالك على الإسفلت، وهو يتابع في ذهول المواجهة التي تدور أمامه غير مُدركٍ ما يقع. مَن تُراه يكون هذا الشخص المجهول؟ لماذا تدخَّل لإنقاذه؟ نهض بصعوبة، أغمض عينيه وهو يحاول أن يتماسك. تنبه إلى أنه ضاعت منه زجاجة إحدى نظارتيه في أثناء المعركة ولم يعُد بوسعه أن يتبين شيئاً تحت ستر الظلام. لم يتفاجأ بـ«منقذه» وهو بين الوحشين يتلقى الضربات القوية. إنها معركة ضارية ليس بالإمكان توقيفها إلا باستعمال سلاح. وفي هذه الأثناء انشغل عنه الثلاثة لفترة وأسقطوه من حسابهم، ممّا أتاح له فرصة الفرار بجلده، غير أن نفسه لم تسوِّل له التخلي عن منقذه، إنه.

جيمي!

ومن هول المفاجأة تسمّر في مكانه مذهولاً فعلاً إنه جيمي.

جيمي الذي كان في هذه الأثناء يعاني ما يعانيه بين حدّي ملزمة ساحقة.

إنها معركة ضارية ليس بالإمكان توقيفها إلّا باستعمال السلاح.

نهض المرتزق وتوجّه نحوه وهو يعدل قبعته، وبيده مديّة بزِرّ توقيف في مقبضها ضَغَطَ عليه فاستوَت في الحين حادة لامعة.

بتردد صوت انفتاح المدية في مسمعه، انبثقت الفكرة في ذهن إيثان.

استعمال السلاح.

كيف أنه لم يفكر في ذلك قبلاً؟ أدخل يده في جيبه وسحب منه مسدس جيسي الذي حجزه من محفظة يدها على الرصيف مباشرة بعد الحادث. صوّب المسدس باتجاهه على مستوى ساقيه، لكنه لم يسبق له أن أطلق رصاصة واحدة في حياته، ولا صوّب سلاحاً اتجاه أحد، وأكثر من ذلك فهو يجعل مسافة التراجع أو.

انطلقت الرصاصة الأولى تلقائياً، ثم تلتها الطلقة الثانية حيثما اتفق.

ندّت عن الجلاد صرخة مدوية وهو يمدّ يده على التوالي إلى فخذه ثم إلى ركبته قبل أن يهوي إلى الأرض. تفاجأ مساعداه بهذا الردّ غير المتوقع، فما كان منهما إلّا أن بادرا بإطلاق جيمي والإسراع في إجلاء زعيمهما على سيارة الهامر رباعية الدفع. لم يستغرق الوقت أكثر من عشرين ثانية بين الطلقتين وعملية فرار الرجال الثلاثة على صرير العجلات في سرعة مجنونة.

لحسن الحظ، لم تُثِر لعلعة الرصاص انتباه أحد، ذلك أن موقف السيارات كان خالياً في هذه الساعة المتأخرة من الليل. بوجه مكدوم، وَجَدَ جيمي صعوبة في استعادة أنفاسه المتقطعة، فجلس على الأرض مسنداً ظهره إلى إطار العجلة الأمامية للمازيراتي. قصده إيثان وجلس بجانبه. ثم خاطبه وهو يشير إلى المسدس الذي أثار الكثير من النقاشات بينهما في فترة المراهقة:

- كنت أقول لك دائماً إنّ هذا المسدس لن يجلب لنا سوى المتاعب.

- ومع ذلك، كان سببَ إنقاذ حياتنا. أليس كذلك؟

*

- لكن كيف عثرت عليّ؟

- لقد قصدت مكتبك، وبدا لي أني لم أكُن المنشغل الوحيد بالبحث عنك. وجدت هؤلاء الأشخاص يوجّهون إلى الجميع أسئلة بشأنك. وحين أيقنت أنهم في الطريق إليك بعد أن توفّرت لهم المعلومات اللازمة تعقّبتهم لأصل إليك. وعلى كلّ حال، فأنا أعرف أيضاً عنوان يختك، لقد سبق لي أن رأيت مرة صورته في إحدى المجلات.

- هل أصبت؟

- لا بأس، وإن كان لهؤلاء الرجال قبضات قوية.

- وفوق ذلك، لقد نجوت من الأسوأ

- الرجل القصير الهائج بقبعة الكاوبوي؟

- نعم، إذا كنت تحرص على أصابعك، فتجنب مصادفته على الطريق.

- ماذا يريدون منك؟

- أنا مدين بالمال لمشغِّلتهم: دَيْن من لعبة البوكر.

حرّك جيمي رأسه غير مصدق:

- أنت، هل خسرت أنت لعبة البوكر في مواجهة امرأة؟

- نعم، في هذا الزمن الرديء، هه؟

صدرت عن جيمي ابتسامة رغماً عنه:

- كم بذمّتك؟

- أكثر من مليوني دولار.

ندت عنه زفرة طويلة.

- أنت في ورطة كبيرة. هه؟

- ها أنت قلتها.

- ومع ذلك، تبدو في التلفزيون رجلاً سعيداً.

كان إيثان هو من ابتسم هذه المرة، وقد أحسّ حقيقة بارتياح لملاقاة صديقه من جديد، وإن كان مضطراً للأسف لإعلامه بخبر سيئ للغاية. قام ومدّ إليه يده يستحثّه على النهوض قائلاً:

- هيا بنا. علينا الذهاب لرؤية جيسي.

سأله جيمي وعيناه تلمعان في الظلام:

- هل تعلم مكان وجودها؟ لقد قضيت اليوم كله في البحث عنها.

- إنها في المستشفى.

- في المستشفى؟

- اصعد إلى السيارة، سأشرح لك خلال الطريق.

كان من الظاهر أن إيثان قد نسي بالمرة السبب الذي جاء به إلى المرفأ السياحي.

*

بعد ربع ساعة

لم تجد المازيراتي في طريقها ما يعيقها عن الوصول بسرعة إلى موقف السيارات بمشفى سانت جود. انطلق منها إيثان وجيمي بسرعة دالفين البهو. بحث إيثان بعينيه عن موظفة المكالمات التي رآها في الصباح، فلم يجدها وأدرك أنها أنهت خدمتها لهذا اليوم.

بدلاً منها وجد امرأة أكبر سناً بنظرة حادة وملامح أمّ مترفعة، بدت مهتمة بالتدقيق في تفاصيلهما بارتياب ظاهر، إذ كانت آثار المشاجرة مع عصابة جياردينو لا تزال بادية عليهما.

- مساء الخير سيدتي، نريد الاطمئنان على جيسي كافاليتي،

الفتاة التي أجريت لها عملية جراحية اليوم من قبل الدكتور ميتسوكي الذي.

- هل أنتما من عائلتها؟ قاطعته فجأة.

- أنا والدها. أجاب الرجلان بصوت واحد.

سادت لحظة صمت. حدّق إيثان وجيمي كلّ منهما في الآخر، ثم توجّه جيمي للسيدة المرتابة يشرح لها بتلعثم:

- نعم، نحن والداها.

23

قلب الأحياء

قلب الأحياء هو القبر الحقيقي للأموات.

تاسيت

في ذهن جيسي

بين الموت...

والحياة

- انتبهي!

قبل كل شيء، هناك تلك السيارة.

حين أراها وأنا أعبر الشارع، أعرف بأنه فات الأوان عن تفادي الحادث. إنها تصدمني بكلّ قوة. هي مجرد سيارة، لكن صدمتها عنيفة كما لو أنها مقدّمة قطار تجرّ خلفها عشرين قاطرة رمتني تحت عجلاتها. أشعر أني أرتطم بشيء صلب حادّ. أحسّ بألم فظيع، وبعدها لا شيء سوى الغشاوة السوداء. حين أفتح عيني، أجدني في الفضاء من جديد، لكن على نحوٍ مختلف. أحلّق فوق الشارع، وأرى جسدي مسجّى على قارعة الطريق، وقد توقفت حركة المرور وتجمهر حولي كل هؤلاء الناس.

- ابدأ التدليك الصدري ريكو. وأنت يا بيت ساعدها بإزالة قميصها. هيا تحرّكا يا صبيان!

أرى فريق المستعجلات يحاول إنعاشي بإسعافاته الأولية. وأنا أحوم مثل فراشة مجنّحة حول الطبيبة التي تجدّ في إنقاذي.

- هيا، مؤشر غلاسكو 3، لا أثر للنبض الفخذي. تباً، إنها تضيع منا، إنها تضيع!

هي شابة من المُلوّنين، تُدعى سادي. من أب جمايكي وأم كندية. ومن الغريب أن يتولد لدي انطباع بأني أعرفها من قبل مع أني ألتقيها لأول مرة في حياتي. ورغم ذلك، أعرف عنها كل شيء: عن طفولتها، وآمالها، وقصص حبّها، وكلّ أسرارها.

- هيِّئ لي المجال، صعقة كهربائية على الفور، مدد الجليد، لا، ليس هكذا، تباً. فعلاً، لا شيء يُجدي في رأسك الصغير!

في هذه اللحظة، أعلم أنها خائفة من اتخاذ القرارات الخاطئة والظهور كمغفلة أمام الممرضين. لهذا، فهي تختفي وراء لهجتها الرجولية الآمرة.

- لا أرى غير البلاطة. أتفعل ذلك عنوة أم ماذا؟ هيا، مُدّني باللوحة. وضعية مباشرة بـ 200 جول. انتباه، صعقة كهربائية.

هو الآخر، أراه: إيثان ويتاكر، والدي. أراه متسمراً يرتجف خلف المسعفين، وهو يلهج في سريرته بصلاة صامتة من أجل بقائي على قيد الحياة. في هذه اللحظة بالذات، أستطيع اختراق قوقعته وسبر أغواره واستقراء ما يحتفظ به في سريرته طيّ الكتمان عن الآخرين: خوفه، توجّساته، وبحثه عن الحب الذي لا يعرف كيف يعبّر عنه.

مثل ملاك أحوم حوله. وددتُ لو يستطيع أن يراني مثلما أراه، وأن يتبيّنَ النورَ الذي بداخلي.

- هيّا، ركب المصلَ الوريدي، لنثبت الأنبوب لضخّ ميليغرام من الأدرينالين وحقنتين من الكوردارون. أسرِعْ ريكو عوض أن تظلّ هكذا شاخصاً ببصرك كالأبله!

تقوم المرأة الشابة بعملية تدليك صدريّ أشعر معه بالارتياح، بكثير من الارتياح الذي أودّ ألّا يتوقف أبداً، في كل حياتي، بين يدين يتلقفان دائماً قلبي.

- طيب، صعقة أخرى من جديد، 200 جول. هيا ابتعدوا!

ارتفعت، روحاً سماوية بخارية، بخفّة ريشة ونعومة قطن. بي حرارة زائدة نسبياً، لكنها تبقى على القدر اللازم كما في حمام ساخن لذيذ. من موقعي هذا أعرف كلّ شيء: أن للحياة معنى فوق إدراكنا، وأننا لا نفهم شيئاً، وأننا لا نتحكم في شيء.

- حسناً، صاح ريكو بابتسامة عريضة، لقد عاد النبض من جديد!

- وماذا بعد، هل ترغب في ميدالية. ردّت عليه سادي بنبرة زاجرة.

يعتقدون أنني «عائدة»، لكنهم مخطئون. على العكس، أنا راحلة بلا شك هذه المرة. على الأقل أجدني لثانية واحدة على مسافة عدة كيلومترات من هنا، ما بين الشارع 42 وشارع بارك أفنيو: المحطة المركزية الكبرى، محطة مانهاتن.

والدي، جيمي، ينزل من القاطرة ويحاول على الرصيف تبيّن

اتجاهه. هو لم يعُد لمانهاتن منذ زمن طويل، ويجد صعوبة في التعرّف على المكان. إنه لم ينَم الليلة، أعلم أنه استيقظ باكراً، واستقل الحافلة إلى نيو هيفن، ومنها ركب القطار المتجه إلى نيويورك. وأعلم أنه جاء للبحث عني وهو يعاني اتجاهي الإحساس بالذنب.

مثل طائر، أرفرف وأحوم، أراود سقف البهو المزخرف الرحيب لسماء متلألئة بآلاف النجوم. ثم أحطّ على أعلى الساعة الدقاقة بواجهاتها الأربع البراقة بقلب المبنى.

- بابا، بابا.

أصيح به، لكنه لا يسمعني.

بودّي أن أعرب له عن أسفي، وعن مدى حبي له، وعن...

لكن فجأة كل شيء يتشوش، حيث تهبّ عليّ نفحة نفس وتأخذني بعيداً.

*

مانهاتن
مشفى سانت جود
الساعة 21 و50 دقيقة

وجهها، بقسماته الحادة، يؤشر على العملية الجراحية التي شاركت فيها. كلير جيولياني، طبيبة داخلية شابة في قسم الجراحة، حدجت الرجلين الواقفين قبالتها بنظرة مرتابة. فقد بدا لها من الكدمات البادية على وجهيهما أنهما خارجان للتو من معركة خاسرة، ولم تفلح في تمييز والد الفتاة. مداراة لحيرتها، نظرت إليهما تباعاً وهي توجّه لهما خطابها بحسّ خبير.

- الفتاة وصلتنا في حالة جدّ خطيرة. ارتجاج في المخ الناجم

عن الحادث أدخلها في غيبوبة متواصلة إلى حدّ الآن. أجرينا لها الفحص الأولي بالأشعة تخوّفاً من إصابة الدماغ، قبل نقلها إلى غرفة الجراحة لوقف نزيفها الداخلي.

توقفت لحظة، كأنها تستجمع قواها للقيام بهذه المهمة الصعبة التي يكلفها بها الدكتور ميتسوكي دائماً. لقد حاولت عبثاً القيام بهذا النوع من التبليغ عن حالة المرضى حتى أنها لم تعد بالنسبة إليها تدخل في الخدمات الروتينية المألوفة، بل صارت، على العكس من ذلك، تجدها كلّ يوم أصعب أكثر فأكثر.

- بعدها، استقرت حالتها، لكننا اكتشفنا جرحاً عميقاً أعلى الفقرة الأولى من عمودها الفقري.

خلعت قلنسوة الجراحة وعليها قطرات رَشحٍ من خصلاتها المتدلية المبتلة بالعرق. لقد تعبت من الصراع ضد حتمية القدر، وضجرت من هذا العمل الذي يُكرهها على التآلف مع الموت كل يوم. الموت، لم تعُد تريد التفكير فيه. وهذا المساء، تتوسّم في نفسها الشجاعة اللازمة لأن تترك كلّ شيء وتستقل أول طائرة لترحل بعيداً. وفي ثانية، فكرت في السفر إلى البرازيل، إلى ساحل أيبانيما، إلى ذوي البشرة السمراء من كاريوكاس وهم يلعبون الكرة الطائرة على الشاطئ، إلى موسيقى البوسا-نوفا من كايتانو فيلوسو، إلى مشروب البينا كولادا التي نشربها في جفنات الأناناس.

- في الفحص الثاني بالأشعة، اكتشفنا خط كسر عظمي إلى جانب ورم دموي ناتج من تسرب الدم بين العظم و.

- فهمنا طبيعة الورم. قاطعها إيثان.

- كان عميقاً ومركّزاً على نحو سيئ، زادَ من تعقيده جرح في تجويف وريدي.

- لقد ماتت جيسي، أليس كذلك؟ سألها جيمي.

لم تردّ كلير على سؤاله مباشرة. كان عليها أن تواصل كلامها بحسب نهجها المرسوم لتتمكن من التحكم في الإحساس عن بُعد.

- قام الدكتور بإخضاعها لعملية جراحية مستعجلة في محاولة منه لمعالجة الورم الدموي. لقد بذلنا لأجلها قصارى جهدنا في حدود المستطاع، لكنها. لفظت أنفاسها الأخيرة. أنا آسفة.

ندّت عن جيمي صرخة ألم سرعان ما كبحها في شهيق نحيب مبحوح.

- كل هذا، كان بسببك! صاح في وجه إيثان وهو يوجّه إليه لكمة قوية رمت به على إحدى العربات الحديد المليئة بأطباق وجبة عشاء نزلاء المشفى.

*

في ذهن جيسي
بين الحياة. . .
والموت

أعلو، خفيفة كالهواء، فوق الغيم. وأنا في الأعالي أرى الأرض تتوارى عني، والأشجار والناس. أعلو، لكنني لم أعُد أتحكم في شيء، ليس لي إلّا أن أندفع محمولة بقوة أشبه بمغناطيس سماوي ذي طاقة لا تقاوم تجذبني أعلى فأعلى. وكلما عَلَوتُ صارت الغيوم داكنة، كثيفة وغير آمنة. وبعدها يساورني إحساس بالضياع وسط سحاب من الأدخنة السوداء الناجمة عن حريق يشعرني بالاختناق والاحتراق. هناك نفق، لكنه ليس مغموراً بالنور كما تعدنا به الكتب المقدسة. إنه بالأحرى معبر تحت أرضي، مزيت لزج تنبعث منه رائحة الإسفلت الذائب. وفي هذا

المعبر، كوة مزخرفة لا بد أن هناك من نسي إغلاقها: نافذة مشرعة على مستقبلي، أشرئب منها من أجل الاستطلاع فلا رأي سوى ما يبعث الرعب في دواخلي. أنا الآن ممدّدة على السرير بأطرافي الأربعة المشلولة ووجهي المشوّه، أحاول عبثاً تحريك رأسي والوقوف على قدمي لكني أجدني سجينة درع خفي ملتفّ حول جسدي. وأفتح فمي لمناداة أمي فيلجمني الخرس. في لحظة وجيزة، أدركت أن بقائي على قيد الحياة لا يزال وارداً، غير أني لا أريد أن أعيش بقية أيامي مسمّرة على هذا الصليب. على هذا النحو، أحسّ أني منقادة حتماً في مساري المحتوم لموتي المرتقب. الطابق الأرضي يشرف على مدار فسيح على شكل دوامة، زوبعة هوجاء أطلقت لرياحها العنان على مدى مئات الكيلومترات. وها أنا أتوغّل في هذه الفوضى العارمة وأغرق في هذا الإعصار الحلزوني المتصاعد فوق قمة أعلى من كلّ ذرى الجبال الشاهقة.

والآن، أحس بالخوف حقاً، لا أثر هنا للحب أو العطف، وفي سقوطي صادفت بشكل خاطف بعض الوجوه: تومي، ابن جارنا الذي دهسته شاحنة وهو يلعب على دراجته الهوائية في سن الرابعة، وفريدا، جدتي من أمي التي ماتت على إثر إصابتها بسرطان الرئة، والسيد رودجرز الذي رمى بنفسه تحت القطار منتحراً حين تركته زوجته وحيداً. مرّ تومي من أمامي على دراجته ثلاثية العجلات وأومأ لي بتحية قبل أن يغيب عن عيني، وفريدا - التي كانت دائماً تكرهني- نفثت دخانها في وجهي عنوة بلا اكتراث، والسيد رودجرز ببذلة عامل في سكة الحديد يمتطي ظهر قاطرة بخارية شبيهة بلعبة أطفال.

وكلما تهاويت إلى الأسفل، تكاثفت العتمة حولي وضاقت أنفاسي، ووجدتني واغلة وسط طبقة من غيوم صلبة، رمادية ومائلة للزرقة تلفّني؛ إلى درجة الشعور بالاختناق. أعرف أني في آخر المطاف سينتهي بي سقوطي لفمٍ سيبلعني وتكون تلك هي الخاتمة. أخاف كثيراً من أن أبكي وأصرخ مثل رضيع. أصرخ، لكن لا أحد يستجيب لصراخي.

وفجأة، لمحته عند منعطف مغشي بالضباب: إيثان، أبي، كما رأيته هذا الصباح، بالقميص الأسود نفسه، والسترة الجلدية نفسها، والهيئة نفسها لبطل متعب حدّ الانهيار. لا أفهم ما الذي جاء به إلى هنا، ومن الظاهر أنه لم يتفاجأ بلقائي. ما فهمت، على العكس من ذلك، أنه موجود عند حدّ نقطة اللارجوع تماماً.

- جيسي، جيسي.

مررتُ أمامه بسرعة.

- بابا، أنا خائفة! أنا خائفة!

مددتُ له يدي لكنه لم يمسكها.

- تعال معي، أبي! أنا خائفة!

- أنا. . . أنا لا أستطيع، جيسي.

- لماذا؟

- برفقتك يا جيسي ستكتب نهايتي.

- كن برفقتي، أتوسل إليك يا أبي!

هو الآن بدوره يبكي.

- لكن إذا عدت، يا جيسي، قد يُكتب لك حظّ آخر.

لكني لم أفهم ما يعنيه بكلمة حظ. حظ ماذا؟

- أنا خائفة جداً يا بابا!

أشعر أنه متردّد وقد لاحظ اضطرابي.

- إذا سُمح لي بالعودة، سيكون بإمكاني الحظ في إنقاذك، وإلا قضينا معاً نحن الاثنين.

لا أفهم شيئاً مما يعنيه، وعلى كلّ حال، لم يعُد لنا متسع من الوقت لمزيد من الحديث. أجدني أتوغل أكثر وسط هذه السحابة الكثيفة من الضباب أكتوي بها وأموت. الآن، ينتابني خوف شديد، ويستبدّ بي ألم عميق لكوني أشعر بقليل من الندم لعدم اختياري طريق العودة حين أتيحت لي إمكانية الاختيار قبل قليل، حتى ولو بأربعة أطراف مشلولة، وحتى في حالة العجز المطلق.

يصيح بي أبي:

- أعدكِ بأنك ستبقين على قيد الحياة، يا جيسي.

كانت تلك آخر الكلمات التي سمعتها منه دون أن أفهم قصده منها.

لأني كنت أعرف جيداً،

أنّ كل شيء قد انتهى.

*

مانهاتن

مشفى سانت جود

الساعة 21 و55 دقيقة

دفع جيمي باب الغرفة.

جيسي ممدّدة، عيناها مغمضتان، وسط عتمة قاعة جليدية الألوان. من الغطاء الوردي الشاحب لا يظهر سوى وجه رخامي بشفتين مزرقتين، وجانب من صدر فاتح اللون. بجانب السرير تتدلى أنابيب الحقن التي لم تعُد لها جدوى، وشاشة تخطيط القلب

الإلكتروني المتوقفة في صمت، وآلة التنفس الاصطناعي خامدة الأنفاس. والأرضية المبلطة المربعة التي لم تنظف بعد من بقع دمها المتجمدة، ثم وزرة جراحة وقفازات طبيّة معلقة. كلها آثار متبقية من معركة خاسرة.

وضع جيمي كرسياً بالقرب من سريرها، وظلّ جالساً عند جثمانها كابحاً جماح فجيعته، ثم لم يلبث أن وضع رأسه على صدرها مستسلماً لنوبة نحيب صامت.

هذا المساء، تقطّع حبل من حبال النجاة، وفي المعركة التي وضعته وجهاً لوجه مع الكارما كان من نصيب القدر أن يربح هذه الجولة.

*

مانهاتن
مشفى سانت جود
الساعة 22 و5 دقائق

دفع إيثان الباب الحديد المفضي إلى سطح المشفى، حيث تحطّ المروحيات لنقل الحالات الطارئة أو تسليم الأعضاء البشرية. يبدو المكان، وقد كنسته الريح، مشرفاً على نهر إيست ريفر، والدكتور شينو ميتسوكي واقف بجانب قناة تهوية المبنى، وبصره ساهم بعيداً، أبعد من أضواء المدينة. بادره إيثان مقترباً منه:

- إذاً لم نعد نملك حتى الشجاعة للاعتراف بالفشل؟!

ظلّ الطبيب محافظاً على هدوئه، فواصل إيثان في تحدٍّ ظاهر:

- فهذا لا يساعد «كارماكَ»: أزمة ضمير بسبب موت صبية، من المفروض أن يعود بك إلى حيوات سابقة. أليس كذلك؟

- فعلتُ ما بوسعي، وهذا يكفي.

- هذا ما نتعلّل به دائماً.

تناول إيثان سيجارة لإشعالها، لم يجد قداحته، فتّش كل جيوبه فوجدها فارغة. لا بد أن تكون قد ضاعت منه في أثناء المشاجرة العنيفة التي خاضها في موقف السيارات.

تطلع في ميتسوكي علّه يسعفه بقداحة، لكنه اكتفى بأن هزّ رأسه معتذراً:

- أنا لا أدخن.

- طبعاً لأنك قديس، أو لأنك بالأحرى راهب بوذي.

احتفظ الطبيب برباطة جأشه، وإيثان يواصل استفزازه:

- لا سيجارة، ولا كحول، ولا نساء، ولا كوليسترول.

بفعل حدة شعوره بالألم وعقدة الذنب لفشله في إنقاذ حياة جيسي، كان إيثان في حاجة إلى صبّ جام غضبه على أحد ما، فتابع:

- لا مجازفات، ولا حزن، ولا احتدام، ولا انفعال، ولا حياة! كل ما لديك وجودك الضئيل وهدوؤك السخيف ومبادئك المنكوشة في **كعك الحظ الصيني**[1]

- غاضب كحالك دائماً.

- سأعلمك شيئاً، سيدارتا: خلاف ما تعتقد، إنّ الغضب هو الحياة.

- مع ذلك، أتمنى أن تجد السلام ذات يوم.

- أنا لا أريد سلامك، عزيزي. أنا، سأظلّ كل الوقت في

---

(1) كعك يُقدَّم في المطاعم الصينية في أميركا الشمالية، توضع فيه قصاصة ورق صغيرة تعطي للذي يأكله فكرة عن حظه.

حرب لأن الحرب هي القتال. إن توقفنا عن القتال، معناه أننا انتهينا إلى الموت.

لحظة، بدا الرجلان وكأنّ كلاً منهما يقيس الآخر ويختبره، ثم تطلع إيثان إلى السماء بنظرة حزينة، فبدت له قفراء بلا قمر أو نجوم، وقد حجبتها عن عينيه الغيوم، حيث ترقد الآن جيسي في سلام، وتساءل إن كان هناك حقاً ما وراء، إذ يوجد واقع غير قياسي خلف الجدار الجليدي للموت؟

مجرد كلام، لا شيء موجود، سوى الليل والبرد والعدم.

بادره شينو ميتسوكي وكأنه يقرأ أفكاره:

- تُرى من بوسعه الاهتداء بحدسه القوي ليدّعي المعرفة اليقينية بما يجري بعد الموت؟

آخذه إيثان عمّا قال:

- وبالنسبة إليك، ماذا . ماذا سيجري؟

- حتى بالنسبة إلى عالم مولَع بالتفسيرات العقلية، من غير المعقول أن يتوقف واقع العالم على فهمنا المحدود له.

- تماماً، فأنت في العمق لا تعرف شيئاً.

- ما أعرف هو أنه في غالب البراهين واليقينيات، تبقى لنا حرية اختيار ما نريد الإيمان به. واختياري كان دائماً بين النور والعدم.

تزايد هبوب الريح، واجتاحت المكان على حين غرة زوبعة من الغبار أرغمت الرجلين على تغطية وجهيهما بالأيدي، حينها دهسَ إيثان سيجارته التي لم يشعلها بعد، وغادر السطح تاركاً الطبيب مستغرقاً في أفكاره.

في المصعد الذي نزل به باتجاه الطابق الأرضي، صادف وجهاً

لوجه كلير جيولياني، الطبيبة الشابة التي نعَت له جيسي. لم يتبادلا معاً كلمة واحدة، غير نظرة تُغني عن كلّ الأحاديث. ومع ذلك تفهَّمت حزنه وقبلت فتوره.

حين انفتح المصعد، ظلّت تتابعه بعينيها إلى أن وصل إلى باب الخروج. تردَّدت لحظة في اللحاق به ومناداته. وبدا لها أنّ هذا الرجل، حتى وإن لم يكن في كامل لياقته، فإنّ نظرته توحي بشيء ما عصيّ عن التحديد، شيء ما يدفعك للتفكير في تحويل ضعفك إلى قوة. أخيراً لم تجرؤ على اللحاق به، وهي تدرك في قرارة نفسها أنّ قصة حياتها كانت دائماً مراوحة بين التعلق بالرجال السيئين والاكتفاء بالمرور بمحاذاة الأشخاص الرائعين.

انفتح الباب الأوتوماتيكي لإيثان في الوقت الذي توقفت سيارة الإسعاف عند مدخل المشفى. كان قد مرّ من الليل جزء غير يسير وبدأ ضحايا الهالوين في التوافد على قسم المستعجلات. فتح بابها الخلفي وأخرجت نقالتان: على إحداهما أميرة قوطية يغطّي وجهها قناع الإنعاش، وعلى الأخرى، فريدي كروغر تغطي بطنه آثار دماء.

توقف إيثان يتابع رجال الإسعاف يمرون أمامه مع النقالين، في أثناء ذلك أدخل يديه في جيبه فتحسّس صدفة وجود القداحة التي تعب من البحث عنها قبل قليل، غير أنه هذه المرة وجد علبة السجائر فارغة، وإذا بصوت من خلفه:

- هكذا هي الأيام، هه؟

التفت في الحال و.

24

كان بودي فقط أن أقول لك...

ما يحطمني ليس اعتمادك عليّ،
بل هجرانك لي.

غوستاف تيبون

مانهاتن
موقف سيارات مشفى سانت جود
الساعة 22 و20 دقيقة

سمع صوتاً من خلفه:

- هكذا هي الأيام، هه؟

التفت إيثان في الحال. كان طيف كورتيس نفيل بقامته الفارعة المخيفة يتراءى تحت ضوء عمود نور، وصوت محرك سيارته لا يزال متواصلاً، وهي متوقفة في الممر الثاني بلمعانها المتراقص على إيقاع أضوائها الوامضة. فتح الباب الخلفي من الجهة اليسرى وأشار له:

- هل تأتي معي لأوصلك؟

حرَّك إيثان رأسه. وبدلاً عن كلّ جواب رفَعَ في وجهه إبهامه كإشارة شرف واستحسان.

أخذ مكانه أمام مقود المازيراتي وغادر موقف السيارات كالإعصار، لكنه لم يكد يقطع مائة متر حتى تناهت إلى سمعه قعقعة مزعجة داخل المقصورة تلاها صوت ناجم عن الفنيل المضلَّع.

تباً! ردَّد إيثان وهو يستعيد في ذاكرته ما حصل لسيارته قبلاً، عامداً في الوقت نفسه لركنها في جانب من الشارع. في مرآة القيادة انعكست أضواء التاكسي وهو يقترب على مهل. توقفت سيارة الشيكر العتيقة بمحاذاته على يساره. وفتح كورتيس زجاج النافذة داعياً إيثان بدوره لفتح نافذته.

- هيا، تعال!

- تصور أنني عشت يوماً مرعباً للغاية، فلا تزد الطين بلة.

- اصعد!

لم يرفع كورتيس صوته، غير أنّ طلبه كان صيغة أمر أكثر منها صيغة اقتراح.

- ومع ذلك، نحن نعلم معاً أنه لم يعُد لك اختيار.

تنفس إيثان الصعداء متأففاً بما يدلّ على أنّ الأشياء آخذة في التعقيد، فكّ حزام السلامة والتحق بكورتيس ليجلس بجواره. وهو يدير مفتاح المحرّك قال له:

- أنا آسف لوفاة ابنتك، وقد سبق أن نبهتك بأنك لا تستطيع إنقاذها مهما حدث.

- أنت مزعج حقاً. ردّ عليه إيثان وهو يصفق الباب.

تحركت سيارة الشيكر العتيقة بأضواء مطفأة، وهي تسير بسرعة لافتة، غير آبهة بأضواء وإشارات المرور ولا بالأضواء القوية الغامزة من الناقلات العابرة في الاتجاه المعاكس. ومن الشريط الموسيقي ينبعث بأعلى درجة صوت ماريا كلاس بتسجيل مشوش. وفي جانب من لوحة القيادة بخور تيبيتي في مجمرة حجرية صغيرة تتصاعد منها رائحة مقززة لخليط من الجلد واليانسون وعود الصندل.

- هل تدلني على وجهتك؟

أجابه كورتيس بهدوء:

- أظن أنك تعرف وجهتنا جيداً.

لا، لم يكن ليعرف، أو بالأحرى هو لا يريد أن يعرف.

- ماذا تريد مني بالضبط؟ ومَن تكون؟ هل أنت على نحوٍ ما يد القدر بقوة السلاح؟

تردّد الزنجي قبل أن يجيب:

- قد أكون هنا من أجل حمل رسائل.

- وأي نوع من الأخبار تحمل؟

- لا شيء سوى الأخبار السعيدة.

كان نظام التدفئة في أعلى درجاته بحرارة فوق الاحتمال كما لو كانا معاً في فرن. حاول إيثان فتح زجاج النافذة للتهوية لكنه وجده مغلقاً بنظام التحكم الأتوماتيكي، فانتابه فجأة إحساس برهاب الأماكن المغلقة. وفوق ذلك تبدو له هذه السيارة كعربة الموتى وسائقها كحوذي الجحيم الذي أناطته الآلهة، بحسب الأسطورة، بنقل الموتى على مركبه باتجاه الضفة الأخرى من النهر، ويتلقى أجر خدمته قطعة نقدية يدسّها أهل الفقيد في فمه عند تشييع جثمانه، والويل للذين لا يجد لديهم أجره، إذ يقضي عليهم بالتيه الأبدي، فلا هو في عالم الأحياء ولا هو في عالم الأموات.

لا توقف عن هذيانك، إذا كان قدرك الموت، فلن يكون هنا بالذات.

أغمض إيثان عينيه وحاول أخذ نفس عميق. عليه ألّا يفقد التحكم في الوضع. هذا الرجل مجرد معجب ملهم، فقدَ بدوره بوصلة الحياة إثر موت ابنه الفاجع، ومن المحتمل أن يكون قد تعلّق به بعد أن شاهده على شاشة التلفزيون. ولا بد أن يكون قد اقتنى

كتبه وشرع في ملاحقته أينما حلّ وارتحل قبل أن يصير مدعي رؤيا وصاحب حكمة حول القدر. وهو أمر عادي، حيث إن نيويورك مكتظة بالمطاردين والعاطلين من كلّ نوع.

عند إشارة التوقف الضوئية على مستوى حديقة غراميرسي، اضطر التاكسي للتوقف وراء صف من السيارات. رفع كورتيس نفيل بصره إلى الخارج فلمح جورج كلوني على الرصيف يرفع فنجان قهوته خلف لوحة زجاجية لإلصاق الإعلانات. **وماذا بعد؟** حين التفت كورتيس باتجاه إيثان وجده يصوب نحوه فوهة مسدس:

- انزل من هذه السيارة!

وضع كورتيس يديه على المقود وقال له وهو يتنهد:

- لو كنت مكانك لما فعلت هذا.

- ربما. لكنك أنت من كنت تخبئ مسدساً في صندوق لوحة القيادة، وما دام في يدي، فأنا الآن مَن يملك القرار.

مط كورتيس شفتيه اشمئزازاً وشماتة:

- لا أظن أنك ستجازف بحياتك، وأقسم لك أني سأضغط على الزناد باشتعال الضوء الأخضر لو بقيت في هذه السيارة.

انفرجت أسارير الزنجي عن ابتسامة باهتة.

- هذا النوع من المقالب لا عهد لي به إلّا في الأفلام.

- فعلاً، هذا ما سنراه.

كان الضوء الأحمر لا يزال مشتعلاً، لكن الفترة بدت أطول من اللازم. لم تظهر على كورتيس علامات الخوف رغم قطرات العرق المتجمّعة على جبهته.

زاد إيثان من تهديده:

- أنت الذي تؤمن بانتظام الأشياء وحتمية الوقائع، هذه هي

اللحظة الحاسمة كي تتساءل إن كان قدرك يقضي بموتك المحتوم هذا المساء.

أجابه بصوت حازم:

- أنا يقيناً لن أموت هذا المساء.

في الوقت نفسه ظلّ بصر كلّ منهما عالقاً بإشارات المرور الضوئية.

- أراك واثقاً من نفسك. ردّ عليه إيثان وهو يضغط بقبضته على المسدس مهدّداً.

ثم ساد الصمت بينهما لنصف ثانية قبل أن.

- طيب! قال كورتيس بأعلى صوته وهو يفتح الباب بالضبط في الوقت الذي تحولت إشارة المرور الضوئية من الأحمر إلى الأخضر.

خرج من السيارة وسط الشارع بينما تولى إيثان القيادة مكانه ضاغطاً بقدمه بقوة على دواسة الوقود.

*

الساعة 22 و35 دقيقة

تساءل إيثان وهو يقبض بمقود التاكسي صاعداً نحو بارك أفينيو:

ما العمل الآن؟

اليوم الثاني كان بالنسبة له مِحَكاً حقيقياً. لقد واتته فرصة ثانية دون أن يمتلك القدرة على انتهازها. واكتشف غبثاً خطط القدر دون أن يفلح في إحباطها. إنه عاجز عن إنقاذ جيسي، عاجز عن العثور على سيلين، عاجز عن التصالح مع جيسي وماريزا، عاجز عن التعرف على قاتله. فهو ليس إلّا دمية مبتذلة تحرّكها بالخيطان على هواها قوة علوية خفية، وهو أمر محبط غير قابل للتساهل خاصة

بالنسبة إلى شخص مثله قضى كل حياته في محاولة الإفلات من قدر محتوم سلفاً. وأيام كان طالباً في الكلية، استهوته الفلسفة والعلوم الإنسانية أكثر ممّا استهواه الطب، فأقبلَ على ارتياد المكتبات وقضاء الساعات الطوال في قراءة أعمال الكتاب الكبار. ولا يزال يذكر عبارة ألبير كامو التي يرى فيها **كرامة الإنسان الوحيدة قائمة على تمرده الصلب ضد شرط وجوده**. وهو مبدأ طالما اتخذه محركاً موجهاً في حياته، غير أنه عاجز عن تطبيقه اليوم.

ضرب المقود بقبضة عنيفة. الغضب، دائماً. كانت السيارة تتمايل غير ثابتة في مسارها وفراملها المتآكلة توشك أن تنتهي صلاحيتها. ورغبة في تهوية المقصورة، فتح الزجاج بجنبه ورمى عود البخور من النافذة ثم أزاح عبر زرّ التحكم السقف المتحرك، فاجتاح داخل السيارة تيار هوائي فجائي تطايرت به أكمام الورود المتيبسة الموضوعة أعلى لوحة القيادة وأوراق لعبة تاروت مارسيليا. أعاد إغلاق الزجاج ساخطاً. مع ذلك لم يذهب هذا اليوم سدىً، فقد كان مليئاً بالإشارات وحمل إليه إضاءات جديدة أنارت بعض الجوانب المعتمة في مراحل حياته وقد كشف بالأخص على، وجود ابنته جيسي، تلك الصبية التي عرفها وفقدها في الآن نفسه. وها هو على يأسه يحاول أن يجد بصيصاً من الأمل يتشبّث به في الحياة. هكذا فكر مرة أخرى في سيلين. بعد زوال هذا اليوم اندهش حين أعلمته ماريزا بزيارتها في محاولة منها لاقتفاء أثره والبحث في ماضيه عن مؤشرات تقودها إلى فهمه. سيلين التي من المفروض أن تكون الآن متزوجة منذ عهد طويل.

رؤيتها لن تستغرق إلّا لحظة خاطفة.

وصل إلى مستديرة كولومبس على مقربة من سنترال بارك، توجه

عبر شارع فيفث أفينيو، ثم انحرف يساراً قبل الوصول بالضبط إلى قنصلية فرنسا. بدا التاكسي متعباً تتأرجح مقدّمته إلى الخلف وهو يصعد شارع إيست درايف بوتيرة جَمَلٍ مرهق. دخل موقف سيارات ليب بوت هاوس ثم توقف، حيث المطعم الذي أقامت فيه سيلين حفل زفافها.

صفق إيثان خلفه الباب وهو ينزل تحت جنح الظلام، تملأ مسامعه أصداء موسيقى جذابة توحي بالداخل بحفل بَلَغَ أوجه.

- سيارة جميلة! بادره الشاب المسؤول عن ركن السيارات.

- إليك عني! ردّ عليه إيثان وهو يرمي إليه بالمفاتيح.

*

دلف إيثان إلى القاعة الرئيسة في الوقت الذي كانت فرقة الجاز تعزف المقدمة الموسيقية لأغنية موالية. وعلى غرار سيناترا، بادر مغنٍّ شاب بشكل مقنع يؤدي مقطوعة **طيري بي إلى القمر**.

كل الموائد داخل القاعة الفسيحة ذات الأرضية اللامعة كانت لا تزال فارغة. والألوان «الأزرق، والأبيض والأحمر» التي كانت تزين المطعم أول مرة زار فيها المكان ثم تعويضها بديكور تقليدي أصيل، ولم تتناهَ إلى سمعه أية محادثة باللغة الفرنسية.

غريب.

جال ببصره في أرجاء القاعة الفسيحة، لكنه لم يتعرّف أياً من الوجوه التي كان قد صادفها في المرة الأولى. خرج إلى السطح المغطى الذي يشرف على البحيرة، ليشاهد الزوارق المضاءة بالشموع، رغم الريح، وهي تنصب اليقطينات المهيأة على شكل فوانيس عائمة فوق الماء.

خلف البار، وقفت كيبرا ترتب القنينات، فجلس إيثان على أحد المقاعد الطويلة وطلب منها كأساً من المارتيني كي لايم.

- حالاً، سيدي.

دلت لكنة النادلة على أنها من مانشستر، ببشرتها الشقراء وقميصها المنفرج على مستوى الزر العلوي من صدرها، وعينيها السوداوين المثيرتين بنظرتها المحتشمة القادرة على امتصاص تعب وإرهاق أولئك الذين لا حظّ لهم غالباً في الابتسامة.

وبمجرد أن قدّمت إليه كأسه من الكوكتيل حتى باغتها مستفسراً وهو يعبّ جرعة من الفودكا:

- أليس من المقرَّر أن تكون الليلة مأدبة زفاف هنا؟ مراسيم حفل فرنسيين؟

- زفاف؟ لقد تمّ إلغاؤه.

وضع إيثان كأسه مستنكراً:

- كيف حصل ذلك؟

- لقد تم إخطارنا نهاية صبحية هذا اليوم، إثر شجار وقع بين العريسين في آخر لحظة، كما يقع في الأفلام.

- آه.

- هل تعرفهما؟

- أعرفها، أعني العروس. سيلين.

بتأثر ظاهر، ترك إيثان مقعده واستند بمرفقيه إلى الحافة. من الجهة الأخرى من البحيرة، كان لا يزال استعراض الهالوين متواصلاً في الحديقة المركزية، حيث مجموعة من المشاركين بهيئة هياكل عظمية وساحرات تقوم برقصة السبت حول نافورة بيتزا.

وخلافاً لتقاليد العمل، التحقت به كييرا على السطح.

- ألستَ مسافر الكونكورد؟

قطّب إيثان حاجبيه وتوقف عدة ثوان ليفهم تلميحة النادلة، ويرد:

- نعم، هو أنا، لكن كيف عرفتِ أن.

- جاءتني امرأة أول العشية، وأخبرتني أنّ رجلاً قد يأتي اليوم للبحث عنها شربت كأساً وأحسستُ برغبتها في مكاشفتي بأمرها. حكت لي قصتها، أو بالأحرى قصتك. وفي الختام نفحتني مائة دولار وطلبت مني أن أسلّمك شيئاً.

مدّت إليه ظرفاً مدعوكاً مكتوباً عليه ببساطة:

- رسالة في قنينة مُبحرة.

وما أن تسلم إيثان الظرف بيدٍ مرتعشة حتى تعرَّف خطها.

*

إيثان،

من دون شك، ليست هناك سوى نسبة حظّ واحد على مليون بأن تقرأ هذه الرسالة، لكن هذا الاحتمال لا يمنعني من كتابتها على الأمل المجنون بأن تنتهي بين يديك في غضون هذا اليوم. وَلَمَ لا بعد كلّ هذا: لقد سبق لي أن قرأت ذات مرة أنّ النازا بعثت في الفضاء رسائل موجهة للكائنات الفضائية، وهكذا. . .

هكذا إذاً: كان بودي فقط أن أقول لك. . .

أقول لك بأنّ حياتي لا تزال دائماً مليئة بك وبأني ألف مرة اليوم أبعث إليك أفكاري علّها تصلك.

أقول لك بأني من دونك يقتلني القلق، لأنك حقاً بالنسبة لي مرفأ الأمان.

أقول لك بأني احتفظتُ بكلّ شيء منا : رقصاتنا المتواترة، أنفاسنا الممزوجة، لحظات فراقنا، نورنا، وبأن كل شيء لا يزال بأعماقي يصيبني مثل عدوى لا أرجو منها شفاء.

أقول لك بأني حاولت الهروب منك لكني أجد كلّ الطرق تقودني إليك، ومنذ حلولي بنيويورك أحسّ بحضورك أكثر من أي وقت مضى. وخلافاً لكلّ منطق، أتشبَّث بقناعتي أنك لا تزال تحبني، حتى وإن كنت دائماً أجهل لماذا تخلَّيت عني، وإن كان لا يزال لديك لقصتنا من معنى.

إذا كان مقدّراً ألّا أراك أبداً، فلتعلم أني لست نادمة عن شيء، وأن لدغات الألم القاسية تبقى أهون من انتظارات حبنا واحتمالاته.

لعلّك تذكر تلك الأمسية التي جمعتنا في شقتك في غرينتش حين اجتاحت العاصفة مانهاتن وكفّنتها بالثلوج، فاضطررنا للبقاء معاً لأسبوع كامل داخل الشقة دون مغادرة. وفي أول يوم توقف فيه سقوط الثلوج، جلسنا متدثرين بالأغطية نرقب المدينة من خلال زجاج النافذة. وبحلول المساء لم تظهر إلّا نجمة واحدة في السماء. ليلتها، خالجني الإحساس بالحزن والوحدة لأني كنت في اليوم التالي على موعد مع رحلة لفرنسا. لمَّحت لتلك النجمة وأنا أهمس لك: «هل تَرى تلك النجمة الضائعة في رحابة السماء؟ تلك النجمة هي أنا». نظرت إليّ وأشرت للسماء، فإذا بنجمة ثانية. كما بفعل ساحر تتوهّج في الحين، ثم قلت لي: «وهاته هي أنا». ولثوانٍ كنا معاً تينك النجمتين الوحيدتين تلك الليلة في سماء مانهاتن. وفي أعماقي بعدها لم تساورني رغبة أخرى سوى أن يكون دائماً بجانبي أحد ما.

هكذا إذاً، إذا حصلت المعجزة وتوصّلت بدعوتي لحضور حفل زفافي، وجئت إلى هنا وقلبك لا يزال ينبض بالمشاعر نفسها لأجلي، فاعلم أنّ هناك امراة ستبقى بانتظارك حتى منتصف الليل بالمكان نفسه الذي قدّر لها فيه أن تسقط في حبك لأول مرة.

سيلين

25

القدر هو الرابح في الختام

ما يفعله الأطفال الخبثاء بالذباب هو ما تفعله الآلهة بنا نحن البشر: إنها تقتلنا رغبة في المتعة.
ويليام شكسبير

مانهاتن
السبت 31 أكتوبر

اجتاحت مانهاتن عاصفة هوجاء.

ما بين البروق وقصف الرعود بدأت الأمطار تهطل بغزارة مغرِقَة بالتدريج الشوارع ومحطات المترو، وهبّت ريح جائحة ترجّ الأشجار وتهزّ أسقف القرميد وتقذف بالأغصان والحطام في كلّ اتجاه على قارعة الطرق والممرات.

في هذه الليلة الهوجاء، بفعل تعطل المترو وغياب سيارات الأجرة اختلَّت المواصلات وتوقفت المدينة عن الحركة نهائياً. وانفجرت قناة بخار فجأة في ماديسون، وقد تسببت الأمطار في اضطراب نظام التشوير الضوئي في الأوبر إيست سايد مما تسبَّب في وقوع حادثة سير مميتة ذهب ضحيتها شخصان، وساد الظلام بعض الأحياء، وفي أحد شوارع بروكلين اقتلع هبوب الريح شجرة سقطت مباشرة على شاحنة لنقل البضائع فقضى سائقها في الحال.

*

وفي الرأس الجنوبي للمدينة، اشتدّت الريح العاصفة وهاج البحر ممّا حالَ دون انطلاق العبّارات. وتحت وابل الأمطار والضباب، كان منتزه باتري بارك مقفراً إلّا من شابة فرنسية وحيدة كان من الظاهر أنها بانتظار أحد ما.

إنها تأمل الحب تحت رجفة البرد وزخات المطر.

*

كان إيثان قد عاد للتاكسي العتيق وشقّ طريقه وسط المدينة الماطرة.

اعلم أن هناك امرأة ستبقى بانتظارك حتى منتصف الليل بالمكان نفسه الذي قدّر لها فيه أن تسقط في حبك لأول مرة.

حسناً، عليه ألّا يخطئ المكان الذي قدّر فيه لسيلين أن تسقط في حبه. إنه زافارسكي، المقهى الفييني في ويست سايد حيث اقتفت أثره لتهديه، كما في حلم يقظة، الباقة المزدانة بورود من الشوكولاتة.

انحدر بمركبته العتيقة عبر الزقاق 72، وانحرف يساراً ليصعد عبر شارع أمستردام، لكنه بتوقّفه أمام المقهى وجد الستار الحديدي مسدلاً ركن السيارة وخرج إلى الشارع يبحث عن سيلين. لم يكن للمطريات أن تصمد على الرصيف في وجه هذه العاصفة العاتية، ولا للمارة أن يتماسكوا في مهب ريحها القوي. وكان من المنتظر أنه لن يجد أحداً بانتظاره.

بنفس المكان الذي قدر لها أن تسقط في حبك لأول مرة.

لا، لعله لم يجدها بسبب تسرّعه أو اختياره للشارع الخطأ ويتجه نحو باتري بارك. إنها هناك بانتظاره لا محالة: على مقربة من

غراوند زيرو، في محيط كارثة 11 سبتمبر، حيث لا يزال قائماً شبح البرجين الفقيدين.

انحدر إيثان بسرعة فائقة على طول الشارع السابع تحت انهمار المطر المتزايد. تعطل السقف المتحرك وتواصل تسرب الماء من فتحته إلى داخل المقصورة، واستعصت الفرامل ولم تعُد تستجيب إلّا بعدّة دوسات متكررة، وكأن السيارة أعلنت العصيان في غياب مالكها الشرعي.

وما أن وصل إلى شارع فاريك حتى توقفت الماسحات الزجاجية بدورها، فترك هذه الخردة الحديدية عند تقاطع شارعَي برودواي ويست وباتري بارك، وأطلق ساقيه للريح.

نظر إلى ساعته: إنها الساعة 11 ليلاً و11 دقيقة، وحتى لو كتب له الموت في ختام هذا اليوم، فلن يحلّ قدره المحتوم قبل منتصف الليل.

وفي سباقه المحموم ضد الساعة، أحسّ بشيء انفلت من جيبه: ورقة لعب أمسك بها متطايرة على النور. إنها بلا شك ورقة من أوراق تاروت مارسيليا التي تستهوي كورتيس: ورقة «الموت».



فأل سيئ...

نذير شؤم...

لم يتوانَ في مواصلة سباقه، نظر من جديد إلى ساعته لضبط وقته، فوجد إطارها مكسّراً وعقربها جامداً لا يتحرك.

انزعج أيّما انزعاج، وهزّ رأسه يتطلع إلى ساعة الميدان الكبيرة بالقرب من الكنيسة: كانت تشير إلى 11 ليلاً و59 دقيقة.

*

لم يتنبه إيثان للرجل الذي يتقدم نحوه إلّا بعد فوات الأوان.

مَن؟

رجل بقامة معتدلة وبدانة متوسطة، يرتدي معطفاً بغطاء رأس يخفي وجهه.

مَن؟

وشعّ في الليل بريق قوي للمقبض الفضي للمسدس الذي أشهره.

اخترقت الرصاصة الأولى صدره، فخرّ على إثرها مرمياً على الرصيف. غامت الدنيا من حوله. مدّ يده المنقبضة إلى بطنه، بينما اقترب منه الشبح بخطوة ثابتة.

مَن؟

عليه أن يعرف قاتله.

حاول إيثان أن يتبيّن ملامح قاتله إلّا أن طلقة ثانية جعلت رؤياه مضببة.

طلقة أخيرة اختلطت بطعم الدم وصوت الرعد.

كان كورتيس على حق.

القدر في النهاية ينتصر دائماً.

الجزء الثالث

إدراك

26

لحظة نظر

الحياة حلم، فإذا متنا انتبهنا.

مثل فارسي

الخامسة صباحاً، نيويورك تستيقظ.

مع انبثاق الفجر، بدأت مصابيح الشقق تشتعل واحداً بعد الآخر مثل شريط هائل من الأنوار تركض أضواؤه من بروكلين إلى برونكس.

وبتعليق هذه الهدنة القصيرة، بدأت عدادات الماء والكهرباء تشتدّ سرعتها من جديد وقد هبّت آلاف الأشباح من نومها تاركة غرفها إلى المطابخ قبل أن تسرع لأخذ دوشها البارد كما العادة.

تثاؤب، فنجان قهوة، زبدية من رقائق القمح على وجه السرعة، وضغط على زر لإشعال الراديو.

مرحباً بكم على موجات مانهاتن 4. 101. الساعة تشير إلى السادسة صباحاً. هل ما زال الكسالى متقاعسين في أسرَّتهم إلى حدّ الساعة؟ لا أودّ تصديق ذلك. هيا أسرعوا؛ الشمس لن تتأخر في الشروق. وفي برنامج اليوم: استعراض الهالوين، تذوق الحلويات المعسولة وجولة في سنترال بارك مزداناً بألوان الخريف. الجو سيكون

صحواً جميلاً خلال النهار، لكن احذروا العواصف والرياح في المساء. وبعد الأخبار ستكون لنا عودة إلى الموسيقى مع المغني أوتيس ريدينغ في أغنيته «حاولي قليلاً من الحنان». أنتم الآن على موجات مانهاتن 101.4. امنحونا عشر دقائق وسنقدِّم لكم أخبار العالم.

وسط المدينة، الساعة السادسة والنصف. القاعات الرياضية مكتظة عن آخرها. بأقمصة مخطوطة وآخر موضة من الألبسة الرياضية، **الفتيات العاملات** بأناقتهن الصادمة ينضحن عرقاً بركوب الدراجات والركض على البساطات المتحركة.

السابعة صباحاً.

بدأت الحركة مع أولى مشاهد التدافع على الرصيف، ونبضات المدينة، وأنفاسها.

وبالنسبة إلى جزء من 11000 إطفائي و37000 شرطي، فإنّ المداومة الليلية توشك على نهايتها ببداية نهار جديد، نهار ستشهد المدينة خلاله ثلاث جرائم قتل، وخمس عمليات اغتصاب ومائتين وخمس وتسعين عملية سطو ومائة وثلاثة وأربعين حريقاً.

وفي أقل من أربع وعشرين ساعة يتلقى قسم الطوارئ أكثر من ألف وأربعة مائة اتصال هاتفي.

ويستقل المترو أكثر من ثلاثة ملايين مسافر.

ويبقى ستة وثلاثون شخصاً عالقين في مصعد متعطل.

ويتبادل القبلات عدد لا حدّ له من العشاق، وإن كانوا غير مشمولين بالإحصاءات الرسمية.

وتتحدث عن الرجال وهن يقسن الموضات الجديدة في مخادع الألبسة في متاجر مايسيز وبلومينغديلز وكنال جين.

وأصدقاء يتوهّمون أن بإمكانهم تغيير العالم وهم يحتسون الجعة ويشتكون فيما بينهم من فتيات عصيات عن الفهم.

وفي النهاية، هناك أربعة آلاف من الباعة المتجولين يعدّون الآلاف من الهوت دوغ، والبريتزيلس والكباب.

حياة ماذا.

الساعة تشير إلى الثامنة، في المرفأ الصغير بباتري بارك، قبالة ناطحة السحاب الزجاجية المحاذية لهودسون، هناك يخت فاخر بانتظار أن يستيقظ صاحبه.

*

مانهاتن اليوم

الساعة 7 و59 دقيقة و58 ثانية

الساعة 7 و59 دقيقة و59 ثانية

الساعة 8 تماماً

مَدّ إيثان يده يلتمس بالصدفة لثوانٍ معدودة الساعة ليوقف رنين المنبه المتواصل.

انتصب بصعوبة برأس مثقلة وأجفان مسبلة وأنفاس متقطعة. واليخت يغسله نور هادئ ناعم.

تحقق من تاريخ اليوم على ساعته: السبت 31 أكتوبر.

التفت فإذا بالفتاة الشقراء لا تزال ممدودة بجنبه ملفوفة بالأغطية.

لقد عاد، وعاد كلّ شيء لبدايته، لكنه هذه المرة لم يتفاجأ، وأحسّ بارتياح كبير تلته على الفور حرقة واخزة في صدره.

لقد حاول بمشقّة مغادرة السرير وهو يلهث من الحمى ويعاني من شقيقة فظيعة وآلام عضلية كاسحة. رمى بالكاد خطوات مترنحة باتجاه الحمام. يشعر كما لو كان قفصه الصدري ممزقاً وقلبه ينبض بشدّة مؤلمة في صدره مع رغبة ملحة في الغثيان؛ ولم يجد بداً من الانكفاف على حوض المرحاض ليلفظ خليطاً مريباً من مرارة صفراء خثرة وقيء ثخين بجمرة الدم.

بعدها وقف ومسح العرق عن وجهه. وكما سجل ذلك في أثناء عودته الأولى إلى الوراء، فهذا الاسترجاع الجديد يكلّفه ضعفاً إضافياً على مستوى حالته الصحية.

أعتقد أنه لن يكون هناك يوم رابع في حياتي، هذا ما فكّر فيه وهو يفتح خزانة الأدوية. ابتلع ثلاثة أقراص من الإبوبروفين واستسلم لدفق المياه تحت رشاش الحمام. استند إلى جانب من حجرة الحمام وبدأ يمسّد رقبته. نضح من أجفانه المتورمة سائل قيحي أصفر فشرع يفركها لإخراج تلك الخيوط اللزجة. ومن جديد أحسّ بألم في بطنه مع رغبة في الغثيان. ورغم البخار الكثيف كانت أطرافه ترتجف وأسنانه تصطك. وعند خروجه، التف في مئزر الحمام، وبيدين مرتعشتين وضع بعض نقاطٍ من سائل للعينين لفتح جفنيه.

بعودته إلى الغرفة ألقى نظرة خاطفة إلى ساعة المنبه، خاصة وأنه يريد ألّا يضيع وقته ويجد القدرة على أن يعيش هذا اليوم كما لو كان آخر يوم في حياته. وعليه الآن الذهاب إلى الحرب.

ارتدى لباساً كفيلاً بتوفير الدفء: سروالاً رمادياً من القماش السميك، وقميصاً بياقة وعقد مضلعة وسترة الدرّاج الواقية من نوع بيلستاف.

رغم الرجفة والقشعريرة في أطرافه، يحس بالرغبة في تنسّم الهواء المنعش. أخذ محفظة أوراقه، سحب منها ألفي دولار لفتاة الليل وأسرع باتجاه المعبر الأعلى.

هنا، استنشق الهواء بملء رئتيه لعدة دقائق مستمتعاً في اعتقاده بالفوائد المنعشة للشمس والريح المالحة. أحسّ بصداع الرأس يخف ودرجة الحمى تنخفض بالتدريج. وما أن شعر بالتأهب حتى قصد المرأب الصغير.

- صباح الخير سيد ويتاكر، حيّاه حارس المرفأ
- مرحباً، فيليب.
- ما الذي حصل لسيارتك؟ إنها.
- نعم، أعرف أنها في حالة يرثى لها.

بدت له رؤية المازيراتي بكدماتها مألوفة من الآن -الباب المخدوش نفسه، والمقدمة المضغوطة وإطار العجلة المتضرر- ورمت به في اضطراب عميق؛ هذا العود الأبدي، العبثي المشوش، والمرعب أيضاً

- لقد قمت بإفراغ العجلة من الهواء. أرجو ألا تريدني.

التفت باتجاه الصوت الناعم ليجد تلك الشقراء الغامضة قد تبعته من المركب. فاتنة بقدّها الممشوق، وقد التفَّت من الصدر إلى الركبتين بغطاء السرير، المزركش بفسيفساء بيزنطية من الزخارف. وشعرها بلون الشقران يتماوج كجدولة مشعة ويعطي الانطباع بأنها خارجة للتو من إحدى لوحات كليمت.

تطلّع إليها إيثان في تردد، فسألته بحسّ دعابة:

- ألا تعرفني؟
- لا

كانت تضبط نظارتيها أعلى أنفها ممّا يحُول دون تمييز عينيها.

قالت له وهي تعيد إليه الأوراق النقدية التي تركها لها:

- الليلة بألفي دولار! أعرف من يثيرها المبلغ، أما أنا فيمكن أن آخذه كفائض زائد عن الحاجة.

تسلم إيثان دولاراته، وهو في حيرة من أمر محدِّثته الغريبة وحقيقة هويتها.

وفي الأخير نزعت نظارتيها فحدّق في عينيها. إذا كانت له موهبة واحدة فستكون حتماً موهبة «النظر من وراء»، وكشف الطبع الحقيقي للذين يصادفهم في طريقه.

لها عينان بنيتان غامقتان، لكنهما تشعان فطنة وذكاء، وابتسامة تدلّ على مدى ثقتها بنفسها، وتنم في الآن نفسه عن شرخ مرتوق، وصدع طفيف يعطي لجمالها المجرد من زخرف المساحيق أصالته الحقيقية.

- تصوّرني بثلاثين كيلو زائدة في وزني، قالت له بما يشبه الاستفزاز.

بفكر مشتّت، بذل جهده ليتذكر، لكنه وجد ذهنه يدور في الفراغ. فلو سبق له أن صادف مرة هذه المرأة ما كان له أن ينساها حتماً.

بعد أن هزئت بحيرته واضطرابه، قرَّرت هذه المجهولة الغريبة أن تمكِّنه من علامة دالة:

- لقد أعدتني إلى نفسي يا دكتور، وساعدتني على استرجاع حريتي.

قطب إيثان حاجبيه في محاولة للتركيز أكثر. لقد نادته بلقب الدكتور، إذاً لا بد أن تكون من مرضاه القدامى.

- مورين!

مورين أونيل: واحدة من أولى زبوناته في عيادته القديمة بهارليم. يتذكر الآن تلك الإيرلندية السمينة التي كانت تعاني الوحدة والاضطراب، تشتغل في تزيين الأظافر بأحد صالونات نايلز التي لا تعد ولا تحصى. فتاة جذابة لكنها طافحة بالعقد، تحوّلت إلى مدمنة على الأوكسيكودون[1] ولجأت أكثر فأكثر لحياة داخلية قاتمة قاسية. هكذا ساعدها على مقاومة الانسياق وراء الإدمان ووفّر لها الدعم النفسي من أجل العثور على تكوين مهني. لكنها ذات يوم، انقطعت عن مواعيدها دون سابق إشعار وظلّت في قائمة محضر الحالات الفاشلة.

- لقد سافرت إلى آسيا ثم أميركا الجنوبية. إنك أنت الذي كنت على حق: بإمكان المرء أن يُعيد حياته، ويبحث في ذاته عن قوى لا يطالها الشك.

- أتذكر أنك كنتِ تهوين الرسم آنذاك.

- نعم، واصلتُ المسار نفسه، وبعد عودتي من البيرو، أبدى مصمم المجوهرات «تيفاني آند كو» اهتماماً بإبداعاتي، فأنجزت له تشكيلة من الحلي استلهمتها من فن الإنكا.

نظر إليها بكثير من الحنو منبهراً بالتحول الذي حققته. فمن الصعب عليه أن يصدِّق بأن تلك المحبَطة المهْمَلَة التي عرفها هي هذه المرأة المنشرحة التي تقف الآن أمامه.

- إني مدينةٌ لك بكلّ هذا. كنت صبوراً معي، لم تُصدر في حقي حكماً ومنحتني قوتك في فترة ضعفي.

---

(1) مسكّن قوي جداً مستخلص من نبتة الأفيون، خصائصه مزدوجة، فهو يعطي الشعور بالبهجة وكذلك الشعور بالهدوء، يُدمن عليه الإنسان بسرعة.

- لم أفعل شيئاً يُذكر.

- لقد قمت بالأهم: أنت أول إنسان رأى شيئاً إيجابياً في شخصي، وكلما خرجت من عيادتك حملت معي من صداقتك بضع بذرات أزرعها في قلبي. أقنعتني ألّا أبالي بالأوغاد. أقنعتني بأن في داخلي قوة لا تتطلب سوى الانعتاق من القوقعة.

- ومع ذلك، ذات يوم لم يعُد يظهر لك أثر.

تطلّعت إليه بحنان.

- أعتقد أنك تعرف جيداً لماذا لم أعد. كيف يسمى هذا في التحليل النفسي؟ التحوّل العاطفي؟

ترك السؤال عالقاً إلى أن هبّت به نفحة ريح.

- لقد علمتني يا إيثان احترام ذاتي.

ولاحظت عليه بعض التردّد قبل أن تواصل:

- لكن في الحالة التي كنت عليها البارحة، بدا لي أنك لا تحترم نفسك. وهذا ما آلمني.

تفاجأ إيثان قليلاً ووجد نفسه مجبراً على الاعتراف.

- أنا لا أذكر بالمرة ما وقع البارحة.

- ليس في الأمر ما يحير: لقد وجدتك سكران حتى الثمالة في مراحيض النادي 13.

النادي 13 من النوادي الليلية الممتازة في مقاطعة ميتباكينغ. وإيثان يتردد عليه في الغالب، لكنه لا يذكر أنه قصده تلك الليلة المشهودة، مساء الجمعة.

- لقد خرجتُ معك إلى الشارع، وحاولت أن أكرهك على أخذ تاكسي، لكنك كنت مصراً على أخذ سيارتك. وبحُكم أنني لم أستطِع ثنيك فقد تولَّيت القيادة بدلاً عنك لمصاحبتك إلى بيتك.

- هل حصلت لنا حادثة؟

- في السيارة، كنت سيئ المزاج، نزعت حزام السلامة وأنت تصرخ مهدّداً بفتح الباب والارتماء على الرصيف. وفي محاولة مني لتهدئتك فقدت التحكّم في القيادة فانحرفت السيارة على الرصيف واصطدمت بلوحة التشوير المروري. من حسن الحظ، كنت أقود ببطء ولم يُصَب أحد بأذى.

هزّ إيثان رأسه. أخيراً بدأت تتضح له الأمور، وإن كان لا يزال في حاجة إلى كثير من المعطيات.

- نزعتُ عنك ملابسك ووضعتك على السرير، ولخوفي أن أتركك وحيداً على تلك الحال ارتأيت قضاء الليلة معك.

- **قضاء الليلة...**

بدافع الشك، سألها:

- نحن لم...؟

- الحالة التي كنت عليها لم تكن تسمح لك حتى بالحركة! أجابته مورين متهكمة.

ندت عنه ابتسامة لم يستطع مداراتها، وتبادلا في لحظة معاً نظرة تنمّ عن تواطؤ مكشوف.

- هل ترغب في أن أساعدك في شيء ما؟ اقترحت عليه المرأة الشابة.

كان من الظاهر مدى قلقها عليه.

ولعلّها لم تحكِ له كل شيء.

- سأكون بخير، طمأنها، لقد فعلتِ الكثير لأجلي وأنا أشكرك.

لكن مورين لم يُقنعها جوابه.

لكنني أشعر بأنك لست على ما يرام.

لمع في عيني إيثان بريق حاد، وأفرد ذراعيه مع ابتسامة مطمئنة.

- هل أوصلك؟

- سأستقل سيارة أجرة.

- سيارات الأجرة مضربة كلها اليوم!

- لا بد أن أجد إحداها! ودّعته وهي تعود لارتداء ملابسها.

تظاهر إيثان بأنه لم يسمعها وهتف بها وهي تبتعد باتجاه اليخت:

- سأنتظرك هنا.

*

بقي لوحده وقد أحسّ بتحسّن، ولاحظ أنه استرجع بعض قواه، إذ تبدّد صداع رأسه بأعجوبة وخفّت الحمى في جسده بعدة درجات.

أحياناً يكون دفء الحضور الأنثوي خير علاج في العالم.

وأتاح لنفسه وقتاً للتفكير. إذا أراد ألّا يكون هذا اليوم آخر أيام حياته، عليه أن يتفادى الخطأ. هذه المرة سيحبط تباعاً كلّ الكمائن التي نصبها القدر بحبكة في طريقه.

ولكي يبدأ بداية جيدة، لن يستعمل سيارته التي من الظاهر أنها مبرمجة للعطب كلّ يوم في الظروف الأسوأ. سيستقل دراجته، كما كان عليه أن يفعل لولا أنه كان مهدداً بهجوم عصابة جياردينو. دسّ يده في جيب سترته بحثاً عن آلة التحكّم لفتح باب أحد المرائب الصغيرة المتراصة بقلب موقف السيارات. في الداخل توجد نسخة مطابقة للدراجات القديمة بي-إم-دبليو R51/3، المعروفة في الخمسينيات، بمقعدها المنخفض ومصباحها الأمامي الدائري الذي يلمع وسط إطاره الواقي الأسود المطلي بالزرنخ الفضي.

امتطى إيثان دراجته، شغل المحرك وهمَّ بمغادرة المكان في الوقت الذي ظهر تاكسي كورتيس يدخل موقف السيارات، وقد صادف في اللحظة نفسها أن صفقت مورين خلفها باب المركب، وشرعت تصيح بالسائق مهرولة باتجاه سيارة الأجرة:

- أنا قادمة!

خرج الزنجي الفارع من سيارته واستند إلى مقدمتها بانتظار زبونته، فخاطب في الوقت نفسه إيثان:

- دراجة جميلة.

فضّل إيثان تجاهله، وضع واقية الرأس وضبط نظارتيه على عينيه.

وقبل أن تصعد مورين إلى السيارة، دنت منه وطبعت قبلة على وجنته:

- شكراً لأنك وجدت لي سيارة أجرة.

- سيارة الأجرة جاءت بالصدفة لأجلي.

- لا تتردّد في الاتصال بي إذا احتجت إليّ. قالت له وهي تتناول قلماً من حقيبة يدها.

وبحركة نزقة كمراهقة، دوَّنت رقم هاتفها على كفّه قبل أن تندسّ في المقعد الخلفي للسيارة.

تطلع كورتيس إليه بنظرة حزينة وخاطَبَه بما يشبه البَوح وهو يصعد سيارته:

- ماذا تعرف؟ أنا أحبك كثيراً يا ويتاكر، لكن عليك أن تعلم شيئاً: إن المعركة التي تخوضها لم يسبق لأحد أن ربحها.

27

الرجل الذي ما كان عليه أن يكون هنا

لكم الآن أن تعيشوا الأسئلة، لعلكم تلقائيّاً ذات
يوم تدخلون بالتدريج في صلب الأجوبة.

راينر ماريا ريلكه

مانهاتن، اليوم
السبت 31 أكتوبر 2007
الساعة 8 و25 دقيقة

بوجهٍ تلفحه الريح، يمرق إيثان بسرعة خاطفة عابراً «ترايبيكا».
برأسه تتزاحم الأسئلة وتضغط عليه بقوة. هل سينتهي لاستيعاب ما يحصل له؟ لماذا تتأتى له فرصة جديدة للحياة إذا كانت كلّ الوقائع تستعاد على نحوها الثابت دون أمل في تغيير مسارها نحو النجاة؟

لا يجب أن يستسلم للإحباط، عليه أن يسخِّر كلّ طاقته من أجل تغيير مجرى الأمور، حتى ولو كانت معركته خاسرة أصلاً

على الوتيرة نفسها من السرعة، تسلّل بدراجته النارية بين الناقلات. ألقى نظرة فطنة على مرآة القيادة ثم انحرف ليتجاوز صفاً من السيارات.

- ترى مَن كان قاتله؟

وكما يتوقع منذ استيقاظه، لو أنه لن يكون في حياته يوم رابع، فعليه اليوم أن يعرف الرجل الذي سيفاجئه في منتصف الليل تماماً ويطلق عليه ثلاث رصاصات قاتلة.

الآن أو ليس أبداً.

ثلاث رصاصات يتمّ إطلاقها عن قرب، فتتبع المسار نفسه بالترتيب نفسه: الأولى في الصدر، والمتبقيتان في الرأس.

تبدو له هذه الجريمة عصية عن الفهم إلى حدّ أصبح معه على قناعته بعدم توفّره على ما يكفي من العناصر لتفسيرها. ربما قد يكون في هذه المدينة شخص ما أساء إليه أو حطّ من قدره أو خانه عن غير قصد منه، فقرّر تصفيته تعطشاً للانتقام.

لكن من يكون؟

أي رجل -أو أية امرأة- ذاك الوجه المختبئ وراء القلنسوة؟

وهل كانت لهذا علاقة بما فعله البارحة. مساء الجمعة الذي لم يستبق منه غير ذكريات ملتبسة؟ ومن جديد حاول إعادة تشكيل مجرى أحداث تلك الليلة اعتماداً في الآن نفسه على ذاكرته والمعطيات التي مدّته بها مورين قبل بضع دقائق.

لقد تأخر في عمله بالمكتب، وغادر مقرّ عيادته ليبدأ سهرته بداية موفّقة، إذ ارتأى لتحسين مزاجه العكر أن يذهب لاحتساء كأس في حانة سوسياليستا، تلك الحانة الكوبية بويست ستريت المشرفة على هودسن. إلى حدّ الآن وجد الصور التي استبقاها واضحة، إنه يتذكر الأرضية المبلطة بمربعات من الزليج الأبيض والأسود، والجدران المطلية بالأخضر الفاقع، والشموع الموضوعة على

الموائد والمروحة المتدلية من السقف. كان قد جاء بمفرده وجلس إلى البار ليطلب مشروب «موخيتو» على إيقاع التيمبا ورقصة المامبو. وبعدها اختلطت عليه الصور، ولا يذكر مغادرته للمكان، لكنه استبقى صوراً أخرى في ذاكرته: الأجواء المائعة في هوكز آند هيفرز، حانة أخرى يرتادها هواة الدراجات النارية والفتيات شبه العاريات بسراويلهن القصيرة، والنادلات بسراويلهن الجلدية، وحائطه المزدان بالتحف من عشرات الصدريات التي تركتها الزبونات على مرّ السنين. هنا، كان له أن يطفئ حزنه في شراب الويسكي والجعة قبل أن ينهي رحلته البئيسة في النادي 13 حيث انتهت مورين لانتشاله. من هذه الحلقة لا يحتفظ للأسف بأية ذكرى رغم بذله قصارى جهده في التركيز.

إلى ماذا يمكن أن يرجع هذا الفقدان الجزئي للذاكرة؟ النسيان الانتقائي؟ الكبت؟ تأثير الكحول والمخدرات؟

وأية حلقة من حياته بالأخص يسعى لإخفائها على هذا النحو؟

*

ركن دراجته في شارع جين وقطع راجلاً المسافة إلى النادي 13، في مقاطعة ميتباكينغ المحصورة بين تشيلسي وويست فيلادج، والممتدة على بضع مجموعات سكنية بشوارع مبلطة فسيحة، في مجال آخذٍ في التوسع. ومنذ عدة سنوات، تحول حي «الجزارين» القديم إلى مكان جديد للموضة. المحترفات الفنية، والمحلات التجارية المتلاصقة ومعامل الجعة الفاخرة كلها حلت محل المجازر لخلق جو **شبقي بالمدينة**. ومع ذلك، تنبعث هذا الصباح رائحة اللحم الفظيعة التي تعم الأزقة لتخلق بذلك تناقضاً غريباً مع السحر المفترض لهذه الأمكنة.

وهو راجل في الطريق، أخرج هاتفه المحمول وترك رسالة صوتية على هاتف لوريتا كراون، المنتجة الأميركية المشهورة ذات الأصول الأفريقية التي تمتلك حصصاً من عائدات النادي الليلي، والتي بفضل حمايتها يجنبه الحراس عمليات التفتيش المستفزة ويخصونه باستقبال لائق. وهو بدوره لا يحب على الأخص هذا المكان لكنه يقصده في الغالب: إنه المكان الذي يجب عليه أن يشاهد فيه، حيث يوجد المشاهير، وخلال **أسبوع الموضة**[1] يتحول إلى محج لأجمل نساء الأرض ليجتمعن على بضع عشرات من الأمتار المربعة.

وصل إلى باب عمارة جميلة، ودق الجرس ليصله صوت عبر هاتف الباب يطلب منه الانتظار، وسرعان ما انفتح الباب، وظهر حارس عملاق بوجه دمية ذي ملامح هايتية:

- السيد ويتاكر؟

- سلام، روملد، أريد مقابلة غونتر، هل ما زال هنا؟

- تعال، سأرافقك.

تَبِعَ المستخدم للمصعد الخاص بأعلى الطوابق وانفتح بابه على معبر يفضي إلى القاعة الكبرى من النادي الليلي. في هذه الساعة من الصباح، كان حشد من عاملات النظافة يجهدن أنفسهن في إعادة ترتيب القاعة وطمس آثار البارحة.

وبعد لحظات، سمح له بدخول مكتب غونتر كار، مدير المؤسسة.

إيثان! إنك إمّا رجل صباحيّ وإما أنك لم تذهب إلى النوم بعد.

---

(1) أسبوع تعرض فيه دور الأزياء آخر تصاميمها.

كان جالساً أمام حاسوبه المحمول، فقام لاستقباله، ببذلته الداكنة، وتسريحة شعره القصير اللامع ونظارتيه من نوع دولتشي آند غابانا، وهو حريص على اللياقة في كل حركة من حركاته.

- اتبعني، في الخارج سنكون أكثر هدوءاً.

قاد إيثان نحو سلم حلزوني يفضي إلى سطح معدّ كحانة مفتوحة في الهواء الطلق، مزينة بالنخيل، ويتيح مجال رؤية على مدّ 360 درجة تصل إلى هودسن، وبه حوض سباحة دافئ مجهز بنظام لبثّ الموسيقى، من تحت الماء. ويطلق على المكان اسم «في-آي-بي باثروم»، ويكون عادة شبه مغلق كلما بلغ الحفل أوجه واكتظّ بالزبناء، غير أنه يكون فارغاً في مثل هذه الساعة من الصباح ممّا يجعل من الصعب التصديق بأن يمتلئ بعد ساعات بالعشرات من زبائنه الذين يتدافعون للظفر بكوكتيل مقابل 50 دولاراً.

- فيمَ يمكنني مساعدتك؟

- لا بد من فنجان قهوة كي نبدأ.

بفرقعة من أصبعه أشار غونتر لروملد بتلبية الطلب.

- ماذا أيضاً؟

- أنت تذكر بأني كنت هنا ليلة أمس؟

- ماذا تقصد؟

- هل تذكر أنك رأيتني؟

- نعم إيثان، لقد كنت هنا

- لوحدي؟

- لا أعرف، كان هناك الكثيرون بمناسبة عيد ميلاد.

- حاول أن تتذكر.

- لقد تصادفنا، لكننا لم نتبادل الحديث، ولا أدري فوق ذلك إن كنت قد لمحتني، إذ من الظاهر أنك كنت في حالة سكر طافح.

وضع روملد فنجاناً صغيراً من القهوة أمامه.

شكره إيثان بإيماءة من رأسه، ثم دسّ يده في جيبه يبحث عن هاتفه المحمول كي يقرأ الردّ على الرسالة التي بعث بها قبل قليل.

- أنا في حاجة إلى الاطّلاع على تسجيلات كاميرات المراقبة.

- عمّا تبحث بالضبط؟

- أريد أن أرى ماذا فعلت البارحة ومع مَن تحدثت.

- لا يمكنني إطلاعك عليها إيثان، فهذا أمر سري للغاية.

احتسى إيثان قهوته دفعة واحدة قبل أن يقول له بلهجة ضاغطة:

- لوريتا ستتصل بك بعد ثوان، وعليك أن تفسّر لها الأمر.

قطب غونتر حاجبيه وأخرج بدوره هاتفه المحمول: آيفون مرصع بالماس ووضعه أمامه على الطاولة.

لاحظ إيثان، وهو يبحث في سترته، أن علبة سجائره لم تكن فارغة كما تهيّأ له قبلاً، وكان على أهبة أن يشعل سيجارة حين تذكّر وعده.

غداً سأتوقف عن التدخين، إذا بقيت حياً سأقلع عن التدخين، أقسم على ذلك.

ما عدا إذا لم يكتب له أن يعيش غداً.

مع ذلك قرّر أن «يفعل كما لو أنه دخنها»، ويقاوم الرغبة في إشعالها، مكتفياً بتركيز بصره على غونتر بنظرة محايدة في انتظار مكالمة لوريتا. التي لم تتأخر إذ بعد دقيقتين اهتز الهاتف الماسي برنته المتناغمة.

- صباح الخير سيدتي.

تحولت المكالمة إلى مونولوغ من جانب ملكة البرامج الحوارية ولم تستغرق سوى ثوانٍ معدودة.

- حسناً سيدتي. طمأنها المدير قبل أن يضع الهاتف.

*

قبل ساعة

على بعد بضعة كيلومترات من هنا، امرأة شابة تفتح عينيها في جناح بفندق كبير. سيلين تستيقظ من غير إزعاج حتى لا توقظ الرجل النائم بجنبها وتزيح الستائر بهدوء لترى المدينة الممتدة عند قدميها. مانهاتن لا يزال يغسلها ضوء معدني أزرق لن يتأخر في أن ينقشع بفعل الغبار الذهبي المتصاعد. زعيق المرور، الأضواء، الحركة: كل شيء في هذه المدينة يذكِّرها بإيثان.

عَنّ لها على الزجاج طيف بشكل خاطف محدثاً على صفحته المائية تموجات كرجفة على وجه الماء. التفتت في الحال، لكن لا حركة في الغرفة، وأحسَّت في الوقت نفسه برغبة عابرة قوية في الغثيان، وبدا كلّ شيء حولها يدور وانتابها انطباع مشوّش بأنها رأت ذلك من قبل. ولتبديد هذا الانزعاج دلفت إلى الحمام وظلت لفترة طويلة تحت رشاش الماء إلى أن استعادت هدوءها، وحين خرجت كان قد خفّ توترها.

دون أن يتبدد فعلاً.

*

- الأمر بسيط، يفسر له غونتر وهو يفتح حاسوبه المحمول. كلّ ما سجلناه البارحة حولناه للقرص الصلب. سأتركك تتسلى بذلك، وإذا صادفت صعوبة لا تتردّد في مناداتي.

نظر إيثان إلى الشاشة: مقسمة إلى أربعة أجزاء، وكل جزء يمثل

جانباً من القاعة مسجلاً من زوايا مختلفة. وبالنظام اللمسي على الشاشة، كان بإمكانه الانتقال من تسجيلات كاميرا إلى الأخرى وتكبير المشاهد. بدأ في تمرير الصور بسرعة إلى أن عاين لأول مرة حضوره تحت كاميرا المراقبة. وبحسب المعلومات الواردة أسفل الشاشة فدخوله إلى النادي بمفرده في الساعة 23 و46 دقيقة. وقد سمح له حارس الأمن بالدخول دون مشكلة ما دام الأمر يتعلق بسهرة خاصة، حيث كانت ممثلة شابة من بطلات السلسلة التلفازية «باريس-هيلتون» -التي لم تعد موضوع الحديث الإعلامي منذ عامين- تنظم عيد ميلادها في سهرة صاخبة.

واصل إيثان متابعة الصور، وبفضل الفيديوهات المسجلة استطاع تدريجياً استعادة مسار الليلة. مرات تمكن من تمييز طيفه من أمكنة مختلفة من القاعة. في البدء على البار يحتسي الكؤوس تباعاً بمفرده بعيداً عن أجواء الاحتفال، ثم بعد ذلك بمفرده أيضاً على طاولة معزولة. وتتابعت الصور بسرعة إلى أن أوقفها فجأة للتركيز على مشهد بعينه: رجل يقاسمه الطاولة نفسها، بقامة متوسطة، بلباس جينز وغطاء على الرأس.

لعله قاتله!

شعر إيثان بنبض قلبه يتسارع، وتعرّقت جبهته، وأحسّ بخاصرته تنضح بعرق بارد. بيدين مرتعشتين تابع المشاهد المصوَّرة أمامه. بدا محاوره، وظهره إلى الكاميرا، يلتفت مراراً، دون أن يتيح ذلك تبين قسمات وجهه. استمر الحديث بينهما قرابة عشر دقائق. في الظاهر، كان هناك تبادل لم تسجل منه الكاميرا إلّا أجزاء متقطعة. وبعد هذه المحادثة التي لم يكن بالإمكان تعرف فحواها، اختفى الرجل بالمرة من الصورة، في حين أن صوراً أخرى بيَّنت أن بقاء إيثان في النادي

الليلي استمر بعد ذلك قرابة نصف الساعة. ثم كان المقطع الأخير من المشاهد يصوره بين ذراعي مورين وهو يغادر رفقتها النادي 13 وهو في حالة سكر طافح.

هذا كل شيء.

موزعاً بين الخوف والتوتر، استعاد إيثان الفيلم، وتسمّرت عيناه على الشاشة من أجل كشف هوية المجرم، بتوقيف الصورة وتكبير حجمها هل كان رجلاً أم امرأة؟ إنه رجل من دون شك، لكن إيثان ليس على يقين ثابت. هل سبق له أن صادفه؟ من المستحيل تأكيد ذلك ما دام أن تكبير الصور يفقدها وضوحها وتبدو صورة مضببة لوجه نصف مقنّع بغطاء الرأس. وعرض الصورة على غونتر ليسأله:

- هذا الشخص، هل تعرفه؟

- لا أبداً، لم يسبق لي أن رأيته. وأنت يا روملد، هل تعرفه؟

هزّ الهاييتي برأسه.

- كان هنا ليلة أمس، والسيد ويتاكر هو من ألحّ على السماح له بالدخول.

بذهن مشتت، فرك إيثان أجفانه في محاولة للتركيز، وهو يرى أنّ الوضع ينفلت مرة أخرى من بين يديه، وكلما غمر بصيص من الضوء جانباً من العتمة بدا جانب آخر أكثر حلكة.

غادر النادي وامتطى دراجته النارية مهووساً بما اطّلع عليه.

والآن، ما أنت فاعل؟

على أي جبهة ستقاتل؟ وبأية خطة حربية؟ بحركة مسّد صدغيه يستشعر بعض الصداع في رأسه مصحوباً ببوادر الحمى من جديد. ثم

دسّ يده في جيبه يبحث عن أي شيء قد يخفف من حالته: دواء أو علكة بالنيكوتين. لكنه لم يجد أياً منهما سنداً.

وهو على أهبة الانطلاق، تذكر أنه نسي واقية الرأس ونظارتيه في سطح النادي 13، ثم لم يلبث أن صرف النظر عنهما ولم يكلّف نفسه عناء الرجوع للبحث عنهما.

ما الداعي لوسائل الوقاية إذا كان قدرنا محتوماً قبلاً؟

ما الداعي للهروب من الأسوأ إذا كان الأسوأ لا مهرب منه؟

انتشله رنين الهاتف من أفكاره الجنائزية. كانت المنتجة بقناة «إن بي سي» القلقة بسبب تأخره. وفي لحظة عنّ له أن يشارك في البرنامج هذه المرة وفق قواعده، ويتوجه بالحديث على الهواء مباشرة إلى سيلين وجيسي، لكنه تردّد فيما سيقوله لهما، فصرف النظر ولم يبادر بالرد على المكالمة.

أدار مفتاح المحرك وأرخى سمعه لأزيز الدراجة قبل أن ينطلق كالإعصار في اتجاه الجنوب.

بإحساس طافح بالهشاشة وسرعة العطب، يقود بأعلى سرعة، يستفز قدره ويستخف بحتفه. لا يزال اليوم في بدايته، ولا يزال أمامه ما يكفي من الوقت للمناورة. وإذا لم يكن بإمكانه أن ينتهي للحقيقة فإن الحقيقة ستنتهي حتماً إليه، وهو الآن على كامل الاستعداد لمواجهتها.

لكن هل يمكنه في يوم واحد أن يتدارك كل أخطاء حياته؟

28

من أجلها

يمكن لكل منا أن يسير بمفرده أسرع،
لكننا معاً يمكن لنا أن نذهب أبعد.

مثل أفريقي

مانهاتن، اليوم

السبت 31 أكتوبر

اسمي جيمي كافاليتي، أبلغ 38 سنة من عمري، وأنا الآن على متن القطار المتوجّه إلى مانهاتن.

مساء أمس، لم تعُد ابنتي إلى البيت. انتظرتها حتى الثانية صباحاً قبل أن أركب سيارتي لأقضي ما تبقى من الليل في البحث عنها بين الأزقة والدروب. لم أعثر لها على أثر. كان من الظاهر أنها غادرت البيت، وذلك بسببي. لقد أخطأتُ في حقها بأن جرحتها وكذبتُ عليها.

أضغط برأسي على زجاج النافذة الذي يعكس بزوغ شمس الصباح. أحسّ بالبرد. انفرطت من عيني دمعة حارقة وانسابت على خدي قبل أن تسقط على يدي الخشنة. ولإخفاء بكائي أغمضت عيني وتركت فيض الذكريات يتلاحق برأسي.

*

أبريل 1993

أنحني على المهد لأرى هذا الكائن الصغير الذي لم تمرّ على مولده سوى بضع ساعات، منبهراً بضآلته. طالما رأيت الكثير من المواليد، لكن الأمر مختلف هذه المرة بإزاء هذا الكائن الذي سأتكفّل برعايته.

هل سأكون قادراً على ذلك؟

مايو 1993

جلبت ماريزا عدة كتب من الخزانة: **دليل الآباء المبتدئين، كيف تربين طفلك؟ ما العمل حين يبكي الرضيع؟** بين الرضاعة وعلب الحفاضات والزيارات المتكرّرة لطبيب الأطفال، كانت تتبرم وتقول إنها منزعجة من هذه الرضيعة. وأنا بخلافها كنت أرى الأمر طبيعياً، فطرياً ومتناغماً.

وأخفي عنها فرحتي.

ميلاد 1994

الثلوج تغطي بوسطن، وفي البيت برد قطبي قارس. تعطّلت المدفأة الكهربائية منذ أيام، وليس لنا ما يكفي من المال لاستبدالها. مع ماريزا والرضيعة نلتفّ في الأغطية، وأنا أشعر بالخجل وأرتجف من الغيظ.

يونيو 1995

أحرقتُ كلّ صور إيثان، ورميتُ أوراقه، ووهبت لإحدى الجمعيات ملابسه، وتبرّعت للخزانة بكتبه. أريد محو كلّ أثر لوجوده وإلغاءه من حياتنا.

كل ليلة يهاجمني الكابوس نفسه: إيثان يعود إلى بوسطن ويختطف مني ابنتي.

نوفمبر 1996

في ورشة البناء تشاجرت مع رئيس العمال. لم أعُد أتحمل استفزازاته طيلة النهار رغم قيامي بعمل شاقّ مقابل أجر زهيد. لم تكن تلك أول مشاجرة بيننا، لكننا اليوم طفح الكيل بنا. زادت حدّة مشاداتنا فرماني بواقية رأسه التي أصابتني على مستوى الوجه وتسببت لي في رعاف، فما كان لي إلّا أن وجَّهت إليه لكمة أسقطته أرضاً. تدخّل الرجال لفضّ النزاع بيننا وبعدها تمّ طردي من العمل على الفور.

ولكي أحكي لماريزا ما حصل كان عليّ أن أجد عملاً آخر: عامل في مخزن مُصَبّرات.

مارس 1997

في الآن صرت أشتغل لحسابي. اشتريتُ شاحنة صغيرة قديمة وبعض الأدوات. كان عليّ في البداية أن أقبل القيام بأي شيء: تشذيب الأعشاب، إصلاح الأسيج، أشغال الصباغة. أعمل أربع عشرة ساعة متواصلة في اليوم. أمر شاقّ، لكنني أريد أن تكون جيسي فخورة بي مستقبلاً

فبراير 1998

قمت بتشغيل مستخدم معي، ثم قبل الصيف شغّلت الثاني. تركنا نهايات الشهر العصيبة خلفنا، وكلما فاتحت ماريزا في إمكانية إنجاب طفل ثانٍ، كانت تكتفي بهزّ كتفيها.

أبريل 1999

جيسي اليوم في عامها السادس. لقد تعلّمت القراءة بسهولة لافتة، وتطرح أسئلة عن كلّ شيء على نحو خارق. أحياناً كثيرة، أتساءل كيف تأتّت لي فتاة في غاية الذكاء.

كم أتذكر
وهذا يؤلمني
فتبتسم لي
وتناديني بابا
وأنسى كل شيء.

يناير 2000

من أجلها، توقفتُ عن التدخين واحتساء علبة من الجعة كلّ يوم.

من أجلها صرت إنساناً أفضل ممّا كنته.

من أجلها سأكون قادراً على كلّ شيء.

ربيع 2001

السبت ما بعد الزوال، بينما ذهبت ماريزا للتسوّق، خرجتُ مع جيسي لاكتشاف بوسطن: متحف الفنون الجميلة، حوض المائيات الكبير، «المركب البجعة» لبحيرة فروغ بوند، مكتبة كينيدي، طريق الحرية[1]، الفضاءات الخضراء لكامبريدج.

أحياناً كثيرة نذهب معاً إلى ملعب فينواي بارك لنتفرج على الريد

---

(1) مسار سياحي يمتد على طول ستة كيلومترات، يُتيح للسائح اكتشاف أهم المعالم السياحية لمدينة بوسطن.

سوكس وإن كانت ماريزا ترى في ذلك مضيعة للمال.

وفي العطلة، أصحبها معي في جولة بالغابة على طريق جبال الأبلاش لأريها ما علّمني أبي بنفسه: الصيد بالذبابة، أسماء الأشجار، التقنيات المعتمدة في تبين طريق العودة في حالة التيه وسط الغابة، بناء كوخ أو طواحين الماء، أو طريقة استخدام خنجر.

ديسمبر 2002

استدعاني مدير المدرسة للحضور مع ماريزا ليحدّثنا في شأن جيسي. لقد نجحت بتفوق في سلسلة من الروائز التي يخضع لها كلّ عام تلاميذ رود آيلند وماساتشوسيتس. هذه النتائج الاستثنائية تؤهلها للالتحاق، من الشهر القادم، بمؤسسة الرعاية التابعة لجامعة براون. لثوانٍ اعتقدت أن الأمر مجرّد مزحة، ثم أدركت أنه ليس كذلك وأن المدير يظنّ حقاً أني سأقبل بإرسال ابنتي للإقامة الداخلية، على بُعد مسافة ساعة ونصف من البيت، فقال لي مطمئناً:

- كل مصاريف الدراسة سيتم التعهد بها بتمكينها من منحة.

- لكن جيسي لم تتجاوز بعد العاشرة من عمرها!

- طبعاً، من حقكما الرفض، لكنها فرصة قد لا تتكرّر مرة أخرى، وإذا توفقت في مسارها الدراسي، فسيكون بإمكانها الالتحاق بعد بضع سنوات بإحدى جامعات الآيفي ليغ[1]

- لا يمكننا السماح لها بأن تتركنا في هذه السن، ولا نرى مصلحة في ذلك في هذه الفترة. إنها لا تزال طفلة، هل تفهم! طفلة!

---

(1) مجموعة من ثماني جامعات في الشمال الشرقي للولايات المتحدة، تُعتبر من أعرق وأهم الجامعات في أميركا.

تردّد المدير لحظة، وبعد صمت طويل قال لي:

- إذا سمحت لي بأن أكون صريحاً معك، السيد كافاليتي، أعتقد أن هذه الفرصة بالنسبة إلى أناس في مثل ظروفك تُعتبر هدية من السماء، وعدم انتهازها سيكلِّف ابنتك كثيراً في كل حياتها.

- طبعاً سنقبل. قاطعته ماريزا.

نهضتُ وخرجتُ من المكتب صافقاً خلفي الباب.

2 يناير 2003

- لا تنسي شالك حتى لا تُصابي بنزلة برد.

انحنيتُ على جيسي ولففتُ الشال حول عنقها.

- حسناً، سأتركك الآن، لكني سأعود مع ماما لزيارتك الأسبوع المقبل. أوكي؟

وقبل أن أغادر، استطلعت لآخر مرة المرفق المهيأ على شاكلة إعدادية إنجليزية بعماراتها الشاهقة من الآجر الأحمر محاطة بمساحات خضراء في غاية التشذيب. وأعلى جامعة هول يطفو شعار براون خافقاً بفخر، عبارة عن أربعة كتب مفتوحة تعلوها شمس مشرقة، وتتوسطها عبارة: **في الله كل رجائنا**.

- لا أريد أن أبقى هنا، بابا.

- اسمعي، ألف مرة تحدثنا في الموضوع. هذه المنحة هي فرصة رائعة بالنسبة لك، فرصة تحلم بها كلّ العائلات لأبنائها، وبالتالي لن يكون بمقدورنا توفير مصاريف دراستك مستقبلاً

- أعلم ذلك.

بلغت شمس الشتاء أوجها، ومع ذلك لا يزال البرد القارس يجمد حركة إنجلترا الجديدة منذ أيام. أنظر إلى جيسي ونفاث البخار

يخرج من فمها وهي ملتفّة في سترتها الفرائية فأراها صغيرة جداً، ضئيلة، هشة.

- أنا على يقين أنّ كل شيء سيمرّ على ما يرام وأنك ستجدين الكثير من الصديقات.

- أنت تعرف أن ذلك ليس حقيقة.

ابتسمتُ لها ابتسامة الأب الهادئ المطمئن، وقد حان وقت التحاقها وفي داخلي أحسّ أنّ كلّ مرابط الحزن والشجن قد انفكّت وأطلقت عنانها.

- حسناً، أنا ذاهبة. ثم حملت على ظهرها حقيبة تقارب وزنها.

- إلى اللقاء قريباً، قلت لها وأنا أنفش شعرها الأشقر.

وقبل أن تدير لي ظهرها طالعني وميض عينيها وخمّنت حينها أن مرابط حزنها هي الأخرى قد أطلقت عنانها.

*

غادرتُ المؤسسة راجلاً باتجاه شاحنتي الصغيرة التي حرصتُ على ركنها بعيداً حتى لا أتسبب في إحراج جيسي أمام زميلاتها. أحسستُ أن البرد يجمد أطرافي، وللشعور بالدفء انطلقتُ أعدو وأنا أتنفس الهواء الجليدي الذي يحوّل قلبي إلى قطعة متجمدة.

7 يناير 2003

تلك الليلة لم يغمض لي جفن. نهضتُ من فراشي. ضوء شاحب في الحمام. أخذتُ حبّتي فاليوم من خزانة الأدوية وفنجان قهوة في جرعة واحدة واقفاً بالمطبخ، وبعدها أشعلتُ سيجارتي الأولى. في الشارع على الأرضية المسفلتة: تحوّل الثلج إلى مطر

وعلى الأرصفة يتعثّر المارة في الوحل. من جديد، لسعات الصباحات الباكرة، من جديد علب الجعة المفتوحة من العاشرة، من جديد هذه الحياة بالأبيض والأسود وقد فقدتُ بريقها.

شاحنتي الصغيرة مغمورة بالرطوبة. فتحت الصندوق الخلفي لشحن أدوات العمل، فإذا بجيسي هنا، نائمة تحت غطاء قديم مبرقع بلطخات من الصباغة.

فجأة ارتعبت.

- جيسي! هل أنت بخير، حبيبتي؟

تململت بصعوبة، وهمهمت وهي نصف نائمة:

- لقد هربت يا بابا. لا أريد أن أعود ثانية.

حضنتها بقوة أستدفئها وأقبّلها، ووجهها أبيض بارد مثل صفحة من رخام.

- انتهى الأمر، حبيبتي، ستبقين معنا، ستبقين معنا.

ربيع 2004

في ورشتي الصغيرة للنجارة، جمعت رفاً من خشب الصنوبر لغرفة جيسي، بينما التلفاز القديم المغمور بالنشارة يبثّ بصوتٍ عالٍ حلقة من برنامج فترة الظهيرة. وكنت بصدد تمرير المسحة الأولى من طلاء البرنق حين تناهى إلى سمعي صوت سرعان ما تعرّفته مع أني لم أسمعه منذ إحدى عشرة سنة خلت. اقشعرّ بدني لسماعه والتفتّ على الفور أستطلع الشاشة.

إيثان يحلّ ضيفاً على لوريتا كراون ليقدّم كتابه. تجمّدت منذهلاً أمام التلفاز. يبدو عليه الارتباك كمن يظهر لأول مرة على الشاشة، حيث من المفروض أن تترك الطهارة والصدق مكانهما للاحترافية

المهنية. ما أن رأيته حتى أدركت أنه سيصير نجم السنوات القادمة في مجاله. أحسستُ بالاطمئنان لهذه الحظوة المعلنة: من الآن صار إيثان جزءاً من عالم آخر، ولا بأس في أن نراه يحلّ بين ظهرانينا. وإذا نحن لم نقترف خطأ البحث عنه، فمن الأكيد أنه لن يأتي للبحث عنا.

وبقدر من الطمأنينة، استسلمت للحنين الجارف لرؤيته، مع الإحساس بشيء ما وأنا أستعيد نبرات صوته، وتعابير وجهه، وبريق عينيه.

- هيا إلى مائدة الطعام! هذه ثالث مرة أناديك! ألا تسمعني؟

اقتحمت ماريزا الورشة، والتفتت نحو الشاشة، ولم يستمر ارتباكها أكثر من ثانيتين.

استوعبت المشهد على الفور، وأطفأت التلفاز.

- هيّا بنا إلى المائدة!

خريف 2005

منذ فترة، تغيرت جيسي كثيراً. لقد ترك فشلها الدراسي في معهد براون أثراً عميقاً في نفسيتها، إذ صارت محبطة خاملة، تجلس لساعات طويلة قبالة التلفاز لمتابعة برامج تافهة، ولم تعُد تذهب إلى المدرسة.

وهي تكبر سنة بعد سنة، بدأت تظهر عليها ملامح شبهها بإيثان بشكل لافت، ممّا كان يُشعرني كل يوم بالخطر.

مايو 2006

ما كنت أتخوف من وقوعه قد وقع. من كثرة تردّد إيثان على التلفاز، انتهى ساكنة الحي إلى التعرّف عليه وتذكر الفترة التي قضاها

بينهم. كلّ واحد يستحضر الآن ذكرياته معه ويعقد صداقة جديدة مع صاحب «المجد المحلي» الجديد. وقد تخلّصت الخزانة البلدية من أرشيفاتها من الكتب الحاملة لطابعها الخاص على صفحاتها الأولى، وفضلتُ إحراق كتبه بدل منحها كهبة للخزانة.

أحياناً، تطرح جيسي علينا أسئلة نجيب عنها بنوع من التعميم، محاولين بذلك الإبقاء على الأمور في نطاق السيطرة إلى أن حان وقت انكشافها. بالأمس استمعت لإيثان في أحد البرامج الإذاعية، وعادت إلى البيت وهي تحمل نسخة من كتاب صدر له ضمن سلسلة كتاب الجيب. جلسنا معاً حول مائدة العشاء، قامت إلى الثلاجة وعيناها لا تفارقان الكتاب، وأخذت كأس حليب، ثم انسحبت لتجلس إلى طاولة صغيرة في الركن بمفردها. عادت ماريزا من العمل ودخلت الغرفة. امتدت يد جيسي وهي مأخوذة بالقراءة دونما انتباه لكعكة غمستها في الحليب وهمّت بها لفمها حين.

تردّد دوي صفعة قوية مباغتة على وجهها، صفعة قذفت بالكعكة وكأس الحليب الذي تطايرت شظاياه على الأرض.

تطلّعت مشدوهة إلى أمها محاولة أن تستوعب ما حصل، وتفهم هذا المزيج من الكراهية والألم البادي على وجهها فتحت فمها مستفسرة، لكن الصدمة كانت أقسى ممّا تتصور، فتوقفت عن السؤال وأوَت مسرعة إلى غرفتها.

البارحة مساءً

الجمعة 30 أكتوبر 2007

من يومها، سادت التشنجات مع جيسي لأتفه الأسباب، وتباعدت خرجاتي معها لغابات ولاية المين. أخشى أن تقع ضحية

شكوكها. لم تعد تطرح أسئلة بشأن إيثان، وهذا ما يخيفني. ما دام حضوره يشكِّل بالنسبة إلينا تهديداً غير مرئي. وبسبب ماريزا التي تدقق بلا توقف في مشاكلنا وجيسي التي أستشعر في تعاملها بعض الإزدراء، صرتُ قليل الوجود في البيت. أعود كل ليلة في التاسعة، أشرب كثيراً، أكثر ممّا ينبغي لأخفي تذمري. أصفق خلفي باب الشاحنة، وأعبّ جرعة من محلول منعنع لطمس رائحة الكحول المنبعثة من فمي، وأصعد الزقاق محاولاً التماسك في مشيتي حتى لا أترنح أو أتمايل، تتردّد على مسمعي أصداء أصوات من البيت، وأدخل لأجد ماريزا وجيسي في غمرة مشاداتهما

لثاني مرة منذ بداية الموسم الدراسي، يتمّ توقيفها مؤقتاً في الثانوية عن الدراسة. هذه المرة بسبب ضبطها في حالة تلبّس بتدخين سيجارة حشيش في المراحيض وتخلّصت منها برميها في قناة الصرف الصحي. أخطرت الثانوية الشرطة التي جاءت لزيارتنا أول المساء للبحث في النازلة.

وجدتُ ماريزا في غاية الغضب.

- نحن نبذل قصارى جهدنا ونبذل الغالي والنفيس لنتدبر مصاريف دراستك في مدرسة مناسبة، وأنت لم تجدي غير هذا الأسلوب للتعبير لنا عن الامتنان؟!

هزّت جيسي كتفيها ولم تكلِّف نفسها حتى عناء الجواب، ولم تجد ماريزا بُداً من تذكيرها بفشلها في معهد براون:

- قبل أربع سنوات، فوَّتت عليك فرصة لم تكن في الحسبان. كانت لديك مؤهلات رائعة ولم تعملي إلّا على إهدارها. واصلي على هذا النحو وستجدين نفسك آخر المطاف عاملة تعليب في فرع

من فروع وول مارت أو طباخة شواء في أحد مطاعم بورغر كينغ!

وبدوري كان عليّ أن أتدخل في الموضوع، فأشهرت في وجهها لائحة طويلة من المؤاخذات، مكرراً لها بلا جدوى شعوري بالإحباط لسقوطها في المخدرات.

- لن ينتهي بك المطاف في بورغر كينغ، بل في السجن أو المستشفى!

وخلافاً لما أبدته من تجاهل اتجاه تأنيب أمها، انفجرت في وجهي ساخطة:

- ليس من الملائم لك أنت بالذات أن تقول لي هذا! لست سوى سكّير عاجز وفاشل في كل ما تُقدِم عليه. لست قادراً حتى على تأمين مؤونتنا بشكل منتظم وأداء فواتير هذا المنزل العفن.

وبحكم الغضب وتأثير الكحول انفلتت مني دون تفكير كلمات جارحة وسيئة العواقب:

- من حسن حظك أنني كنت موجوداً حين تخلى عنك والدك الحقير! ومن حسن حظك أنني تكفّلت بك بدلاً منه وسهرت على تربيتك ورعايتك طيلة خمسة عشر عاماً!

صرخت ماريزا في وجهي من أجل أن أتوقف عن هذا الكلام النابي، لكن بعد فوات الأوان.

لقد حصل الأسوأ.

*

مانهاتن، اليوم
السبت 31 أكتوبر

اسمي جيمي كافاليتي، أبلغ 38 سنة من عمري، وأنا الآن على متن القطار المتوجّه إلى مانهاتن. مساء أمس، لم تعُد ابنتي إلى

البيت. لقد غادَرَته بسببي، إذ أخطأتُ في حقها بأن جرحتها وكذبت عليها.

دخل القطار المحطة المركزية الكبرى. ومثل سائح لا يعرف وجهته اندسستُ وسط الزحام على الرصيف بخطى متردّدة. لم أعُد إلى مانهاتن منذ أن خرج إيثان من حياتنا. أعرف أن المدينة قد تغيرت وأن نيويورك اليوم لا علاقة لها بنيويورك الأمس أيام شبابي. لكن مهمتي اليوم هي العثور على جيسي. وعلي أن أقوم بالمهمة على وجه السرعة، خاصة وأني لاحظت هذا الصباح اختفاء المسدس القديم الذي أحتفظ به في ورشتي، ولم أجرؤ على مفاتحة ماريزا في الأمر.

أرجوك جيسي.

لا ترتكبي أية حماقة.

أنا قادم لأبحث عنك.

29

كان يا ما كان في نيويورك

الماضي لم يكن أبداً غير حاضر في حاجة إلى إعادة تنظيم، ليس عليك استشرافه، بل إتاحته.

أنطوان دو سانت-أكزوبيري

مانهاتن، وسط المدينة
أمام المركز التجاري وولفود
الساعة 10 و4 دقائق

- انظري ماما، ألعب دور الهندي: ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، ووو ووووووو!

- كفّ عن هذه الحماقة روبي، وعُد إلى السيارة.

ميريديث جونستون تمسك بين ذراعيها رضيعاً لا يكف عن الصراخ محاولة في الوقت نفسه وضع أكياس ملأى بالمؤونة في صندوق سيارتها تويوتا بلونها الأزرق المشمشي، بينما صبي صغير بلباس الهنود الحمر يحوم حولها مقلداً رقصة المحارب:

- ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، ووو ووو!

*

بوجه تلفحه الريح، يمرق إيثان عابراً بسرعة خاطفة وسط

المدينة. غرانت ستريت، لافاييت، برودواي. يخترق بدراجته الطريق ويتسلل عبر التجاويف العميقة بين الجدران العمودية الزجاجية.

وهو يقود دراجته، يلقي بين الفينة والأخرى نظره على الساعة ويحسّ بعدم اطمئنان بشأن جيسي التي لا تبرح تفكيره في أثناء اليوم الثالث، لم يذهب لحضور البرنامج. وإذا كانت الوقائع تجري على المنوال نفسه فإن من المفروض أن تكون جيسي الآن في المقهى متأثرة بوضعها السيئ.

بيدها المسدس.

والقدر يتربص بها.

*

في مقهى ستورم، كانت فتاة نحيفة شقراء تجلس إلى مائدة بالقرب من النافذة، وهي تقرأ مراراً مقالاً مجتزأ من صحيفة **نيويورك تايمز** التي نسيها أحد المسافرين ملقاة على كرسي بالمحطة حيث قضى ليلته. يتحدث المقال عن المعالج النفسي الذي فتن أميركا رجل لا يزال في ريعان الشباب سبق أن رأته غير ما مرة على شاشة التلفزيون وقرأت كلّ كتبه.

إلى حدّ الساعة، كانت جيسي عاجزة عن انتزاع بصرها من الصورة المكبَّرة التي تمتد على الصفحة الأولى من الصحيفة اليومية. أي كائن يختبئ خلف هذه الابتسامة الساحرة والمصطنعة في آن. وماذا في عمق تلك النظرة المشعة وراء غلالة قائمة من الحزن والتعب؟

ليلة أمس، كان من حسنات تلك المشاداة مع والديها أن فقأت دملاً طالما سمّم حياتها بالتدريج وكشف في يوم ما كان يعكّر صفو

أيامها منذ سنتين. بعد الكلمات الفظيعة التي سمعتها من جيمي، هربت من البيت وكلها إصرار على العثور على ذلك الأب الشبح الذي لم يكفّ عن الاستحواذ على فكرها كي تسأله: لماذا تخلى عنها؟

لكن هذا الصباح، وهي بمكتبه، كان عزمها مشوباً بنوع من الفتور. كانت مرهقة، باردة كغصن ميت، وهشة كقطعة طبشور. وفي العاشرة من عمرها تمّ تصنيفها بناء على روائز مدرسية كطفلة ذات نبوغ استثنائي. ومع ذلك لم تعرف ما تفعله بذكائها المزعوم، خاصة وأنها كانت مسكونة بالخوف، الخوف من أن تبقى في معزل من الإحساس بالأمن والحب. الخوف من العجز على مواجهة واقعٍ قاسٍ، الخوف من السقوط في القطيعة وفقدان التحكم في كل شيء. الخوف والاشمئزاز من العيش في عالم يسحق الضعفاء بلا رحمة.

من خلال الزجاج، تراقب مشرّداً يستسلم لغفوة عند مدخل عمارة. هل من المستحب أن تأخذها الشفقة دائماً اتجاه الفقراء؟ لقد شكّكتها في جدوى دروس علم النفس التي تلقتها بالثانوية في ذلك بتبني خطاب غريب مغاير: الشفقة تحوّلك إلى كائن حساس، كائن ضعيف، ولكي يحالفك النجاح عليك أن تفكر أولاً في نفسك.

ارتدت وزرتها، والتقطت حقيبتها من نوع إيستباك الملقاة على الأريكة وهمّت بأن تغادر المقهى. وما أن نهضت حتى أحسّت بدوار خفيف مباغت. لقد استنفدت مصروفها في تذكرة القطار، ولم تتناول منذ البارحة أية وجبة ما عدا بعض قطع البسكوت. تحسّست في جيبها المسدس الذي سرقته من ورشة والدها، وأحسّت عند ملمس مقبضه الأملس بنوع من الطمأنينة. ومن جديد، بدأت تصطكّ أسنانها من رجفة البرد وتأسّفت لعدم ارتدائها لباساً دافئاً غير

وزرتها، وتمنّت لو كان بإمكانها الآن أن تلتحف غطاء صوفياً وتتمدّد على الأرض وتنام إلى الأبد.

*

انحرف إيثان عند منعطف شارع فولتون وأصاب انعكاس الأشعة الشمسية عينيه بغشاوة لم يجد بُداً من اتقائها بوضع يده على جبهته. كاد يفقد توازنه على الدراجة لولا أنه استعاد التحكم في المقود بيديه. واصل طريقه بسرعة فائقة عبر شارع فرونت، تجاوز المدار وطالعه من بعيد شعار مقهى ستورم.

جيسي!

تعرفها عن بعد عشرين متراً، وهي تهمّ بعبور الشارع خارج ممرّ الراجلين. في لحظة أحسّ بالارتياح إلى أن تنبه فجأة لسيارة تويوتا من الحجم الصغير بلونها الأزرق المشمشي قادمة بسرعة لافتة في الاتجاه المعاكس.

*

- انظري ماما، أنا ألعب دور الهندي: ووو، ووو، ووو، ووو، ووو، ووووووو!

زفرت ميريديث بعمق، سيجنّنها هذا الولد.

- ماما!

التفتت إليه متعبة مفرطة في السرعة، وصرخت فيه:

- يكفي روبي، لقد فهمت، أنت الهندي، أنت الهندي!

- ماما، الفتاة!! إنها تقطع الشارع!! انتبهي!!!

*

- انتبهي!

انقذفت السيارة باتجاه هدفها.

كلّ شيء وقع في ثانية خاطفة، ثانية تمدّدت، تصدّع فيها رونق الواقع، وبعثرت نسق الأشياء. لحظة خاطفة انحرف فيها مسار القدر عن طريقه، مثل تموجات غير مرتقبة في انعراجات الزمن.

*

حين التفتت ميريديث، كان قد فات الأوان عن الفرملة، فات الأوان عن تفادي ما لا يمكن تفاديه. كل شيء كان يقع بسرعة خاطفة، لكنها تعرف قبلاً، تعرف أنه سيكون هناك **قبل** و**بعد**، تعرف أن حياتها اليوم تنقلب، تعرف ألّا شيء من الآن سيبقى على حاله، تعرف بأنها لن تنام بعد اليوم نوماً هادئاً وأنّ ما تبقّى في داخلها من قليل البراءة والنضارة سيتبخر إلى الأبد، تعرف أنّ الوجه المرتعب لهذه الفتاة سيعود ليقضّ مضجعها كلّ ليلة.

*

- انتبهي!

صرخة ما ندّت عن أحد المارة.

هزّت جيسي رأسها، ورأت السيارة تدحسها لا محالة لتدرك بأنّ كل شيء انتهى. وبشكل أدق، أحسَّت في هذه اللحظة بعمق فراغها وتعبها إلى حدّ الشعور بأنها كانت ميتة قبلاً. أحياناً كانت في هلوساتها المرضية، تتساءل عمّا يشعر به في منتصف سقوطهم أولئك الذين يقذفون بأنفسهم من النافذة. هل للقطرة الأخيرة من الحياة طعم خاص قبل عدمية الموت؟

*

بوصوله من الاتجاه المعاكس، انحرف إيثان قدر ما يستطيع إلى اليسار، مديراً المقود إلى نهايته ومفرملاً العجلة الخلفية لتمديد الدراجة على الأرض. إنها الطريقة الوحيدة التي اهتدى إليها لإنقاذ

جيسي. انقذف وتزحلق على الإسفلت وسط القارعة لعدّة أمتار. أحسّ بالزفت يكشط رداءه ويسلخ جلده. إنه يعرف مسبقاً أنّ أبسط سقوط من الدراجة، لا بد أن يترتب عنه الرضوض والجروح، لا من هيكل يحميه، أو حزام سلامة، أو بالون وقاية، ولا حتى واقية الرأس التي نسيها في النادي 13. استذكار قاسٍ لقدر فظ.

ارتطم رأسه بالأرض مرتين بقوة، وأحسّ بعنف الصدمة حد الاقتناع بأنه لن يستطيع القيام مرة أخرى، وفكر مرة أخرى فيما قاله له كورتيس هذا الصباح: **إن المعركة التي تخوضها لم يسبق لأحد أن ربحها.**

للأسف: كان يود تمديد اللعبة ويظفر بحق اللعب ساعات إضافية أخرى.

*

امتدّ انزلاق الدراجة لينتهي به المطاف إلى الاصطدام بمقدمة السيارة مجبرة إياها على تحويل مسارها. أحسّت جيسي بالسيارة تداعب جسدها ونَفَس الموت يدغدغ وجهها قبل أن تقصد الرصيف وترتطم بمقهى ستورم لتتطاير الشظايا الزجاجية لواجهتها وتتهشم الموائد والكراسي الموضوعة جنب النافذة.

*

ثم استعاد الزمن وتيرته الطبيعية. توقفت حركة السير من تلقاء ذاتها وتعالت وسط الحشد جلبة هلع. لم يصب الزبناء والعاملون بالمقهى بأيّ أذى. وبفضل حزام السلامة خرجت ميريديث وروبي سالمين رغم قوة الصدمة.

- هل لاحظتِ ماما بالون السلامة؟ لقد انتفخ كثيراً!

تحلقت حول إيثان مجموعة من المارة. مندهشة من قدرته على

النهوض للتو، وقد انسلخت جهة وجهه اليمنى من ذقنه حتى أذنه، وتفلّقت شفته وانثلم سنّ من أسنانه. وهو يجول ببصره بحثاً عن جيسي التي لم يبدُ لها أثر.

- ماما، هل لاحظت بالون السلامة، لقد انتفخ كثيراً! هل لاحظت ذلك؟ هه؟

- نعم، روبي، لقد لاحظت ذلك.

توقفت سيارتان لشرطة نيويورك على الفور بعين المكان، وتدريجياً حلّت الأعمال والقضايا محل المشاعر: بدأت الأطراف بتبادل المعطيات المتعلقة بمحاميها. وباشرت الشرطة الاستماع إلى إفادات الشهود وقد تفاجأ الجميع باختفاء المراهقة التي ورد ذكرها في صلب كل الشهادات. أراد إيثان الذهاب للبحث عنها غير أن الشرطة أجبرته على البقاء لإطلاعها على رخصة السياقة ووثيقة التأمين. ولم يكن يحمل معه محفظة أوراقه، ولم يفلح في إقناع الشرطة بتعليلاته فقرّرت مرافقته إلى البيت للاطّلاع على الوثائق المطلوبة وإتمام الإجراءات. وهو يصعد للمقعد الخلفي بالسيارة، أحسّ بألم واخز في رأسه سرعان ما خفت حدّته. فاقترح عليه أحد رجال الأمن:

- هل تريد أن نحملك أولاً إلى المستشفى؟ يجب الحذر من الإصابة في الدماغ.

- سأذهب لوحدي لاحقاً.

صفق باب السيارة، وألقى نظرة من خلال زجاج النافذة فلمح الصبي الصغير لا يزال يردد للمرة العاشرة أفضال بالون السلامة على مسامع أمه صاحبة التويوتا.

*

تحت تأثير الهلع. تركض جيسي متقطعة الأنفاس. إنها تشعر بالرعب أمام جسامة الحادث الذي تعتبر نفسها المسؤولة عنه. كان عليها الحذر! لماذا عبرت الشارع بعيداً عن الممرّ المخصّص للراجلين؟

صور التصادم تتتابع برأسها عنيفة، متقطعة مرتبكة. لم تستوعب كلّ ما وقع، لكنه يستحوذ الآن على تفكيرها ويحملها على الإحساس بأنها مدينة بحياتها لذلك «الرجل على الدراجة»، وهو ينزلق بها مما حوَّل وجهة السيارة ومكَّنها من النجاة من موتها المحقق. وما أن اطمأنت لوجودها في منأى عن الخطر حتى توارت تلقائياً عن الأنظار تفادياً للوقوع بيد الشرطة، حتى دون أن تعرف عاقبة الحادث وعدد ضحاياه.

مصعوقة، توقفت ذات ركن لتلتقط أنفاسها المتقطعة، وقد خارت قواها واستبدّ بها الشعور بالذنب، تهالكت على الرصيف، تحسّ بعمق الفراغ بداخلها، لا طاقة ولا شرارة، ولا حياة. جلست ووجهها إلى الجدار، ووضعت رأسها بين يديها، لتنذرف من عينيها الدموع مدرارة على خدها، وظلت على هذا الوضع إلى أن أحسّت بظلٍّ بارد يغمرها. هزّت رأسها لتجد زنجياً فارع القد برأسه الحليقة. انحنى عليها ليمرّر على وجهها يداً ضخمة بأصابع موشومة بالأحرف الأربعة .F.A.T.E. في ردّة فعلها الأولى، فتحت فمها محاولة الصراخ، لكن كما لو أنّ حاستها السادسة حدست نوعاً من الاطمئنان في حضرته. كفكف دمعها بإبهامه ومدّ لها يده ليساعدها على الوقوف. وما أن نهضت حتى تراجعت إلى الوراء مبتعدة عنه وهي تسأله:

- من. من أنت؟

- أنا حامل الأخبار السارة.

سمع زعيق سيارات مستعجلة فالتفت اتجاه سيارته، المتوقفة في وضع معيق لحركة السير في شارع سيدار. وما أن رأتها جيسي حتى تذكرت سيارة الأجرة التي سبق لها أن رأتها في أحد أفلام ألفريد هيتشكوك.

- اصعدي، اقترح عليها كورتيس.

- إلى أين؟ سألته حذرة.

- لتغيير القدر.

30

بضعة أيام معك

من الصعوبة بمكان تصريف فعل «أحب»،
فماضيه ليس بسيطاً، ومضارعه ليس دالاً،
بينما مستقبله شَرطيّ دائماً.

جان كوكتو

- حسناً، كلّ أوراقك مضبوطة، سيدي.

استعاد إيثان محفظة أوراقه ورافق رجال الشرطة إلى سيارتهم الفورد كراون فيكتوريا الموشاة بشعار شرطة نيويورك: لطف، مهنية، احترام.

مانهاتن
مرفأ نورث كوف
الساعة 11 و32 دقيقة

ألحّ عليه أحد الأمنيين الأصغر سناً في مرافقته إلى المستشفى:

- هل أنت متأكد ألّا حاجة لك بالذهاب إلى المشفى.

- لا، أنا في أحسن حال.

حياهما وتوجّه إلى مركبه كي ينظّف جراحه ويعالجها.

كان الأمنيان على أهبة الانسحاب من موقف السيارات. حين

لاحظا توقف التاكسي لتنزل منه زبونة شابة شقراء لترمي في الساحة خطاها المتعثرة مثل عصفور صغير سقط من عشه.

بشكل مشوش، كانت جيسي لأول مرة تكتشف هذا المكان الساحر. رفعت عينيها تستطلع الأبراج الأنيقة تنعكس على واجهاتها أشعة الشمس المتوهجة. باتري بارك سيتي المشيَّد على ضفاف النهر، خرج من الماء في بداية الثمانينيات، وانتصب على مساحة مجتزأة من هودسون من فضل التراب والصخور المستجلبة أثناء تشييد البرجين التوأم.

وانطلاقاً من المظلة الزجاجية لـ«ونتر غاردن»، جالت ببصرها عبر اليخوت الفاخرة الراسية على رصيف المرفأ السياحي الذي ينفتح على طول الساحة مثل فجوة عميقة في الماء. ثم تقدّمت نحو الفسحة الظليلة، المغروسة بالأشجار الباسقة، والمزينة بأحواض الأزهار في امتداد يصل بها إلى المرفأ في الوقت الذي ظهر فيه إيثان على المعبر الموصل لليخت. وجدا نفسيهما فجأة وجهاً لوجه وكل منهما في حيرة من أمر صاحبه. وبفعل المباغتة التفتت جيسي إلى الوراء للهروب منه. فلحق بها مسرعاً وهو يناديها:

- انتظري! انتظري!

لكن الفتاة واصلت السباق بوتيرة أسرع.

- جيسي!

بدا على الفور أنّ مناداتها باسمها كصيحة من صميم القلب أوقفتها عن الركض. والتفتت مصعوقة وقد سقطت حقيبة يدها على الأرض.

كيف عرفها؟

وقفا على بعد مترين تقريباً من بعضهما، أباً وبنتاً وجهاً لوجه في فسحة تكنسها الريح.

وما أن لاحظت جروحه وثيابه الممزقة حتى تعرّفت عليه، وأدركت على الفور أنه «رجل الدراجة» الذي كان وراء إنقاذها.

- منذ ثلاثة أيام وأنا أبحث عنكِ. قال لها وهو يتقدّم نحوها.

لم تفهم قصده، لكن الأهم من كل ذلك أن والدها يعرفها، ويبحث عنها، وأفلح في إنقاذها.

كما لو أنه وهبها الحياة للمرة الثانية.

*

غادر اليخت الصغير مرفأه، وأبحر بوتيرة مسرعة يمخر مياه الهودسون وسط الرذاذ، مخلفاً وراءه خطوطاً صافية متماوجة عبر ممرّ العبارات الذي يفضي إلى جزيرة إيليس وتمثال الحرية.

سرب من الغيوم الشفيفة تعبر السماء المشمسة وتفسح فجوة لشعاع أشبه بنور اصطناعي. وجيسي متكئة على الدرابزين الذي يسور المعبر، كما لو كانت في حالة نوم مغناطيسي، تتطلع إلى خط ناطحة السحاب وجسر بروكلين، يملؤها الإحساس بأن المدينة صارت في ملكها.

وإيثان من وراء الواجهة الزجاجية في قمرة القيادة في لحظة أوقف المركب في عرض جزيرة غوفرنر قبل أن يختفي في المقصورة، ليخرج منها بعد قليل وذراعاه ملأى بأطباق الإفطار ويدعو جيسي للحاق به على سطح اليخت.

هدأت الريح وانقشع سرب الغيوم فغمرت الشمس بضوئها المائدة التي جلسا متقابلين حولها.

قدَّم لها كأساً من عصير الفواكه، وانشغل بتحضير الخلطة

الشهية التي يعرفها. صب في كوب وعاء من اللبن الطبيعي، أضاف إليه نصف موزة مدعوكة وقبضة من اللوز المسحوق وملعقة من شراب القيقب. فهتفت جيسي فرحاً:

- إنها المُقبِّلات التي كانت تعدّها جدتي!

وافقها إيثان الرأي بهزّة خفيفة من رأسه.

- هي التي أتاحت لي اكتشافها، كانت تعدّها عند عودتنا من المدرسة في العشية جيمي وأنا.

تطلعت إليه مندهشة من ذكرياتهما المشتركة ممّا يشيع حولها جواً من الثقة. وبالنسبة إلى إيثان كان الأمر أكثر تعقيداً، إذ يعلم أنّ قرابتهما الدموية ما يجمعهما الآن، يحسّ أنه لا يزال بينهما نوع من الكلفة في تواصلهما لم يعهده في لقاءاتهما السابقة.

بعد صمت طويل قرر إيثان مفاتحتها في الموضوع. هنا، عند ملتقى النهرين، بين السماء والأرض، أمام المشهد المعماري الأكثر شهرة في العالم، سيحكي لها عن كل شيء: طفولته ومراهقته مع جيمي، لقائه مع ماريزا في الثانوية، مساره الدراسي المنقطع بسرعة، الإهانات التي تلقاها في ورشات البناء، تعطشه للمعارف ورغبته لفعل شيء في حياته ممّا قاده فجأة للهرب قبل خمسة عشر عاماً إلى مانهاتن ذات مساء خريفي.

- لا أعلم بالضبط ما حكاه لك جيمي وماريزا، لكن عليك أن تعرفي بأني حين رحلت كنت أشكّ في كون أمك حاملاً بك، وهي لم تخبرني أبداً بوجودك.

- لكنك اختفيت فجأة! بين ليلة وضحاها، ولم يعُد يظهر لك أثر.

- نعم، كان أمراً ملحاً. كنت في الثالثة والعشرين من عمري. يملؤني الإحساس بأن حياتي مرسومة سلفاً. وكان بودي أن أستشرف آفاقاً جديدة، وألتقي أناساً آخرين، وأقيم الدليل على قدرتي في الظفر بتجربتي.

- وبعدها لم تفكر في العودة أبداً لرؤيتهما؟

- كما تعلمين، في مثل الظروف التي رحلت فيها، أعتقد أن والديك لم تكن لديهما الرغبة في رؤيتي ثانية.

وانتهى إيثان إلى البوح لها:

- لم أكن أبداً فخوراً بنفسي.

- وأمي، ألم تكن تحبها؟

أجابها وهو يهز رأسه:

- كنا لا نزال شابين في تلك المرحلة.

- لم تجب عن سؤالي.

أشاح إيثان ببصره بعيداً في عرض المحيط.

- ليس لأني لم أكن أحبها، بل لأني لم أكن أحبها بما يكفي لأبقى إلى جانبها، لعلها لم تكن حقاً امرأة حياتي. وفوق ذلك فالحب ليس كافياً لحلّ كلّ المشاكل.

- في هذه الحالة، لم يكن حباً حقيقياً.

- هذا ما تعتقدين لأنك لا تزالين طفلة. والواقع أن الأمر أكثر تعقيداً ممّا تتصورين.

- أنا لم أعُد طفلة. أنت تتحدث تماماً مثل

توقفت فجأة لتستوعب جيداً ما كانت على أهبة أن تقوله، فبادرها مبتسماً:

- إذا كنت أتحدث مثل والدك، فلأني الآن بصدد أن أكون والدك.

وللحظة، ساد الصمت بينهما. وسهما معاً في تتبّع سرب من النوارس يحلق فوق المركب وقد أثار شهية طبق الفطائر على المائدة.

وواصل إيثان أخيراً بوحه:

- على كل حال، أنا فخور بأن تكون لي ابنة مثلك.

- لأنك لا تعرفني جيداً

- سيبدو لك الأمر غريباً، فأنا أعرف عنك أشياء كثيرة، أعرف أنك اقتطعت صورتين من الصحيفة، وأعرف أن بحوزتك مسدساً مدسوساً في جيب وزرتك وتتحينين الفرصة وبلا وعي لاستعماله في وضع حدّ لحياتك.

ركّزت بصرها بعينين لامعتين، منذهلة ممّا قاله.

- أعرف في هذه اللحظة أن الحياة تبدو لك قاسية وبلا أفق، وأنك تفكرين أحياناً كثيرة في الموت. أعرف أن العالم يبدو من حولك ظالماً متمرداً، وأن معاناة الآخرين تسبب لك الألم لأنك كريمة حساسة. لكني أعرف أيضاً أنّ ردود الفعل المتطرفة في مثل سنك تزداد تفاقماً وبالإمكان الانتقال بسرعة من حالة الاكتئاب العميق إلى حالة الانفراج والانشراح.

بدأت الريح تهبّ من جديد، وأحسّت جيسي برعشة فعمدت إلى شد أزرار وزرتها. بينما ينعكس الشعاع الخريفي هادئاً بلونه البرتقالي على العمارات المتراصة على طول الساحل البحري وتلطف من وميض واجهاتها الزجاجية التي تصيب أعين المدينة بغشاوة في أوقات الصحو والصفاء.

- جيمي وماريزا هما الأبوان الحقيقيان اللذان لن تحلمي بمثلهما أبداً. أنا على يقين أنّ جيمي أب رائع يحبك ويضحّي من أجلك دائماً.

أومأت جيسي برأسها في حركة غير مفهومة. ربت إيثان على كتفها. كان بودّه أن يقول لها، أنه هو الآخر موجود هنا من أجلها وسيظلان معاً من الآن لتدارك ما فات من الزمن الضائع. وبما أنه لا يعرف أين يمكن أن ينتهي مآله في ختام يومه، لم يجرؤ على وعود غير موثوقة.

- تعلمين، لا يهم ما ستفعلين بحياتك. الأهم من ذلك ألّا تخوني نفسك، لَكِ بالضرورة أحلام وطموحات.

أخذت وقتاً للتفكير، وتردّدت في كشف الكثير عن نفسها، وأعطت انطباعاً بأنها تحايلت على الرد:

- أحياناً، حين أشاهدك في التلفزيون أو أقرأ كتاباً من كتبك، كان يملؤني هذا الشعور بأنّ كل شيء ممكن.

هكذا تنتقي كلماتها حتى قبل أن تحدد فكرتها:

- هذا ما أحببت فيك دائماً: قدرتك على إقناع الناس بأنّ حياتهم ليست مرسومة سلفاً وبأن بإمكانهم تغييرها وفق إرادتهم.

أربكته كلماتها. وتابعت حديثها على النبرة نفسها لتبوح له:

- هذا ما أودّه أنا الأخرى: تمكين الناس من استعادة الثقة التي افتقدوها في أنفسهم.

متأثراً بهذا البوح، طرح عليها كمّاً من الأسئلة حول دراستها، والديها، قراءاتها واهتماماتها. وتدريجياً شعرت ببعض الارتياح وانفكّت عقدة لسانها أكثر، فاكتشف فيها شخصية فتاة مثقفة تراوح

بين الحيطة والفضول بالقياس إلى جيلها في هذا الزمن، فتاة متشائمة وقدرية ضحية اعتقادها في عجزها عن أن تكون سيدة حياتها، فتاة تفتقد الثقة في نفسها ويستبدّ بها القلق على الآخرين. هكذا، استغلّ هذه اللحظة التي أتاحتها له، هذا الانخطاف الأقرب إلى النوم المغناطيسي، لإقناعها بخلاف ما تعتقد: إن الحياة جديرة بأن تُعاش، وبإمكاننا أن نولد من رحم معاناتها من جديد، ونقفز فوق الموانع والحواجز بنجاح. وشيئاً فشيئاً، بدأت تتهاوى دفاعات جيسي، ولأول مرة رأى الابتسامة ترتسم على وجهها. وما لبثت أن أحسّت بالانشراح وشرعت بدورها تلقي عليه الأسئلة حول حياته ومهنته.

وبحكم طبيعتها الحدسية، تبدّى لها خلف بريق نجاحه صورة رجل محبَط نالَ هو الآخر نصيبه الوافر من الخيبات.

- وامرأة حياتك؟ هل التقيتها؟

هزّ إيثان رأسه، وهو يشيح بوجهه عرض البحر يراقب المراكب الصغيرة لنقل السياح وزوارق الشرطة السريعة.

- نعم، التقيتها لكني لم أفلح في الحفاظ عليها.

- ربما ما زال لديك متسع من الوقت.

لم يُجِبها، فما كان عليها إلّا أن واصلت الإلحاح عليه متصيدة تناقضاته:

- أعتقد أن لا شيء في الحياة مرسومٌ سلفاً.

أحياناً، علينا أن نقبل بضياع الفرصة وفوات الأوان ليكون بإمكاننا العودة إلى الوراء.

- وهذه المرأة، هل أنت على يقين أنها لم تعُد تحبك؟

- ستتزوج اليوم!

- آه؟ نهاية سيئة للأسف.

وبفضول، واصلت طرح أسئلتها ممّا حمله على أن يحكي لها قصته مع سيلين منذ لقائهما الأول في باريس إلى الدعوة التي تلقاها منها لحضور حفل زفافها. واستمع إيثان باهتمام وجهة نظر أنثوية جديدة حول تجربته ليتوالى الحديث بينهما لما يقرب نصف الساعة.

*

الشمس في تمام توهجها، تشيع خيوطها الذهبية على أمواج الهودسون. بعودتهما للمرفأ، فكّر إيثان في جيمي، وهو يذرع المدينة وحيداً فريسة للقلق. بحثاً عن ابنته. فاقترح على جيسي الاتصال به وهو يمدّها بهاتفه المحمول بلاك بيري، فانتحت جانباً على المعبر لتمرير المكالمة. لم يكن بإمكان إيثان سماع فحوى المحادثة بينهما بفعل صوت المحرك المختلط بصوت النوارس، لكنه من خلال بعض الكلمات المتقطعة عرف أنها تطمئنه على حالها. وما أن وصلا إلى الرصيف. حتى قفزت جيسي إلى المعبر. وبدا عليه أنها استعادت طاقتها وصفاء مزاجها وتلقائيتها. ثم بنبرة مرحة قالت له:

- سأعود بعد ساعة.

كان بودّه استبقاءها، لكنها لم تمنحه الفرصة وتوارت بعيداً.

برشاقة وجموح عمرها الفتي، أطلقت ساقيها في خطوات مسرعة تقفز عبر الأدراج الحجرية للساحة. وما إن وصلت إلى الواجهة الزجاجية الزرقاء لونتر غاردن، حتى التفتت إليه ولوّحت له بيدها، فردّ عليها إيثان بالتحية نفسها مبتسماً مطمئناً لاستعادتها

الإحساس بالحياة. لقد حرص على ألّا يعدُها بشيء وهو يتمنى أن يسعفه العمر ليعيش طويلاً ويراها امرأة راشدة فيما سوف يأتي من الأيام. لقد أعاد إليه لقاؤها بعض العزم والأمل: كان مصمماً على الحياة، مصمماً على الاعتقاد بأن القدر ليس أكيداً بالضرورة.

لأن الحياة تشبه لعبة البوكر أحياناً: يمكننا أن نربح في النهاية. حتى ولو بأيدينا أوراق رديئة.

31

متى ستعودين

حتى وإن كان عليّ أن أرحل الآن، فإن
فراقنا لن يمحو أبداً ما عشناه معاً.
آخر همسات بيل موراي لسكارليت
جوهانسن في ضاع في الترجمة،
فيلم من إخراج صوفيا كوبولا

مانهاتن
مرفأ نورث كوف
الساعة 13 و21 دقيقة

وحده على متن مركبه، يقوم إيثان بأعمال الصيانة الاعتيادية اللازمة بعد كلّ إبحار: مراقبة الحبال والدفاعات، تنظيف المعبر والحواف، غسل الكوات والنوافذ. وانزعج من الريح التي بدأت تهب بقوة وهو يحاول استكمال مهمته بتثبيت الغطاء الواقي على قمرة القيادة.

- هل ترغب في المساعدة؟

هزّ رأسه فإذا بجيمي على الرصيف، بقميص مخطّط من قماش سميك، وعلى رأسه قبعة لفريق ريد سوكس.

*

اجتازت جيسي أزقة وول ستريت حتى محطة مترو برود ستريت. قفزت من فوق السياج الحديد ونزلت الأدراج التي تفضي إلى أرصفة المحطة. خرج للتو من النفق قطار مطلقاً زعيقه وتوقف في المحطة ليلفظ ما بقاطرته المكتظة بالركاب. صعدت إلى القاطرة وهي تلهج بالدعاء كي لا يصادفها مراقب التذاكر.

في أثناء الرحلة، حرصت على الصمت. وفي دقائق وصلت إلى ميدتاون واختارت النزول في محطة تايمز سكوير. كان المكان معموراً بالسياح وقت الغذاء. الحشود تمر، والأطفال يتصايحون، والسيارات لا تكفّ عن إطلاق الزمامير، والفتيات يتدافعن لأخذ صور مع «الكاوبوي العاري»[1] وفي غمرة هذه الدوامة، حاولت جيسي تبين طريقها فتوجهت إلى دورية الشرطة التي دلّتها على وجهتها المقصودة.

*

- هل تركتها تذهب لوحدها هكذا؟
- نعم.
- حتى دون أن تسألها عن وجهتها؟

إيثان وجيمي مثل ملاكمين قبل النزال، يتواجهان معاً على رصيف المرسى.

- لا تقلق بشأنها، لقد وعدتني بالعودة سريعاً.
- هل لديك أدنى فكرة عن المكان الذي قصدته؟
- لا، ولكني أثق بها، هذا كل ما في الأمر.

---

(1) شخصية معروفة في مانهاتن، وهو موسيقي يعزف على الغيتار في تايمز سكوير، ينتعل حذاءً ويلبس قبعة وتباناً فقط.

- تثق بطفلة لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها ولا تعرف نيويورك وتذرع الآن مانهاتن بمفردها؟

- إنها المدينة الأكثر أمناً في العالم يا جيمي. ونحن لم نعد في سنوات الثمانينيات!

- والمسدس؟

أجابه وهو يمدّ إليه المسدس بمقبضه الصدفي:

- مَن تظنّني؟ لقد غافلتها، واستللته دونما انتباه منها.

- تبدو مزهواً بنفسك؟

- لو أنك احتفظت بهذا السلاح في بيتك لما طرح المشكل أصلاً، لكن لم تمرّ سوى عشرين سنة عن تحذيري المتكرّر لك ونصحك بالتخلص منه.

- يا لها من جسارة!

ورغم حدة لهجة إيثان، ظلّ جيمي هادئاً بعض الشيء وبقليل من الاطمئنان سأله:

- ولكن كيف عثرت عليها؟

- إنها فتاة رائعة: ذكية، نشيطة، وحساسة.

- هل تعرف أنها لم تعُد موفقة إلى هذا الحد؟

- هذا ما اعتقدته.

- لقد تمّ طردها من الثانوية.

- نعم، حكت لي قصتها: مشكلة السيجارة المحشوة بالحشيش.

- إذاً أنت على علم!

- أوف، نحن الاثنين دخّنا الحشيش أيضاً.

- ولكن لم يكن ذلك أفضل ما فعلناه في حياتنا.

*

أمام مرآة حائطية كبيرة، وقفت سيلين تضبط مقاس فستان زفافها في أحد الصالونات الصغيرة الخاصة بفندق سوفيتل. فستان صقيل من الأورغانزا والدانتيل في تناغم مع وجهها المجمَّل بالمساحيق. تحاول أن تبتسم لكنها لا تستطيع التخلص من الانقباض الظاهر على ملامحها وتراودها رغبة في البكاء. يملأها الإحساس بأنها منهكة، مهزومة، مجردة من كلّ نسغ أو إرادة. وفي المرآة تنكشف لها بعض التجاعيد الصغيرة المحدِقة بعينيها وشفتيها

إنها الآن في سنّها الثلاثين، والثلاثون ليست هي العشرين، وإن كانت لا تزال تحتفظ بأمارات الشباب، غير أنها تعرف في الوقت نفسه أنّ وجهها فقدَ بريقه وطراوته حتى أنها صارت ترى شامتها نشازاً وأن التوافق قد لا يفضي إلى نتيجة. توارت الشمس خلف غيمة كبيرة غامرة بغبش الظلال، وبشكل خاطف تراءى لها المستقبل مؤلماً: تسلط الشيخوخة، ووهن البدن وضعف الذاكرة. ويظهر أن هذا اليوم الذي من المفروض أن يكون أسعد أيام حياتها صار أشبه بحداد على شبابها، حداد على حبها. كانت تعتقد في قدرةٍ على التلاعب بمشاعرها، لكنها تجد نفسها اليوم مستسلمة لسطوتها بعد أن لم يعد بإمكانها العودة إلى الوراء.

سمعت فجأة طرقاً على الباب، فسارعت تكفكف عينيها المغرورقتين بالدموع.

- ادخل.

*

- وأنت؟ هل لديك أطفال؟ سأل جيمي.

- نعم، طفلة، أجاب إيثان.

- صحيح؟ كم عمرها؟

- أربعة عشر عاماً ونصف.

حدجه جيمي بنظرة غاضبة وردّ عليه محذراً بسبابته:

- جيسي ابنتي أنا، لن تنتزعها مني أبداً!

- ربما، لكن لا حقّ لك في أن تقول لها بأني تخلّيت عنها!

- وأنت، لا حق لك في الاختفاء على هذا النحو!

احتدّت الملاسنة بينهما، وتحت ثقل الضغينة المتراكمة، فقدَ جيمي أعصابه وكان على وشك التشابك مع غريمه، لولا أنّ إيثان أبدى رغبة في إصلاح الأمور:

- أعلم أنه لم يكن من السهل عليك أنت وماريزا، تحمُّل ذلك. لكن يبقى كلّ هذا جزءاً من الماضي، وعلينا الآن قلب الصفحة.

ظلّ جيمي ينظر إليه بارتياب.

- لا تعتبرني تهديداً لك يا جيمي، فأنت من ربّيت جيسي ووجّهتها أحسن توجيه. أنت الوحيد أبوها الحقيقي الذي لن يكون له نظير في حياتها.

أحسّ جيمي بنوع من الارتياح لحديثه، وهدأت أعصابه، فواصل إيثان:

- في مثل هذا العالم المخيف، لا مانع من أن نهتم بها نحن الثلاثة. عليك أن تعترف بذلك.

- لا أعرف، ردّ عليه وهو يهز كتفيه.

- توقف عن الالتفات للوراء، تعامَل مع الحياة بيُسر، واستعملْ بالأخص المال الذي تجمعه ماريزا بسذاجة منذ أعوام.

- كيف عرفتَ ذلك؟

- إنها حكاية طويلة.

- اسمع، نحن لسنا في حاجة إلى مالك.

- لست متأكداً من ذلك، لكن عليك أن تعتبر هذا المال من أجل جيسي، وليس من أجلكما، من أجل استقرارها، وسداد كلفة دراستها، وتأمين مستقبلها، ولا أطلب منك أن تُخبرها عن مصدر هذا المال!

*

كفكفت سيلين عينيها المغرورقتين بالدموع.

- ادخل.

وبينما توقعت أن يكون الطارق هو سيباستيان أو زوي، تفاجأت بفتاة شقراء تقارب الخامسة عشرة من عمرها تفتح الباب وتدخل الصالون، وتحييها

- صباح الخير.

- أهلاً. صباح الخير.

تقدّمت جيسي نحوها بخطو خجول، ونظرات سيلين مسلطة عليها. ذاك الوجه، تانك العينان.

- أعتقد أننا التقينا من قبل، قالت جيسي، حين جئت لزيارتنا من بوسطن.

- صحيح، كنت لا تزالين صغيرة.

- كان عمري عشر سنوات، وأجبرتُ على أن أغلق عليّ غرفتي.

ظلت المرأة الشابة تنظر إليها في صمت مأخوذة بشبهها الكبير بإيثان، وهو ما لم تلحظه أثناء زيارتها في تلك الفترة. كان شيئاً رائعاً وعصياً على الفهم أن تراها الآن أمامها دون أن تعرف ما تقول لها.

- هذا اليوم هو يومك المشهود، قالت لها جيسي.

أومأت لها بالإيجاب.

- فستانك جميل حقاً.

- شكراً.

توقفت جيسي عن الحديث متردّدة ثم لم تلبث أن تابعت:

ما سأقوله لك ستجدينه غريباً. من دون شك فات الأوان، ومن دون شك حياة الراشدين أكثر تعقيداً ممّا أتصور.

*

جلس إيثان وجيمي حول المائدة على سطح المركب، تحت أشعة الشمس وهبوب الريح التي تكتسح الهودسون. وكما في زمانهما القديم، فتحا قنينتي كورونا، وأخذ الحديث بينهما منحى هادئاً، وتحدّثا عن بطولة البيسبول أكثر ممّا تحدّثا عن الريد سوكس فريقهما المفضل أثناء طفولتهما. بدت الحياة قد استعادت مسارها الطبيعي والمستقبل مليئاً بالآمال الواعدة، كما لو أنّ السنوات الخمس عشرة خلفهما كانت مجرّد قوسين.

فجأة نهض جيمي من مقعده، مفرداً يده على جبهته ليقي عينيه أشعة الشمس يستطلع القادم إلى المركب.

- إنها جيسي.

- ألم أقل لك إنها جديرة بثقتي!

- غريب، ليست لوحدها، تعالَ انظر، هل تعرف هذه المرأة التي بصحبتها في فستان الزفاف؟

قام إيثان بدوره من مقعده يستطلع الأمر.

من بعيد تعرّف سيلين، وأدرك بادرة جيسي.

- ماذا؟ سأله جيمي.

سأله وهو يلتفت إليه ويرى البريق المشعّ في عينيه.

- أعتقد أن ابنتك في الرابعة عشرة من عمرها قادرة على أشياء صعبة في هذا العالم.

- ماذا؟

- ماذا أرى أمامي؟

استعادة الناس للثقة التي فقدوها في أنفسهم.

32

النهاية

إن ما نسميه بداية يكون في غالب الأحوال
نهاية. النهاية، هي المكان الذي بدءاً منه
نشدّ الرحال دائماً.

ت.س. إليوت

ولاية نيويورك
السبت 31 أكتوبر 2007
الساعة 16 ودقيقتان

ينطوي الشريط الإسفلتي بسرعة خاطفة تحت الدراجة النارية بعجلاتها العريضة. وسرجها الوطيء، ومحرّكها القوي ومثبتها الصلب، وهي تتوغّل باتجاه الهامبتونز، تحت سماء صافية تنعكس شمسها الغاشية على الواجهات المرآوية، وفوق خزان الوقود يلمع شعار هارلي دافيدسون بألف بارقة.

خلف المقود، إيثان.

خلف إيثان، سيلين.

انطلقا من نيويورك في جولة ألفة، يطويان الكيلومترات، تطوّقه بيدها وتلتصق به في لحظة احتفالية مسكرة. ينطبع لقاؤها بحدّةِ قصصِ الحبّ في أول عهدها وسكينة العشاق وهم في مأمن من كلّ فراق، وقد تركا الماضي خلفهما وهما عازمان على ألّا ينسفا

حاضرهما الساحر بأعذار أو مبررات لا نهاية لها، ويراهنان من الآن على قوة القدر الذي جمعهما معاً في كنف السعادة.

*

بين ساوث هامبتون ومونتوك، عبرا مجموعة من القرى الأنيقة المحاذية للمحيط بقلب هامبتون، بمرافئها الصغيرة القائمة على الصيد بالدلافين. تعتبر وجهة سياحية مكتظة في الصيف وهادئة في الخريف. ورغم مظاهر التبرجز التي توحي بها منازل الأثرياء، فإن هذه الأرض الساهمة في قلب المحيط قد حافظت على سحرها السرمدي الذي فتن كبار الفنانين من طينة سالفادور دالي ومارسيل دوشامب اللذين جاءا إليهما بحثاً عن الإلهام، وجاكسون بولوك الذي أنجز بها جزءاً كبيراً من أعماله. وخلال صيف 1956، وقع اختيار العريسين مارلين مونرو وأرثور ميلر على قرية أماغانست لقضاء شهر العسل استكمالاً لاحتفاليات زفافهما الخرافي، وظلّت هذه الخلوة بالنسبة إلى النجمة السينمائية أسعد أيام حياتها.

وبعد ثلاث ساعات من هذه النزهة على صهوة الدراجة، وصلت سيلين وإيثان إلى قرية مونتوك في أقصى الساحل الجنوبي لجزيرة لونغ، وهو المكان الذي يطلق عليه أهل المنطقة اسم **النهاية** باعتبارها آخر محطة لخطوط السكة الحديد، لإعلان نهاية الرحلة ونهاية التاريخ.

توقفت الدراجة أمام بيت قديم من بيوت الصيادين المبثوثة على مشارف التلال، وأطلقا ساقيهما للرمال الناعمة على طول الشاطئ، وقد انتشرت على أطرافه لفائف من القلاع والشباك. كانت الريح قوية والسماء تكنسها أسراب من الغيوم تصطبغ بألوان الأحلام.

قالت له سيلين وهما يدخلان البيت:

- إذاً، هنا مرتع غزواتك؟

حافظت القاعة الرئيسة من البيت على طابعها القديم بدعاماتها الظاهرة وأثاثها الخشبي وتحفها المتكدّسة في الأركان: مصباح العواصف الليلية، شراع مصغر، بوصلة، منظار، تشكيلة من نجوم وأحصنة البحر. وعلى الحيطان، عينات من لوازم الإنقاذ، وإلى جانبها شبكات صيد مشدودة لحبال وعوامات من الفلين.

ورغم الجو الصحو، كان البيت بارداً، وبينما كان إيثان يجمع الأخشاب لإشعال الموقد، أخذته سيلين من يده وسحبته نحو السلم.

- كنت أعتقد أنك تُسارع لإطلاعي على الغرفة.

تلتحم اليدان.

تنطبع على الشفتين الشفتان.

ويتوحّد الجسدان.

حرية مجنحة، بقايا سعادة منتزعة.

سفر خارج جاذبية الأرض، ومدار خاطف خارج الزمن.

عضّ على الشفاه، وجسدان في لحمة واحدة بقلبين ملتهبين.

حريق يأتي على كلّ شيء.

قنبلة منزوعة الصمام في قلب السرير.

نشوة، حاجة إلى الأوكسجين، خواء في تجاويف البطن.

همسات، عناق، وأنفاس تتسارع.

خصلات تتمازج، أهداب ترفرف كأجنحة الفراش.

مثل قبلة ملاك.

مثل موسيقى النجوم.

مثل دوار بهلوان في توازنه على الحبال.

*

على كتفها وشم من منمنمات تتماوج بين أغطية الكتان. علامة هندية لإحدى القبائل القديمة ترمز إلى طبيعة مشاعر الحب. **قليل منك تسرّب بداخلي إلى الأبد، وأصاب كالسمّ بالعدوى كلّ أطرافي.**

وفي الخارج، كانت الريح تهب وترعش مصاريع النوافذ.

*

التفّت سيلين في غطائها، وخرجت إلى الشرفة، تحت سماء انقشعت غيومها وبدت في صفاء رائق. تطلّعت للأفق متتبعة بعينيها قرص الشمس وهو ينحدر شيئاً فشيئاً نحو الأفول خلف خط الماء. وقبل أن يختفي تماماً، غمر نصفه العلوي الأفق بالأنوار، وبعدها ارتسم الشعاع الأخضر إيذاناً بآخر قبس من شمس المساء.

لم يستغرق المشهد أكثر من لحظة خاطفة أخاذة، ارتسمت خلالها في الأفق كتلة من لهب بلون الزمرد سرعان ما انفصلت عن الشمس واختفت على حين غرة بالسرعة نفسها التي ظهرت بها. ظلّت سيلين متسمّرة في مكانها في حالة أقرب إلى نوم مغناطيسي بفعل ذاك الأخضر الذي لم يفلح أبداً أيّ رسام في تمثّله على لوحته، ذاك الأخضر الذي يُشاع أنه لون الجنة.

تذكرت عندها هذه الأسطورة الاسكتلندية القديمة التي تقول بأن الشعاع الأخير للشمس يعطي لناظره القدرة على أن يتخلص من أوهامه وأن يستشرف ما في العواطف والقلوب.

والتحق بها إيثان وفي يديه فنجانان يتصاعد منهما البخار، وقال لها وهو يمدّها بأحدهما:

- تذوقي هذا وأخبريني عن جديد أحوالك!

- أعرف أنّ قصص الحب تبدأ بشراب الشامبانيا وتنتهي بزهر البابونج، لكني لم أفكّر بأن نكون معاً هنا.

- إنها ليست نقاعة شامبانيا، بل مشروب ساخن! فيه خلطة من الروم، والليمون، والعسل والقرفة.

نظرت إليه مبتسمة وتناولت منه جرعة.

- فعلاً، إنه ساخن!

التقطت بملعقتها نجمة اليانسون الطافية وبدأت تستمتع بمضغها.

- هل تريدين أن أحضِّر لك قليلاً من المعكرونة؟ سألها وهو يطوّقها بذراعيه.

- عرضٌ مُغرٍ.

- وصفتي الشهيرة للمعكرونة بالحبّار.

- أتساءل كيف عشتُ خمس سنين دون أن أتذوقها!

- أو بإمكاننا الذهاب إلى المطعم. هناك مطعم غير بعيد يشرف عليه فرنسي، سيحضر لك وجبة من سرطان البحر المقلي وطبقاً من الرز بالأناناس.

- هذا مثير للشهية حقاً، لكن عليّ العودة لمانهاتن.

- ماذا؟

- لقد دعوت كلّ العائلة لقطع ستة آلاف كيلومتر لحضور حفل زفاف تم إلغاؤه في آخر دقيقة.

وعليّ أن أقدّم لهم تبريراً.

- دعيني أرافقك.

- لا ، يا إيثان، هذا مشكل عليّ أن أجد له حلاً بمفردي. سأستقل القطار هذا المساء وأعود إليك غداً

لدقائق، بدت على وجهه أمارات الإحباط، لكنه سرعان ما أحسّ بالانفراج. كيف أمكنه أن يظل غافلاً؟ اليوم، أفلح في إنقاذ ابنته والتصالح مع صديقه جيمي. وملاقاة فتاة حياته من جديد. لكن شبح الموت لا يزال يتهدده. فيومه لم يكتمل بعد، ويتخوّف كما في المرات السابقة من أن ينتهي بإطلاق النار والغرق في بركة دم، ولا يريد أن يعرِّض معه للموت المرأة التي يحبها. هكذا، ألقى نظرة على الساعة في شاشة هاتفه المحمول وارتديا ملابسهما بسرعة كي لا يفوت عليها القطار.

*

في بداية مساء السبت، تعجّ محطة مونتوك بالثرثارات وصياح المجموعات من المراهقين والمراهقات بالبدلات الأنيقة والوجوه المطلية بالمساحيق في طريقهم للاحتفال بعيد الهالوين.

وعلى الرصيف، تمكّن مصادفة سبايدرمان، شيوباكا، هولك والأميرة ليلى وهم ينتظرون القطار للذهاب إلى المناطق المجاورة.

لونغ آيلند إيكسبرس، القطار المتوجه إلى محطة بِن سيغادر السكة رقم 2. ابتعدوا من فضلكم عن الرصيف.

- غداً صباحاً، سأستقل قطار الساعة 9 و46 دقيقة في نيويورك، قالت له سيلين وهي تتصفح مطوية برنامج الرحلات. سيصل هذا قبل الواحدة زوالاً بقليل. ستكون بانتظاري؟

- وبعد؟

- بعد؟

ظلّت عينا كلّ منهما عالقتين بعيني صاحبه، كأنهما في نوم مغناطيسي بفعل الحب الماثل في نظراتهما.

- وبعد، ماذا نفعل؟ سألها إيثان ويده بيدها.

- ما بدا لك؟

- نتزوج؟

- أجل، أكدّت له مبتسمة، لكن احذّرك: بعد الذي حصل، سيكون من الصعب عليّ إقناع عائلتي بالعودة مرة أخرى إلى الولايات المتحدة لحضور زفافنا!

- لا بأس، سنقيم الحفل بيننا، لسنا في حاجة إلى الآخرين، ولم نكن في حاجة إلى أحد من قبل.

- وفي ما بعد؟ سألت بدورها.

- هل سنستقر في سان فرانسيسكو؟ كان ذلك حلمك في ما مضى.

- موافقة، لكن هل فكرت في عملك؟

- أنا سأفتح عيادة هناك. وأنتِ هل فكرت في تلاميذك؟

- سأجد غيرهم هناك. ما أكثرها المدارس في كاليفورنيا.

وسمعا في مكبر الصوت بالمحطة:

- **القطار سيغادر الآن!**

صعدت سيلين أدراج القاطرة.

- وفيما بعد؟ هل ننجب أطفالاً؟

- قدر ما تريدين منهم.

- اثنين على الأقل؟

- ثلاثة على الأقل.

أغلق مراقب المحطة باب القاطرة. وجدت سيلين مقعداً بجوار النافذة. وبينما القطار يتحرك نظرت من خلال الزجاج لإيثان على الرصيف يلهج بكلمة استطاعت أن تقرأها على شفتيه:

- أ.ح.ب.ك.

- أحبك، أجابته.

هكذا كل شيء.

*

وماذا لو كانت بداية الحب الحقيقي مع نهاية الشهوة؟

*

في غاية السعادة والطمأنينة والانشراح، كان يقود دراجته، كما لو كان يسير إلى قبر مفتوح، على الطريق الخالية التي تفضي للمنزل الصغير. ترتسم على شفتيه ابتسامة، وشعره يتطاير في الهواء، وهو يستعيد صوراً متلاحقة من شريط حبّه المستعاد. أحياناً تكون المعجزات أقرب إلينا ممّا نتصور. أحياناً تترك الحياة قسوتها جانباً لتهبنا سعادة جديدة. لكن ألا يكون هذا أجمل ممّا يحتمل الواقع؟

عند وصوله إلى البيت، كان الليل قد أرخى عتمته على المكان. ارتأى أن يقوم بجولة على الشاطئ الرملي ليتأمل طويلاً السماء المرصعة بالنجوم والقمر المنعكس على صفحة البحر. كم من الوقت فقد حسّ الاهتمام بجمال العالم؟ عاش سنواته الأخيرة بمحاذاة الحياة موغلاً في إحباطاته، غارقاً في خيباته. كان لا بد له أن يعيش هذه المغامرة الغريبة كي يجد القوة اللازمة لإيقاف انزلاقه نحو الجحيم. لقد لامس القعر لكنه استطاع أن يطفو من جديد على السطح، ويرتقي للحياة.

اشتدّ هبوب الرياح، وانطلقت الأمواج من عقالها تمحو «على الرمال، خطى عاشقين حال بينهما الفراق».

*

قد تكون الساعات الأخيرة من حياة رجل أحياناً هي أجمل اللحظات التي لم يعشها.

*

بعد ثلاث أرباع الساعة من الرحلة، توقف القطار بمحطة ساوث هامبتون. كانت لا تزال نيويورك بعيدة، والقاطرة ترتجّ بهتافات مجموعة من محبي الهوكي التي تشجّع فريقها بابتهاج: رانجرز! رانجرز! رانجرز!

كانت سيلين جالسة بمقعدها قبالة ذاك السوبرمان ذي السبع سنوات وهو نائم بين ذراعي أمه. وبينما كانت الأبواب على وشك أن تنغلق سارعت الشابة الفرنسية بالنزول بدافع حدس مباغت، ووقفت على الرصيف ترقب القطار وهو يبتعد.

لماذا أقدمت على ترك إيثان ساعات فقط بعد العثور عليه؟ من أجل تقديم مبررات لعائلتها؟ تلك مسألة قابلة للتأجيل. ما كانت تريده حقاً هو اللحاق برجل حياتها، ليس شكاً في حبه، بل استشعاراً لخطر وشيك يهدِّد سعادتها.

خطر ما يتهدّدها.

*

أعدّ إيثان فنجان قهوة وجلس ليحتسيه بالقرب من الموقد. أطفأ كلّ المصابيح الكهربائية مع الإبقاء على مصباح غازي قديم. كانت الساعة الحائطية تشير إلى العاشرة ليلاً. وضع فنجانه على مصغّر مركب خشبي اتخذه رفاً ثم جلس أمامه القرفصاء يتفقد تشكيلة

أقراص الفينيل التي عثر عليها في سوق الخردة بإيست هامبتون، وأخذ أسطوانة من فئة 33 لفة لمجموعة الرولينغ ستونز بكل حرص، ووضعها على الحاكي ينصت إلى أغنية **أنجي**.

لا تزال أمامه ساعتان للانتظار، ساعتان قبل أن يعرف إنْ كان قاتله سيأتي ثانية لقتله. إنه مقتنع هذه المرة أنّ الأمور ستجري بخلاف السابق. ويومه الثالث كان استثنائياً إذ أفلح في إحباط القدر واستعاد طعم الحياة. لعلّ منطقاً ما وراء كلّ هذا. لعلّه لن يجد الموت يترصّده على طرف الطريق. لعله سيخرج من هذه المطبة المؤقتة. ولعله سيدرك في النهاية ما سيأتي من أيام: أحد، اثنين، ثلاثاء.

أخرج من جيبه المسدس ذا المقبض الصدفي الذي صادره من جيسي ووضعه على بار صغير على مقربة منه حتى يظلّ في متناول يده، ويكون في إمكانه مباغتة قاتله قبل أن يقدِم على قتله.

رشف جرعة من فنجانه وتطلّع للساعة الحائطية من جديد، ثم ارتمى على الكنبة وهو مغمض العينين يستلذّ بسماع النغمات الدافئة للفينيل، مستشعراً بذلك جمال اللحظة.

33

الموت بعينين مفتوحتين

أحياناً، لا نعرف الدور الذي لعبناه إلّا
عند مغادرتنا الخشبة.

ستانيسلاف جيرزي ليك

الساعة 23 و59 دقيقة و58 ثانية
الساعة 23 و59 دقيقة و59 ثانية

فرقعات.

صفير الريح، وهدير الموج، وزخات المطر.

صرير الباب وهو ينفتح وينغلق.

فتح إيثان عينيه. الغرفة غارقة في الظلام. كيف تأتى له أن ينام وهو في غاية الاحتراس؟ انتصب منزعجاً وبه رجفة ليكتشف أنّ سيلين كانت ممددة بجانبه ورأسها على كتفه. لماذا عادت دون سابق إشعار؟ لم يتنناه لسمعه شيء. مرتعباً، التفت للساعة الحائطية. منتصف الليل. حاول ألّا يوقظها، لكن أحداً ما كان خلفه.

فات الأوان.

اخترقت الرصاصة الأولى صدره ورمت به على الكنبة. بينما سيلين ملقاة على الأرض وهي تصرخ.

مسمراً على الأريكة، انقبضت يد إيثان على بطنه ورفع ذراعه للاحتماء.

المسدس على البار، يجب عليّ أن. . .

فات الأوان.

لم يترك له قاتله فرصة للوقوف، إذ وجّه الرصاصة الثانية إلى رأسه. تدحرج على الأرض بينما المجرم يتقدّم نحوه، مصوّباً اتجاهه مسدّسه لإطلاق الرصاصة الثالثة.

أطلقت سيلين صرخة استنجاد وهي في غاية الهلع، مسرعة للارتماء فوق إيثان لحمايته.

أصابت الرصاصة الأخيرة المرأة الشابة في صميم القلب وأسقطتها بعنف على الأرض، متطلعة بوجهها نحو حبيبها.

قبل أن يفقد وعيه بالمرة، شدّته لحظة انتباه في ثانيته الأخيرة، وخيط من الدم ينزف من فمه. وبينما كان كل شيء يغيم متمايلاً من حوله، استطاع أخيراً أن يلمح وجه قاتله.

هكذا اتضحت الأمور أمامه وأدرك نتيجة البحث الغريب الذي باشره منذ ثلاثة أيام.

الضحية،

المتحري

والجاني

كلهم كانوا الشخص نفسه.

هو نفسه.

34

أتذكر...

فعلاً هو أمرٌ أقلّ من الحياة، لكنه في
الوقت نفسه أكبر من مقت الحياة.

سينيك

بفعل الريح والمطر، وجدت مروحية الإسعاف الطبي صعوبة في الهبوط على شاطئ مونتوك. سادي وريكو، من قسم المستعجلات في مشفى سانت جود، يبذلان قصارى جهدهما بمساعدة الفريق الطبي المحلي من أجل استقرار حالة المصابين.

تمّ تمديد سيلين وإيثان على محملين، قبل نقلهما إلى الطائرة وإعطاء الإشارة للربان بالإقلاع.

أقلعت المروحية في اتجاه أفقي نحو مانهاتن.

*

في ذهن إيثان

بين الحياة

والموت

أسمع صوت ألواح المروحية الطائرة التي تحملنا إلى المشفى. أحسّ بالحياة التي تنفلت مني، وحضور سيلين في صراع مع الموت بقربي، وقلق الطبيبة التي برفقتنا.

لقد انتهى كل شيء هذه المرة. أعرف بأني لن تكون لي يقظة جديدة، ولا يوم جديد.

كل شيء في غاية الوضوح بذهني، حيث تمرّ صور آخر شهر حياتي من دون مظهر خادع أو رقابة. إنها تعكس صورة رجل فقدَ زهوه وغرق في أعماق خيباته. رجل انهدّ وهو يمعن في حياته. رجلٌ لم يعُد يغمض له جفن بلا أقراص منومة، ولا يخرج من بيته إلا بعد جرعته المعتادة من خلطته المسمومة: مهدئات الأعصاب، مسكنات الألم، ومضادات القلق. رجل في توقه المحموم لربح كلّ شيء. أفلح في فقدان كل شيء: الحب، الصداقة، العائلة، احترام الذات، طعم الحياة وطعم الآخرين.

كل شيء واضح ويعود بي لليلة تلك الجمعة المشهودة التي تحولت إلى مساحة سوداء على شاشة الذاكرة. والآن أتذكر كلّ ما وقع نهاية ذلك اليوم. أتذكر الإحساس بالإرهاق في أقصى حده، وحالة الفشل التي لم أجد القوة الكافية لتجاوزها، وذلك الانطباع الواخز على سبيل اليقين بأن يكون خوفي من الموت أقل من خوفي من الحياة. أتذكر أني أخذت هاتفي لتركيب رقم خاص حصلت عليه سراً من أحد مرضاي رفيعي المقام. أتذكر صوتاً محايداً على الطرف الآخر من الخط حدّدت معه موعداً. أتذكر رقم حساب توصّلت به على بريدي الإلكتروني عبر النظام المرموز لتصرف وكالتي البنكية بإيعاز مني عربوناً بمبلغ 300,000 دولار بعد تصفية مستنداتي المالية. أتذكر أني خرجت من مكتبي ولاحظت أن الموعد لا يزال بعيداً. أتذكر أني بدأت جولتي عبر الحانات رغبة في النسيان. أتذكر أني وصلت إلى النادي 13 بوقت قصير قبل منتصف الليل وانتظرت نصف ساعة قبل أن يلتحق الرجل بمائدتي.

الرجل بغطاء الرأس.

القاتل المأجور الأكثر مهارة في نيويورك.

أتذكر نظرته الباهتة ووجهه المعدني أتذكر صوته الرتيب وهو يسألني عمّن يستهدفه العقد الذي أأتمنه عليه. أتذكر أني مددتُ له ظرفاً بنياً تناوله وأخرج منه صورة: صورتي. أتذكر أنه لم يظهر عليه أيّ انطباع بالمفاجأة: حركتي دون شك لم تكن تلقائية كما كنت أتصور.

أتذكر آخر سؤال منه لم أكن أتوقعه:

- كم من رصاصة؟

أتذكر أنني تريثتُ لبعض الوقت قبل أن أردّ:

- ثلاث رصاصات: واحدة في الصدر، والمتبقيتان في الرأس.

أتذكر أنه نهض وبقيت أنا جالساً إلى المائدة. أتممتُ كأسي وأنا أهمس لنفسي بأن هذه المرة قد وصلتُ إلى نقطة اللارجوع.

وكان ذلك أفضل على هذا النحو.

*

كان على سطح المشفى فريق من الأطباء الداخليين والممرضين مجتمعاً لاستقبال المصابين. ولقوة الرياح، اضطرت المروحية أن تحوم لدقائق فوق العمارة قبل أن تتمكن من الهبوط. وعن طريق الاتصال، كان أعضاء الفريق المعالج على علم مسبق بالحالة الصحية للنزيلين. وبحسب الإفادات التي توصلوا بها، فإنّ الأمل في النجاة يبقى ضئيلاً.

35

في الأرض كما في السماء

امنحوني السكينة لتقبل الأشياء التي ليس بوسعي تغييرها، والشجاعة لتغيير الأشياء التي بوسعي تغييرها، والحكمة لإدراك الفرق بينهما.

صلاة السكينة

مشفى سانت جود
الأحد فاتح نوفمبر 2007
الساعة 1 و15 دقيقة

دفع الدكتور شينو ميتسوكي باب مطعم «إلفيس داينر»، مقهى ومطعم الوجبات السريعة على شكل قاطرة مقابل قسم الطوارئ. جَلَس إلى البار وطلب كأس شاي ساخن معطر بنكهة الياسمين و«كعكة حظ». تتواصل العاصفة بشدّة والقاطرة تتمايل على إيقاع هبوب الريح وهطول الأمطار تحت وميض البرق مثل سفينة في لجة الإعصار. أرخى ميتسوكي عقدة ربطة العنق في تثاؤب. عبّ رشفة من الشاي وأخرج علبة البسكويت من ورق التلفيف وقَسَمَها جزأين ليقرأ المثال المكتوب على البطاقة المبثوثة بداخلها:

مَن يعِش بلا جنون ليس حكيماً بالقدر الذي يتصوره.

فرك الطبيب جفونه وفكّر لحظة في هذه الحكمة كما لو أنها

كُتبت خصيصاً له، لكن سرعان ما انقطع تأمّله على إثر رنّة هاتفه. وضع ورقة نقدية على البار وخرج من المقهى مسرعاً تحت هول الطوفان.

*

في ذهن إيثان
بين الحياة
والموت

أسبح في الهواء عالياً فوق ممرّات المشفى، بلا عناء، مثل طير طليق يحلّق في السماء. أسمع أصواتاً مخدوشة وصرخات مبحوحة. أرى الأطباء والممرضين يحيطونني بالعناية، وأحسّ الحياة برغم ذلك تمضي. أبحث عن سيلين في كلّ غرفة. عليّ أن أسرع للعثور عليها، فلا تزال تحدوني الرغبة في مقاومة الموت لأجلها، لكنني لم أعُد أقوى. أحسّ أني أنهار وأندثر مثل رماد يتبدّد مع الريح.

انفتحت دفّتا الباب، أرى الآن جسدها ممدّداً وسط فريق طبي يحاول جاهداً إسعافها. أحاول الاقتراب منها، لكن قوة ما تحُول بيني وبينها. وقبل أن ينغلق الباب، تناهت إلى سمعي بقايا أصوات متداخلة تتمدّد عبر الزمن: «إنها تضيع منّا، يا رجل»، «نبض قلبها يتوقف»، «تناقص في تجاوب نبضها مع الإسعافات».
لأول مرة أدرك أنها تموت بسببي.

في اليوم الأخير من حياتي، استعدتُ كلّ سعادتي، ولم آخذ في الاعتبار ذاك الإحساس المسبق الذي عاودني بارتعاب على سبيل التحذير: «إذا كنت تحبّها، عليك حمايتها، وإذا كنتَ تريد حمايتها عليك بالابتعاد عنها».

لقد قتلتها.

لقد قتلتها.

لقد قتلتها.

*

الساعة الرابعة صباحاً

جسدان.

في غرفتين مختلفتين.

جسدان كانا قبل ساعات، يحبان بعضهما.

يدان كانتا تلتحمان.

ثغران كانت شفاهما تبحث عن بعض.

مستغرقة في غيبوبتها في قسم الإنعاش، في صراع من أجل البقاء بفضل آلة للتنفس تضخّ الهواء برئتيها في انتظار احتمال إجراء عملية في القلب.

وإيثان بعينين مغمضتين يخلد لنفسه في حالة موت دماغي. توقف الدم عن الدماغ ومعه تعرّضت الخلايا والوظائف العصبية للإتلاف. لكن نبضات قلبه متواصلة وحرارة جسمه تتيح الاعتقاد بأنه لا يزال على قيد الحياة.

لكن ذلك لم يكن غير وهم.

إلى جانبه وقفت كلير جيولياني، الطبيبة الشابة بالمشفى، تنظر إليه بحزن.

فجأة، انفتح باب قاعة الإنعاش ودخل شينو ميتسوكي، وقال للطبيبة الداخلية:

- لقد عثرنا على رخصة السياقة ضمن أوراقه.

ألقت كلير نظرة على البطاقة ولاحظت إثبات إيثان على الخانة

المخصّصة للموافقة على انتزاع أعضائه بعد موته، بمقتضى القانون المعمول به في الولايات المتحدة، ثم سمعت ميتسوكي يعطي أمره:

- يجب الشروع في تطبيق الإجراء. قوموا بإعلام ديتريش ومراكز الزرع.

- انتظر! هل رأيت نوع فصيلته الدموية؟

- ألف باء. وماذا بعد؟

- إنها الفصيلة الدموية نفسها للمرأة التي ترقد بانتظار زرع قلب بديل!

هزّ ميتسوكي رأسه وخرج مشيراً لكلير بأن تتبعه.

- دكتور، بإمكاننا ربما اتخاذ المبادرة.

- مستحيل، أنت تعرفين ذلك!

- ولم لا: نقوم بنزع القلب لزرعه في الحال مباشرة دونما حاجة إلى إجراءات الحفظ أو حاجة إلى نقل الأعضاء.

توقف ميتسوكي وتطلّع إلى الطبيبة الشابة بنظرة حازمة. لقد أتمّت سنة كاملة من التدريب تحت إمرته. وهو على أهبة كتابة تقرير تقييمي بشأنها صحيح أنها لطيفة زيادة قليلاً عن اللزوم، ولها إيجابيات أكيدة، ورغم ذلك تنساق كثيراً وراء مشاعرها بكلّ سهولة. كما أنها تتأخر في الالتحاق بعملها، وتعترض على قرارات رؤسائها، وتعطي دائماً الانطباع بعدم قدرتها على المواكبة لمجريات المجال. قال لها:

- ليست لنا أبداً صلاحية إصدار التعليمات.

- لكن لهذه المرأة فصيلة دم نادرة، وقد يتطلب الأمر بقاءها لأشهر على لائحة الانتظار مع كلّ المخاطر المحتمَلَة. وما أدراك أنها ستعيش إلى ذلك الحين؟

- لا أحد.

- نحن، بإمكاننا إنقاذها هذه الليلة.

- هناك إجراءات إدارية لا بدّ منها يا كلير.

- الإجراءات، مجرّد سخافات! ردّت عليه في تحدّ ظاهر.

*

أحلق عالياً فوق جسدي وأسمعهما يتحدثان عنا نحن الاثنين باعتباري شخصياً في عداد الموتى. لكنني من خلال الكلمات المرتعشة لهذه الطبيبة الشابة، كلير، أدرك أن الأمل في إنقاذ سيلين لا يزال قائماً بنزع قلبي وزرعه بدلاً من قلبها. تُرى ماذا بإمكاني أن أفعل لإقناع شينو ميتسوكي وكرماه اللعينة؟ أحسّ أني أبتعد كثيراً.

وافِقْ على اقتراحها. تباً لك. وافق عليه!

*

متشبثاً برأيه، حدج الطبيب الجراح مساعِدَته بنظرة حازمة وخاطبها بنبرة لاذعة:

- إذا كنت تودّين أن تصبحي في يوم من الأيام طبيبة، عليك فهم هذا الأمر: إن القوانين هي التي تحمينا

أجابته على الفور بالنبرة نفسها:

- إن القوانين هي التي تخنقنا.

- لقد انتهت المناقشة بيننا يا كيلر.

*

في قلب الليل، على بعد كيلومترات من هنا

رجل يتكئ على السياج المشرف على النهر، بثياب مبلّلة ووجهه مغسول بالمطر، يائساً يسدل الغطاء على رأسه تحت زخات

الماء علّها تنفُذ إلى أعماقه وتطهرها من آثار الجرائم التي ارتكبها قبل ساعات، كان يملؤه الزهو باعتباره المجرم المأجور الأكثر براعة في نيويورك، وعلى مدى أربع سنين، تعهّد بأكثر من خمسين عقد عمل دون خطأ يُذكر، وقتل بمقتضاها عشرات الضحايا ببرودة دم دون أن ترتعد منه يد أو يرتعش له جفن. لكن هذا المساء، سارت الأمور على غير ما يرام، وأصابت رصاصته الثالثة امرأة ما كان لها أن توجد هناك. لأول مرة يشعر بالرعب في أثناء مزاولته لمهمته، إلى درجة أنه استعمل هاتفه المحمول لطلب الإسعاف لها مجازفاً بحياته لإنقاذ حياتها. لماذا هذا المساء بالضبط؟ لماذا هذه الظروف؟ إنه لا يجد تفسيراً لذلك. كما في رؤيا لَعينة، شيئاً ما أثار فيه مشاعر النفور والخوف والتقزز. اندفع باتجاه نهر إيست ريفر ورمى بمسدسه بكلّ قواه وسط مياهه السوداء. لم يكتفِ بذلك، تسلق السياج ووقف عليه محافظاً على توازنه، وهو ينتصب في الفراغ. عيناه مغمضتان ورأسه مرفوع إلى السماء، تحت غزارة الأمطار المتزايدة، يبحث في داخله عمّا يكفيه من الشجاعة كي يقفز.

*

مشفى سانت جود
الساعة 4 و30 دقيقة

صفق شينو ميتسوكي خلفه باب مكتبه، وألقى نظرة عبر النافذة، كان الأفق منحسراً بالغيم وهطول المطر الذي ارتسمت خيوطه شقوقاً على الزجاج. كان من الصعب عليه أن يتقبل الأمر، وأحسّ بنوع من الضعف في مواجهة حجج وقرائن كلير. أخذ الهاتف وطلب ربطه بمركز التطعيم. قد يكون بإمكانه استصدار القرار الذي يسمح له بإجراء العملية. سمع قصف الرعد يرجّ السماء بقوة ويخفت على إثره

ضوء المصابيح بين الفينة والأخرى. بقي في انتظار ربطه بالمركز، ثم لم يلبث أن عنَّت له الفكرة فجأة. تبدو المسألة على هذا النحو خاسرة مسبقاً: أبداً لن يظفر بالموافقة اللازمة، ذلك بحكم علمه في مجال عمليات زرع القلب يبقى عدد التطعيمات المتوافرة محدوداً، والحاجيات متزايدة والقوانين صارمة جداً.

خرج مسرعاً من مكتبه بالوتيرة نفسها التي دخله ودلف يبحث عن مساعِدته:

- كلير، تحقّقي من المضادات الجسمية، والأمصال الوريدية ومن الأسفاد الضرورية. لتنطلق العملية.

- وماذا عن الإجراءات؟

- الإجراءات هذه الليلة مجرد سخافات.

*

وأخيراً تقبّل الأمر، ووافق على الاقتراح. أنا على يقين أنّ سيلين ستستعيد على يديه الحياة. والآن بإمكاني الانسحاب. حولي انعكاسات براقة من الضوء تومض كالبلور. لم أعُد أزِن شيئاً، أنا الآن مثل غيمة أتبخّر، أنمحي، أتبدّد وسط ضباب أبيض كثيف. وقبل أن أختفي بالمرة، أشعر أني ألتف وسط هالة نورانية تغمرني بالدفء والشعاع. ومع آخر نفَس ألفظه، أدركتُ كل شيء:

الزمن لا وجود له،

الحياة فضلنا الوحيد،

لا يجب التقليل من شأنها،

كلنا على رباط يجمعنا ببعض،

ومن بين أيدينا دائماً ينفلت الأهم.

*

الساعة 5 صباحاً

قام شينو ميتسوكي نفسه بشقّ القفص الصدري لإيثان. لا تزال عضلات القلب تنبض بالحياة بشكل طبيعي دون ملاحظة أي أثر لكدمة أو ورم. وفي الخارج كان لا يزال الإعصار متواصلاً في شدّة يرخي على زجاج النافذة لغرفة العمليات ستاراً مناسباً من مطر.

في الغرفة المجاورة، طبيب جراح آخر بمساعدة كلير، يفتح القفص الصدري لسيلين ويثبت الآلية الخارجية للدورة الدموية.

شرّح ميتسوكي الشريان الأورطي والأوردة الجوفاء ثم أوقف نبض قلب إيثان باستعمال سائل خاص. لماذا تورط في هذه المسألة؟ لو تمّ اكتشاف إجراء العملية من دون إذن من إدارة المشفى سيكون عرضة للطرد لا محالة، وأكثر من ذلك قد يمنع بالمرة من مزاولة المهنة وتُسحب منه كل شهاداته العلمية.

في الوقت نفسه كان جراح سيلين يباشر العملية بارتياح تامّ وهو يدندن مقطعاً موسيقياً رائقاً، في جوّ من الطلاقة -التي يراها ميتسوكي نوعاً من السماجة كتعبير منه عن اشمئزازه من الروح المرحة- مشكّلاً بذلك شريطاً صوتياً تتواتر عبره كلمة «قلب» في كلّ عنوان: **افتح قلبك**، **سرقت قلبي**، **قلب في نيويورك**.

سحب ميتسوكي القلب بكلّ عناية من قفصه الصدري ببتر الأوردة والشريان الأورطي والرئوي، مع الحرص على حفظ المفصل التجويفي في أحسن الشروط لضمان استمرار إيقاع النبض بعد زرع

القلب. هكذا في طرفة عين، طوّح بكل مبادئ الـ«كارما» التي طالما تعلّمها، وخسر مركزه كطبيب، الذي قضى أعواماً لاكتسابه. كيف انساق وراء هذه العملية؟ طالما آمن أنّ حياته مرتبطة بكلّ قوة بمبادئه ويقينياته، قبل أن يدرك أنها شبيهة في هشاشتها بحيوات الآخرين.

بينما صوت جو كوكر يصدح **أطلقي سراح قلبي** كان الطبيب يلتقط بملزم الجراحة الشريان الأورطي والأوردة المجوفة، محولاً الدورة الدموية لسيلين من جهة ولقلبها من جهة ثانية، بالاستعانة بآلة لتقوية طاقة القلب والرئتين مع الحفاظ على مراوحة حرارة الدم بين 37 و26 درجة للتخفيف من حاجة النظام العضوي إلى الأوكسجين.

وضع ميتسوكي قلب إيثان في محلول ملحي مثلوج للحفاظ على درجة فاترة من حرارته. وحمله بنفسه إلى الغرفة المجاورة لمشاركة زملائه في إتمام العملية.

تواصل هطول المطر بغزارة طوفانيه كشلالات منهمرة حوّلت المشفى في خضمها أشبه بغواصة موغلة في أعماق المحيط. سحبت كلير قلب سيلين تاركة جزءاً من أذنيه، ليضع ميتسوكي مكانه في الوقت نفسه قلب إيثان بكلّ عناية داخل القفص الصدري للمرأة الشابة، لتنطلق بعدها مباشرة أطوار هذه العملية المعقدة بالارتكاز على ربط ولَأم النقاط الأربعة لتثبيت القلب بما فيها أذنيه، والشريان الأورطي والرئوي. في غمار العملية ألقى نظرة على كلير المنهمكة في مهمّتها وأدرك حينها أنه أقدم على اتخاذ القرار من أجلها، وإرضاء لها وانسجاماً مع صورته المنطبعة في عينيها. فمنذ عشرة

أشهر وهي تشتغل تحت إمرته في المشفى، وتركت لديه انطباعاً بكونها امرأة مزعجة ومزاجية وغير مبالية، لتتّضح حقيقتها اليوم وتبدو في عينيه امرأة حية، وتلقائية وحساسة. كان يريد إلغاء مشاعره اتجاهها بالمرة، لكن مشاعره غلبته في الحال، ووجد نفسه في مواجهة مشكلة كبيرة.

مشكلة قلب.

*

استغرقت العملية الليلة بأكملها

بعد فسح مسالك تطعيم الهواء، انتقل الفريق الطبي لتأمين الدورة الدموية، وتدريجياً استعادت عضلة القلب حرارتها وباشرت وظيفتها.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة وثلاث دقائق حين أفلح الفريق الطبي بصعقة كهربائية في تشغيل قلب إيثان ليشرع في النبض في جسد سيلين.

*

وحين غادر شينو ميتسوكي غرفة العمليات وتوجّه إلى خارج المشفى، كانت الأمطار قد توقّفت عن الهطول، وبدت السماء في غاية صفائها والشمس ترسل أشعتها الناعمة فينعكس بريقها في مرايا البرك المتلألئة حول القاطرة المعدنية لمطعم إلفيس دينر.

دفع شينو باب المطعم، وشقّ طريقه وسط زحمة الرواد رأساً إلى النادل حيث طلب فنجانَي قهوة. وبخروجه إلى موقف السيارات التابع للمشفى، لمح كلير جيولياني تدخن سيجارة متكئة على محرّك سيارتها المتقادمة من نوع «الخنفساء» بطلاء بنفسجي شائن. دنا من المرأة الشابة وهي ترتعش من البرد بمعطفها ذي الياقة الموشاة

بدبابيس فضية. لقد كانت ضده، على الطرف النقيض منه، في الثقافة، والدين، وأسلوب الحياة: تُرى أيّ قاسم مشترك سيجمعهما؟ لا شيء، من دون شك لا شيء، ومع ذلك.

بابتسامة، مدّ لها شينو فنجان القهوة. نظرت إليه كلير باستغراب ظاهر تعبيراً عن مفاجأتها ببادرة ودّية لم تتعوّد عليها من رئيسها. تردّد شينو للحظة -تخوفاً من سقوطه في موقف هازئ وضياع هيبته وشرف مهنته- ثم استجمع شجاعته وقرّر الانغماس في الحياة في الاتجاه المعاكس الذي طالما تهيَّبه:

- لقد مرت عشرة أشهر على وجودك بالمشفى.

*

كان ذلك ذات أحد خريفي جميل.

كانت نيويورك حينها ترتعش، تدندن، وترتجف.

في مشفى سانت جود ملتقى كلّ الأفراح وكلّ الأتراح، تتواصل الحياة بنصيبها من الولادات والوفيات، من الشفاء والشقاء، من المسرات والمضرات.

عند نهاية المساء، في قسم العناية المركَّزة، بينما ترخي الشمس على زجاج النوافذ آخر خيوط أشعتها الخافتة، فتحت سيلين عينيها أخيراً.

36

الحياة بين النيران[1]

لا وجود للصدف، لا وجود إلا للمواعيد.

بول إيلوار

بعد شهرين

31 ديسمبر صباحاً

اسمي سيلين بلادينو. ها أنا قد بلغت الثلاثين من عمري. أركض حول البحيرة المتجمدة وسط غابة من غابات الماين. أقطع هذا المشهد المغمور بالثلوج، نشوى بهذا الامتداد الموغل في البياض تحت دفء الشمس وهي تشقّ بشعاعها شرائح البلور الجليدي العلق بفروع أشجار التنوب السامقة. تتراءى أنفاسي نفاث بخار ينبعث من فمي. أرى على الممشى خطواتي العريضة، لأختبر حدود قدراتي. لم يعد قلبي المزروع منقبضاً، إذ ينبض بسرعة أكبر عند التوقف، ويتجاوب ببطء في أثناء بذل أي جهد.

ها أنا أركض.

بعد نجاح العملية، بقيت قيد الاستشفاء تحت العناية الطبية

---

(1) عنوان كتاب للمؤلفة الروسية مارينا تسيتافا.

أربعة أسابيع. ومنذ شهر أواصل تمارين التحمّل في مركز النقاهة، وأخضع لفحوصات شبه يومية لملاحظة أدنى أعراض الحمى، وقياس النبض، وكشف علامات عدوى أو ظهور خلل في التطعيم. وأعرف أنّ التعرض للموت واردٌ في الغالب خلال السنة الموالية لعملية الزرع.

إذاً، ها أنا أركض.

أحيا بين النيران، أركض على حواف الأجراف، وأرقص على شفير الهاوية. لكن إلى متى؟ شهر؟ عام؟ عشرة أعوام؟ من يدري حقاً؟ لعل حياتي مشدودة لخيط رفيع، وكذلك هو الحال بالنسبة إلى حياتك.

أصعد الممرّ المفضي للمنتزه المكسو بندف الثلج المتساقط كالغبار. باتجاه طرف الغابة حيث يقع مركز العناية، المجهز بأحدث الآليات، عبارة عن مبنى كبير بأسطح متوازية من أحجار رمادية وجدران زجاجية. صعدت الأدراج ودخلتُ غرفتي. أخذتُ حماماً على عجل، ثم غيّرت ملابسي وخرجتُ مسرعة كي لا أتأخر عن موعدي مع الطبيب الاختصاصي في القلب.

حياني بأدب، وعلى وجهه ملامح القلق. جلستُ قبالته متأهّبة لسماع كل شيء، حتى الأسوأ فأنا أعلم أني لا أتفاعل كما يجب مع الأدوية، إذ أصبحتُ أعاني من القصور الكلوي وارتفاع الضغط والإصابة بالسكري.

- سأكون صريحاً معكِ دون مواربة.

هكذا بدأ حديثه، قبل أن يضبط نظارتيه ويعود مرة أخرى للتدقيق في آخر الفحوصات المعروضة على الشاشة أمامه.

بقيتُ متماسكة محافظة على هدوئي. لم يساورني الإحساس بالخوف، وإن انتابتني رغبة في الغثيان وشعور بالوهن والتعب.

- أنت حبلى آنستي.

لعدة ثوان، بقيت كلماته عالقة بأجواء القاعة دون أن أستوعب معناها حقيقة.

- أنت حبلى. وهذا بحسب حالتك ليس خبراً ساراً.

فجأة، أحسستُ بدمعي ينساب على خدي، وقلبي المطعَّم يخفق بالعرفان والامتنان.

- لنكن أكثر وضوحاً: بالإمكان جداً ترقب الحمل بعد عملية الزرع. لكن ليس بعد شهرين من إجراء العملية ولا في الحالة الصحية التي أنت عليها الآن. يجب أن تعلمي أنك لا تزالين على قيد الحياة بفضل اتباعك علاجاً صارماً بأدوية ذات نجاعة قوية. وهي أدوية قادرة على اختراق غشاء الرحم ومضاعفة احتمال تشوهات جنينية خلقية. وهي حالة غير معقولة لا أخفيك الخطر الذي يمكن أن تشكّله على حياتك وحياة جنينك.

إنه يتحدث بينما أنا لا أصيخ له سمعاً.

أنا في حالة شرود.

مع إيثان.

ومعه،

أنا لا أموت.

خاتمة

الحياة ولا شيء غير الحياة

بعد عام ونصف

في هذا اليوم الربيعي، في الميدان الفسيح لسنترال بارك، طفل يرمي خطواته الأولى تحت النظرة الحانية لأمه وأخته الكبرى.

سيلين وجيسي، وقد قرّبتهما لبعضهما مأساتهما المشتركة، تحسّان الآن برابط خاص يجمعهما جنباً إلى جنب لتجاوز صروف الزمن. فاثنان معاً على درب الحياة، يمكن أن يسيرا بسرعة أقل، لكنهما يصلان حتماً إلى أبعد حدّ.

عادت جيسي لمواصلة دراستها بعد تصالحها مع والديها، في حين أنّ سيلين تواجه بكلّ إصرار المضاعفات المترتبة عن عملية الزرع التي خضعت لها على مستوى القلب.

ورغم أنهما لا تتحدثان أبداً عن إيثان، إلا أنهما تتصوران معاً أنه يرقبهما من أعاليه ويحرسهما.

في هذه الأثناء، على الطرف الآخر من جسر بروكلين، كانت أشعة الشمس المشرفة على الأفول تنعكس على مرآة القيادة لسيارة أجرة عتيقة ذات شكل مكتنز متناسق.

وكان رجلان يتكئان معاً على غطاء المحرك، ينخرطان معاً في نقاش محموم، أحدهما زنجي بقامة فارعة وعين منكمشة، والآخر طبيب آسيوي غريب الأطوار.

هذا المساء كما في كلّ المساءات، يجتمع كلّ من «القدر» و«الكارما» ليتنازعا حول خاتمة قصة كانت قد بدأت منذ عهد بعيد.

قصة الحب والموت.

قصة الظلمات والنور.

قصة النساء والرجال.

بكل اختصار، هكذا تستمر الحياة.

غيوم ميسو

عائد لأبحث عنك

«أسرعوا للحياة، أسرعوا للحب، لأنكم لا تعرفون الوقت المتبقي في حساب أعماركم. نحن نظنّ دائماً أن لدينا ما يكفي من الوقت، لكن الحقيقة خلاف ذلك. في يومٍ ما، سندرك بعد فوات الأوان أننا بلغنا نقطة اللارجوع، هذه اللحظة التي لا يمكننا عندها العودة إلى الوراء؛ اللحظة التي يدرك فيها المرء أنه فوّت على نفسه فرصة الحياة...».

إيثان، سيلين، جيسي.

رجل، امرأة، طفلة.

ثلاث شخصيات على شفير الهاوية.

ستتقاطع، ستتصادم، وستحب.

هل اجتازوا نقطة اللارجوع؟

لديهم 24 ساعة لتغيير كل شيء.

ولكن هل يمكن للحب أن ينتصر على الموت؟

وهل تسير الحياة بقوة الـ«كارما» أم بقوة القدر؟

تشويق آسر

قصة حب مثيرة

نهاية مذهلة

❖ ❖ ❖

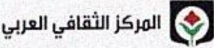
«يعود ويبرهن لنا ميسو مجدداً بأنه أستاذٌ في فن التشويق».

مجلة باري ماتش

ISBN 978-9953-68-856-5








الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com